رَفْعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

إتحاف السالك

بفوائد حديث المخلفين من رواية كعب بن مالك

بقلم
أبي أسامة سليم بن عيد الهلالي

مركز الدراسات المنهجية السلفية

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

إتحاف السالك

بفوائد حديث المخلفين
من رواية كعب بن مالك

جميع الحقوق محفوظة

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

إتحاف السالك
بفوائد حديث المخلفين
من رواية كعب بن مالك

بقلم:
أبي أسامة سليم بن عيد الهلالي

مركز الدراسات المنهجية السلفية

بسم الله الرحمن الرحيم

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

مُقَدِّمَة

إن الحمد لله؛ نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له.

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

أمّا بعد: فقد اتفقت كلمة جِلّة علماء الإسلام في فواتح مصنّفاتهم وغرر مدوّناتهم: أنّ شرف العلم تابعٌ لشرف معلومه، وأصل معدنه مؤثّرٌ على جوهر مولوده.

وقد حصل لي بالتّتبع والاستقراء: «أنّ أولى ما صرفت فيه نفائس الأيام، وأغلى ما خصّ بمزيد الاهتمام، الاشتغال بالعلوم الشّرعية المتلقاة عن خير البريّة، ولا يرتاب عاقلٌ في أنّ مدارها على كتاب الله المقتفى؛ وسنة نبيّه المصطفى، وأنّ باقي العلوم إما آلات لفهمها وهي الضّالة المطلوبة، أو أجنبية عنها وهي الضّارة المغلوبة»(١).

ثم رأيت أفضلها جمعاً، وأعظمها خيراً ونفعاً علم الحديث الّذي هو أمّ العلوم الشّرعية: «فإنه علم الصّدر الأول، والّذي عليه بعد القرآن المعوّل، وهو لعلوم الإسلام أصلٌ وأساس، وهو المفسّر للقرآن بشهادة لتبين للنّاس(٢)، وهو الّذي قال الله فيه تصريحاً: **﴿إن هو إلا وحيٌ يوحى﴾**

---

(١) «هدي الساري مقدمة فتح الباري»، (ص٣).

(٢) يشير إلى قوله تعالى: **﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم﴾** [النحل: ٤٣].

[النجم:٤]، وهو الّذي وصفه الصّادق الأمين بمماثلة القرآن المبين؛ حيث قال في التّوبيخ لكل مترفٍ إمّعة[١]: «**إني أوتيت القرآن ومثله معه**»[٢]، وهو العلم الّذي لم يشارك القرآن سواه في الإجماع على كفر جاحد المعلوم في لفظه ومعناه، وهو العلم الّذي إذا تجاثت الخصوم للرّكب، وتفاوتت العلوم في الرّتب، أصمت مرنان نوافله كل مناضلٍ، وأصمت برهان معارفه كل فاضلٍ، وهو العلم الّذي ورّثه المصطفى المختار والصّحابة الأبرار والتّابعون الأخيار، وهو العلم الفائضة بركاته على جميع أقاليم الإسلام، الباقية حسناته في أمّة الرسول عليه السلام، وهو العلم الّذي صانه الله من عبارات الفلاسفة، وتقيّدت عن سلوك مناهجه فهي راسفة[٣] في الفلاء آسفة، وهو العلم الّذي جلا الإسلام به في ميدان الحجّة وصلى، وتجمل بديباج ملابسة من صام وصلّى، وهو العلم الفاضل حين تلجلج الألسنة بالخطاب، الشّاهد له بالفضل رجوع عمر بن الخطّاب[٤]، وهو العلم الّذي تفجّرت منه بحار العلوم الفقهية والأحكام الشّرعيّة، وتزيّنت بجواهره التّفاسير القرآنيّة، والشّواهد النّحويّة، والدّقائق الوعظية، وهو العلم الّذي

---

(١) هُوَ من لا رأي له، فهو يتابع كل ناعق، ويميل مع كل ريح؛ لأنه لا يستضيء بنور العلم، ولم يلجأ إلى ركن وثيق.

(٢) صحيح -أخرجه أبو داود (٤٦٠٤)، والترمذي (٢٦٦٤)، وأحمد (٤/ ١٣٠ -١٣١) وغيرهم.

من حديث المقدام بن معد يكرب رضي الله عنه.

وقد جمعت طرقه وشواهده في كتابي «مجمع البحرين في تخريج أحاديث الوحيين» يسر الله نشره بخير. وانظر لزاماً مجلتنا (الأصالة) عدد (١٣، ١٤) (ص١٠٢- ١١٦).

(٣) مُقَيَّدَة.

(٤) انظر لزاماً «الرسالة» للشافعي (ص ٤٢٠).

يميز الله به الخبيث من الطّيب، ولا يرغم إلا المبتدع المتريب، وهو العلم الّذي يسلك بصاحبه نهج السّلامة، ويوصله دار الكرامة، السّارب[١] إلى حدائق الشّارب من حقائقه كلّ عالم بالسّنّة، ولابسٍ من كل صوفٍ جنّة[٢]، وسالك منهاج الحق إلى الجنّة، وهو العلم الّذي إليه يرجع الأصوليّ وإن برز في علمه، والفقيه وإن برز في ذكائه وفهمه، والنّحويّ وإن برز في تجويد لفظه، واللّغويّ وإن اتّسع حفظه، والواعظ المبصر، والصّوفي المفسّر، كلهم إليه راجعون، ولرياضه منتجعون»[٣].

ولما كان علم الحديث روايةً ودرايةً ورعايةً رأيت أن أتصدى للاقتباس من أنواره تقريراً واستنباطاً، وأكرع من مناهله الرّوية انتزاعاً وانتشاطاً، وقد رأيت منذ سنواتٍ خلت: أن قصّة الثّلاثة الّذين خلّفوا في غزوة العسرة قد اشتملت على فوائد جمّة زوائد، وحوت حكماً عظيمة فرائد؛ ففي كل فقرة منها عبرةٌ بل عبر، وفي جملتها صورٌ عميقة الأثر:

تبرز من خلالها صلابة مجتمع الصّحابة الأبرار الّذي أشاده رسول الله ﷺ فأحسن، وتظهر متانة بنائه الّذي رصّه المعصوم ﷺ رصّاً فأتقن، ويشرق صفاء عناصره الّذين هداهم الله للإيمان وزيّنه في قلوبهم فامتنّ.

وتتجلّى في ظلالها قناعةٌ لفهم تكاليف الدّعوة، ولقيمة الأمر والنّهي، ولضرورة السّمع والطّاعة.

فقمت على استخراجها، وآلفت بينها، وسميتها: «**إتحاف السّالك بفوائد حديث المخلفين من رواية كعب بن مالك**».

---

(١) الظاهر.

(٢) سترة ووقاية.

(٣) «الروض الباسم في الذب عن سنة أبي القاسم»، ابن الوزير، (١/ ٤ - ٥).

وهذه الدّراية والرّعاية هي حظّ أصحاب النبي ﷺ؛ فقد كانوا أبرّ هذه الأمّة قلوباً، وأعمقها فهماً، وأرسخها علماً، وأقلها تكلّفاً، وأقومها هدياً، وأحسنها حالاً، وقد أحكمه عليّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه في جوابه لأبي جحيفة السّوائي عندما سأله: هل عندكم كتاب؟ فقال علي رضي الله عنه: «لا، إلا كتاب الله، أو فهماً أعطيه رجلٌ مسلم»(١).

وهي وصيّتهم لبعضهم ولمن بعدهم؛ كما في كتاب عمر بن الخطّاب رضي الله عنه في القضاء الّذي أرسله لأبي موسى الأشعري رضي الله عنه؛ فقال فيه: «الفهم الفهم فيما يتلجلج في صدرك، ويشكل عليك: ما لم ينزل في الكتاب، ولم تجر به سنّة.

واعرف الأشباه والأمثال، ثمّ قس الأمور بعضها ببعضٍ، فانظر أقربها إلى الله، وأشبهها بالحقّ، فاتّبعه، واعمد إليه»(٢).

وهو الّذي عناه الإمام ابن قيّم الجوزيّة في فاتحة «تهذيب السّنن»(٣) فقال: «فإنّ أولى ما صرفت إليه العناية، وجرى المتسابقون في ميدانه إلى أفضل غاية، وتنافس فيه المتنافسون، وشمّر إليه العاملون العلم الموروث عن خاتم المرسلين، ورسول ربّ العالمين، والّذي لا نجاة لأحدٍ إلا به، ولا فلاح له في داريه إلا بالتّعلق بسببه، الّذي من ظفر به فقد فاز وغنم، ومن

---

(١) أخرجه البخاري (١١١).

قال الحافظ في «فتح الباري» (١/ ٢٠٤): «فالاستثناء الأول مفرغ، والثاني منقطع، معناه: لكن إن أعطى الله رجلاً فهماً في كتابه فهو يقدر على الاستنباط؛ فتحصل عنده الزيادة بذلك الاعتبار».

(٢) انظر لزاماً كتابي «من وصايا السلف» (ص ٤٦)؛ ففيه شرح وتخريج لهذا الكتاب العظيم الذي تلقاه علماء الأمة بالقبول.

(٣) (١/ ٥-٧).

صـدف عنــه فقـد خسـر وحـرم؛ لأنّــه قطـب السـعادة الـذي مدارهــا عليـه، وآخــية[(١)] الإيمـان الّذي مرجعه إليه، فالوصول إلى الله وإلى رضوانه بدونـه محال، وطلب الهدى من غيره هو عين الضّلال، وكيف يوصل إلى الله مـن غـير الطريق التي جعلها هو سبحانه موصلة إليه، ودالّة لمن سلك فيها عليـه، بعـث رسـوله بهـا مناديـاً، وأقامه على أعلامها داعياً، وإليها هادياً؟ فالبـاب عـن السّـالك في غيرهـا مسـدود، وهـو عـن طريـق هداه وسعادته مصـدود، بـل كلمـا ازداد كدحاً واجتهاداً ازداد من الله طرداً وإبعاداً، ذلك أنـه صـدف[(٢)] عـن الصّـراط المسـتقيم، وأعرض عن المنهج القويم، ووقف مـع آراء الرجــال، ورضـي لنفسـه بكـثرة القيـل والقـال، وأخلـد إلى أرض التقليـد، وقنـع أن يكـون عيـالاً علـى أمثالـه من العبيد، لم يسلك في سبل العلـم مناهجهـا، ولم يرتـق في درجاتـه معارجها، ولا تألقت في خلده أنوار بوارقـه، ولا بات قلبه يتقلّب بين رياضه وحدائقه، لكنه ارتضع من لم تطهر بالعصمـة لبانـه، وورد مشـرباً آجناً[(٣)] طالما كدّره قلب الوارد ولسانه، تضجّ منـه الفـروج والدّمـاء والأمـوال إلىمن حلّل الحلال وحرّم الحرام، وتعجّ منه الحقـوق إلى مـنزل الشّـرائع والأحكـام، فحق على من كان في سعادة نفسه سـاعياً، وكـان قلبـه حيّـاً وواعيـاً، أن يرغب بنفسه أن يجعل كدّه وسعيه في نصـرة مـن لا يملـك لـه ضـرّاً ولا نفعاً، وأن لا ينزلها في منازل الّذين ضلّ سـعيهم وهـم يحسـبون أنهم يحسنون صنعاً، فإن لله يوماً يخسر فيه المبطلون، ويربح فيه المحقون: ﴿**ويوم يعض الظّالم على يديه**﴾ [الفرقان: ٢٧]».

ورحـم الله أخـاً ناصحـاً أمينـاً وجـد حقـاً صحيحاً؛ فرجحه، أو خطأ

---

(١) عروة تثبت في الأرض أو حائط وتربط بها الدابة؛ والمراد: عروة الإيمان.

(٢) أعرض ومال.

(٣) فاسداً؛ تغيّر طعمه، ولونه، ورائحته.

صريحاً؛ فأصلحه؛ فإني راجعٌ عن أخطائي في حياتي ومماتي، وأعوذ بالله الكريم أن أتعمد مخالفةً لكتابه أو سنة رسوله، أو أقصد مجازفةً عن سبيل المؤمنين.

وأسأل الله الكريم المنان مولانا الحق: أن يتولانا وإخواننا بفضله ومنّه وكرمه في الدارين، إنه بكل جميلٍ كفيل، وهو حسبي ونعم الوكيل.

قاله بفمه وكتبه بقلمه

حامداً لربه ومصلياً ومسلّماً على رسول الله ﷺ

أبو أسامة سليم بن عيد الهلالي

السّلفيّ عقيدةً ومنهجاً وسلوكاً وفروعاً

النّجدي موطناً، الفلسطيني الخليلي مولداً، الأردني إقامة وداراً

في ضحى يوم الجمعة لثلاث عشرة ليلة بقيت من ربيع الآخر سنة ١٤١٨هـ

في عمّان البلقاء عاصمة إقليم الأردن من جند الشّام المحروسة.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

نص الحديث ورواياته

عن عبد الله بن كعب(١)، كان قائد كعب من بنيه(٢) حين عَمِيَ، [وكان أعلَمَ قَومه وأوعاهُم(٣) لأحاديثِ أصحابِ رسولِ الله ﷺ].

قَالَ: سمعت كعب بن مالك يحدِّث حديثه حين تَخلَّف(٤) عَن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك.

قَالَ كَعبُ بنُ مَالِكٍ: لَم أَتَخلَّف عَن رسولِ الله ﷺ فِي غَزوَةٍ غزَاهَا قَطُّ إلا فِي غَزوَةِ تَبُوكَ، غَيرَ أَنِّي قد تَخلَّفتُ فِي غَزوَة بَدرٍ، وَلَم يعاتب [الله] أَحَدًا تَخلَّفَ عَنهُ، إِنَّمَا خَرَجَ رسولُ الله ﷺ وَالمسلِمُونَ يُرِيدُونَ عِيرَ(٥) قُرَيشٍ حَتَّى جَمَعَ الله بَينَهُم وَبَينَ عَدُوِّهم على غَيرِ مِيعَادٍ.

وَلَقد شَهِدتُ مَعَ رسولِ الله ﷺ لَيلَةَ العَقَبَةِ(٦) حِينَ تَوَاثَقنَا على الإِسلامِ(٧)، وَمَا أُحِبُّ أَنَّ لِي بِهَا مَشهَدَ بَدرٍ، وَإِن كانت بَدرٌ أَذكَرَ(٨) فِي النَّاسِ مِنهَا، (وفي رواية: وإن كانت بدرٌ أكثر ذكراً في النَّاس منها).

---

(١) في روايتي محمد بن عبدالله ومعقل بن يسار عن الزهري عند مسلم (٢٧٦٩) (٥٤) (٥٥) عن عبيد الله بن كعب مصغراً، وسائر الرواة عن الزهري عن عبد الله بن كعب مكبراً، وهو الصواب؛ كما قال المحققون؛ كالدارقطني وغيره.

(٢) وقع في بعض الروايات «بيته» وهو تصحيف، والله أعلم.

(٣) أحفظهم.

(٤) زمان تخلفه.

(٥) قافلة أبي سفيان التي كان فيها أموال قريش وتجارتها.

(٦) الليلة التي بايع رسول الله ﷺ الأنصار فيها على الإسلام، والعقبة: هي طرف منى التي تضاف إليها جمرة العقبة، وكانت بيعة العقبة مرتين في سنتين.

(٧) تبايعنا عليه، وتعاهدنا على نصرته، وحماية رسول الله ﷺ.

(٨) أعظم ذكراً.

وَكَان مِن خَبَرِي حِينَ تَخَلَّفتُ عَن رسولِ الله ﷺ فِي غَزوَة تَبُوكَ: أَنِّي لَم أَكُن قَطُّ أَقوَى وَلا أَيسَرَ مِنِّي حِينَ تَخَلَّفتُ عَنهُ فِي تِلكَ الغَزوَة وَالله، مَا جَمَعتُ قَبلَهَا رَاحِلَتَينِ قَطُّ حَتَّى جَمَعتُهُمَا فِي تِلكَ الغَزوَةِ [فكان رسول الله ﷺ قلما يريد غزوة إلا وَرّى[1] بغيرها، حتى كانت تلك الغزوة][2]؛ فَغَزَاهَا رسولُ الله ﷺ فِي حَرٍّ شَدِيدٍ، وَاستَقبَلَ سَفَرًا بَعِيدًا وَمَفَازًا[3]، وَاستَقبَلَ عَدُوًّا كَثِيرًا، فَجَلا[4] لِلمُسلِمِينَ أَمرَهُم لِيَتَأَهَّبُوا أُهبَةَ غَزوِهِم[5]، فَأَخبَرَهُم بِوَجهِهِم[6] الَّذِي يُرِيدُ، وَالمُسلِمُونَ مَعَ رسولِ الله ﷺ كَثِيرٌ وَلا يَجمَعُهُم كِتَابُ حَافِظٍ -يريد بذلك الدِّيوَانَ- (وفي رواية: وغزا رسُول الله ﷺ بناس كثير يزيدون عن عشرة آلاف[7] لا يجمعهم ديوان حافظ)[8].

---

(١) أوهم غيرها، والتورية: أن يذكر لفظاً يحتمل معنين: أحدهما أقرب من الآخر؛ فيوهم إراده القريب، وهو يريد البعيد.

(٢) زاد أبو داود (٢٦٣٧) من طريق محمد بن ثور عن معمر عن الزهري به وكان يقول: «الحرب خدعة»؛ وهي زيادة صحيحة، ولها شواهد من حديث جابر وأبي هريرة رضي الله عنهما.

(٣) بَرِّية طويلة قليلة الماء، يخاف فيها الهلاك، وسميت مفازة تفاؤلاً بالسلامة، والفوز، والنجاة.

(٤) بتشديد اللام ويجوز تَخفيفها: كشفه وأوضحه وَبيَّنَه وَعَرَّ فه على وجهه من غير تورية.

(٥) ليستعدوا بما يحتاجون إليه في سفرهم.

(٦) بمقصدهم.

(٧) قال الحافظ في «فتح الباري» (٨/ ١١٧ - ١١٨): «وللحاكم في «الإكليل» من حديث معاذ: «خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى غزوة تبوك زيادة على ثلاثين ألفاً»، وبهذا جزم ابن إسحاق، وأورده الواقدي بسند آخر موصول، وزاد أنه كان معه عشرة آلاف فرس، فتحمل رواية معقل على إرادة عدد الفرسان».

(٨) يريد ديوان مكتوب، وهذا يقوي رواية التنوين لا الإضافة.

قَالَ كَعبٌ: فَقَلَّ رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَتَغَيَّبَ [إلا] يَظُنُّ أَنَّ ذَلِكَ سَيَخفى لـه مَا لَم يَنزِل فِيهِ وَحيٌ مِنَ الله عَزَّ وَجَلَّ، وَغزا رسولُ الله ﷺ تِلكَ الغَزوَةَ حِينَ طَابَتِ الثِّمَارُ وَالظِّلالُ، فَأَنَا إِلَيهَا أصعَرُ[١]، فَتَجَهَّزَ رسولُ الله ﷺ وَالمسلِمُونَ مَعَهُ، وَطَفِقتُ أغدُو لِكَي أَتَجَهَّزَ مَعَهُم فَأَرجِعُ وَلَم أَقضِ شَيئًا، وَأَقُولُ فِي نَفسِي: أَنَا قَادِرٌ على ذَلِكَ إِذَا أَردتُ، فَلَم يَزَل ذَلِكَ يَتَمَادَى بِي حَتَّى استَمَرَّ بِالنَّاسِ الجِدُّ[٢]، فَأَصبَحَ رسولُ الله ﷺ غَادِياً وَالمسلِمُونَ مَعَهُ، وَلَم أَقضِ مِن جَهَازِي شَيئًا [فقلت: أتجهز بعده بيوم أو يومين ثم ألحقهم]، ثُمَّ غَدَوتُ [بعد أن فصلوا لأتجهز] فَرَجَعتُ وَلَم أَقضِ شَيئًا، فَلَم يَزَل ذَلِكَ يَتَمَادَى بِي حَتَّى أَسرَعُوا[٣]، وَتَفَارَطَ الغَزوُ[٤]، فَهَمَمتُ أَن أَرتَحِلَ فَأُدرِكَهُم؛ فَيَا لَيتَنِي فَعَلتُ، ثُمَّ لَم يُقدَّر ذَلِكَ لِي، فَطَفِقتُ (وفي رواية: فكنت) إِذَا خَرَجتُ فِي النَّاسِ بَعدَ خُرُوجِ رسولِ الله ﷺ [فطفت فيهم] يَحزُنُنِي أَنِّي لا أَرَى لِي أُسوَةً إِلا رَجُلاً مَغمُوصاً عَلَيهِ فِي النِّفَاقِ[٥] أو رَجُلاً مِمَّن عَذَرَ الله مِنَ الضُّعَفَاءِ، وَلَم يَذكُرنِي رسولُ الله ﷺ حَتَّى بَلَغَ تَبُوكاً[٦]، فَقَالَ وَهو جَالِسٌ فِي القَومِ بِتَبُوكَ: «مَا فَعَلَ كَعبُ بنُ مَالِكٍ؟» قَالَ رَجُلٌ مِن بَنِي سَلِمَةَ: يَا رسولَ الله حَبَسَهُ بُردَاهُ[٧]، وَالنَّظَرُ فِي عِطفَيهِ[٨]. فَقَالَ له مُعَاذُ بنُ

---

(١) أميل.

(٢) الاجتهاد في الشيء والمبالغة فيه.

(٣) قال الحافظ (٨/ ١١٨): وفي رواية «الكشميهني: «حتى شرعوا» بالشين المعجمة وهو تصحيف».

(٤) سبق الغزاة، وفاتوا.

(٥) متهماً بالنفاق مطعوناً في دينه.

(٦) هكذا مصروفه، وللأكثر بغير صرف، وإنّما صرفها لإرادة الموقع دون البقعة.

(٧) ثوباه، والعرب تسميه عطفاً لوقوعه على عطفي الرجل.

(٨) جانبيه، والمراد: شدة إعجابه بنفسه ولباسه.

جَبَلٍ: بِئسَ مَا قُلتَ، وَاللهِ يَا رسولَ اللهِ مَا عَلِمنَا عَلَيهِ إلا خَيرًا. فَسَكَتَ رسولُ الله ﷺ [فبينَمَا هو على ذَلِكَ رَأَى رَجُلاً مُبَيِّضًا[(١)] يَزُولُ[(٢)] بِهِ السَّرَابُ[(٣)]، فَقَالَ رسولُ الله ﷺ: «**كُن أَبَا خَيثَمَةَ**»[(٤)]؛ فَإِذَا هو أَبُو خَيثَمَةَ الأنصَارِيُّ، وَهو الَّذِي تَصَدَّقَ بِصَاعِ التَّمرِ حِينَ لَمَزَهُ[(٥)] المُنَافِقُونَ].

فَقَالَ كَعبُ بنُ مَالِكٍ: فَلَمَّا بَلَغَنِي أَنَّ رسولَ الله ﷺ تَوَجَّهَ قَافِلاً[(٦)] مِن تَبُوكَ حَضَرَنِي بَثِّي[(٧)] (وفي رواية: همي) فَطَفِقتُ أَتَذَكَّرُ الكَذِبَ، وَأَقُولُ: بِمَ أَخرُجُ مِن سَخَطِهِ غَدًا؟ وَأَستَعِينُ على ذَلِكَ [بـ] كُلَّ ذِي رَأيٍ مِن أَهلِي، فَلَمَّا قِيلَ لِي: إِنَّ رسولَ الله ﷺ قد أَظَلَّ[(٨)] قَادِمًا زَاحَ[(٩)] عَنِّي البَاطِلُ حَتَّى عَرَفتُ أَنِّي لَن أَنجُوَ مِنهُ بِشَيءٍ أَبَدًا [فيه كذب] فَأَجمَعتُ[(١٠)] صِدقَهُ، وَصَبَّحَ رسولُ الله ﷺ قَادِماً، وَكان إِذَا قَدِمَ مِن سَفَرٍ بَدَأَ بِالمَسجِدِ فَرَكَعَ فِيهِ رَكعَتَينِ، ثُمَّ جَلَسَ لِلنَّاسِ، فَلَمَّا فَعَلَ ذَلِكَ جَاءَهُ المُخَلَّفُونَ؛ فَطَفِقُوا يَعتَذِرُونَ إِلَيهِ، وَيَحلِفُونَ له وَكَانُوا بِضعَةً وَثَمَانِينَ رَجُلاً؛ فَقَبِلَ مِنهُم رسولُ الله ﷺ عَلانِيَتَهُم، وَبَايَعَهُم، وَاستَغفَرَ لهم، وَوَكَلَ سَرَائِرَهُم إِلَى اللهِ،

---

(١) لابس البياض.

(٢) يتحرك وينهض.

(٣) هو ما يظهر للإنسان في الهواجر في الصحارى كأنه ماء.

(٤) اللهم اجعله أبا خيثمة، وهو على التحقيق والوجود.

(٥) عابوه واحتقروه.

(٦) راجعاً.

(٧) شدة الحزن.

(٨) أقبل دون قدومه.

(٩) انكشف وزال.

(١٠) عزمت عليه، وجزمت به.

حَتَّى جِئتُ فَلَمَّا سَلَّمتُ [عليه] تبَسَّمَ تبَسُّمَ المُغضَبِ ثُمَّ قَالَ: «**تَعَالَ**»؛ فَجِئتُ أَمشِي حَتَّى جَلَستُ بَينَ يَدَيهِ، فَقَالَ لِي: «**مَا خَلَّفَكَ؟ أَلَم تَكُن قدِ ابتَعتَ ظَهرَكَ؟**». قَالَ: قُلتُ: [بلى] يَا رسولَ الله، إِنِّي وَالله لَو جَلَستُ عِندَ غَيرِكَ مِن أَهلِ الدُّنيَا لَرَأَيتُ أَنِّي سَأَخرُجُ مِن سَخَطِهِ بِعُذرٍ، وَلَقد أُعطِيتُ جَدَلاً[١]، وَلَكِنِّي وَالله لَقَد عَلِمتُ لَئِن حَدَّثتُكَ اليَومَ حَدِيثَ كَذِبٍ تَرضَى بِهِ عَنِّي، لَيُوشِكَنَّ[٢] الله أَن يُسخِطَكَ عَلَيَّ، وَلَئِن حَدَّثتُكَ حَدِيثَ صِدقٍ تَجِدُ عَلَيَّ فِيهِ[٣] إِنِّي لأرجُو فِيهِ عُقبَى الله[٤] [وفي رواية: عفو الله]، [لا] وَالله مَا كَانَ لِي [من] عُذرٍ، وَالله مَا كُنتُ قَطُّ أَقوَى وَلا أَيسَرَ مِنِّي حِينَ تَخَلَّفتُ عَنكَ.

قَالَ رسولُ الله ﷺ: «**أَمَّا هَذَا فَقد صَدَقَ، فَقُم حَتَّى يَقضِيَ الله فِيكَ**»؛ فَقُمتُ.

وَثَارَ رِجَالٌ مِن بَنِي سَلِمَةَ فَاتَّبَعُونِي، فَقَالُوا لِي: وَالله مَا عَلِمنَاكَ أَذنَبتَ ذَنبًا قَبلَ هَذَا، لَقد عَجَزتَ فِي أَن لا تَكُونَ اعتَذَرتَ إِلَى رسولِ الله ﷺ بِمَا اعتَذَرَ بِهِ إِلَيهِ المُخَلَّفُونَ [وفي رواية: المتخلفون]، فَقَد كَانَ كَافِيَكَ ذَنبَكَ استِغفَارُ رسولِ الله ﷺ لَكَ[٥].

---

(١) فصاحة وقوة في الكلام وبراعة، بحيث أخرج من عهدة ما ينسب إلي إذا أردت بما يُقْبل ولا يُرد.

(٢) ليسرعن.

(٣) تغضب.

(٤) أي يعقبني خيراً، وأن يثني عليه.

(٥) وفي رواية: فقال كعب: «ما كنت لأجمع أمرين: أتخلف عن رسول الله ﷺ، وأكذبه، فقالوا: إنك شاعر جريء، فقال: أما على الكذب فلا».

قَالَ: فَوَاللهِ؛ مَا زَالُوا يُؤَنِّبُونَنِي[١] حَتَّى أَرَدتُ أَن أَرجِعَ إِلَى رسولِ الله ﷺ فَأُكَذِّبَ نَفسِي.

قَالَ: ثُمَّ قُلتُ لهم: هَل لَقِيَ هَذَا مَعِي مِن أَحَدٍ؟ قَالُوا: نَعَم، لَقِيَهُ مَعَكَ رَجُلانِ، قَالا مِثلَ مَا قُلتَ، فَقِيلَ لهمَا مِثلَ مَا قِيلَ لَكَ. قَالَ: قُلتُ: مَن هُمَا؟ قَالُوا: مُرَارَةُ بنُ الرَّبِيعَةَ العَامِرِيُّ[٢] وَهلالُ بنُ أُمَيَّةَ الوَاقِفِيُّ.

قَالَ: فَذَكَرُوا لِي رَجُلَينِ صَالِحَينِ قد شَهِدَا بَدرًا فِيهِمَا أُسوَةٌ، قَالَ: فَمَضَيتُ حِينَ ذَكَرُوهُمَا لِي.

قَالَ: وَنَهَى رسولُ الله ﷺ المُسلِمِينَ عَن كَلامِنَا أَيُّهَا الثَّلاثَةُ[٣] مِن بَينِ مَن تَخَلَّفَ عَنهُ.

قَالَ: فَاجتَنَبَنَا النَّاسُ، وَقَالَ: تَغَيَّرُوا لَنَا، حَتَّى تَنَكَّرَت لِي فِي نَفسِيَ الأَرضُ؛ فَمَا هِيَ بِالأَرضِ الَّتِي أَعرِفُ[٤]؛ فَلَبِثنَا على ذَلِكَ خَمسِينَ لَيلَةً، فَأَمَّا صَاحِبَايَ فَاستَكَانَا[٥]، وَقَعَدَا فِي بُيُوتِهِمَا يَبكِيَانِ، وَأَمَّا أَنَا فَكُنتُ أَشَبَّ القَومِ وَأَجلَدَهُم[٦] فَكُنتُ أَخرُجُ فَأَشهَدُ الصَّلاةَ [مع المسلمين]، وَأَطُوفُ فِي الأَسوَاقِ، وَلا يُكَلِّمُنِي أَحَدٌ، وَآتِي رسولَ الله ﷺ فَأُسَلِّمُ عَلَيهِ وَهو فِي

---

(١) يلومني أشد اللوم.

(٢) هكذا هو في جميع نسخ مسلم: العامري، وأنكره العلماء وقالوا: هو غلط إنما صوابه العمري، من بني عمرو بن عوف، وكذا ذكره البخاري، وكذا نسبه محمد بن إسحاق وابن عبد البر، وغيرهما من الأئمة، قال القاضي: هو الصواب.

(٣) هو بالرفع، وموضعه نصب على الاختصاص.

(٤) تغيّر علي كل شيء حتى الأرض، فإنها توحشت عليّ، وسارت كأنها أرض لم أعرفها، بتوحشها عليّ.

(٥) خضعاً.

(٦) أصغرهم سناً وأقواهم.

مَجلِسِهِ بَعدَ الصَّلاةِ؛ فَأَقُولُ فِي نَفسِي: هَل حَرَّكَ شَفَتَيهِ بِرَدِّ السَّلامِ [عليَّ] أَم لا ؟ ثُمَّ أُصَلِّي قَرِيبًا مِنهُ وَأُسَارِقُهُ النَّظَرَ(١)، فَإِذَا أَقبَلتُ على صَلاتِي نَظَرَ إِلَيَّ (وفي رواية: أقبل إليَّ)، وَإِذَا التَفَتُّ نَحوَهُ أَعرَضَ عَنِّي، حَتَّى إِذَا طَالَ ذَلِكَ عَلَيَّ مِن جَفوَةِ(٢) المسلِمِينَ (وفي رواية: الناس)؛ مَشَيتُ حَتَّى تَسَوَّرتُ(٣) جِدَارَ حَائِطِ(٤) أَبِي قَتَادَةَ وَهو ابنُ عَمِّي وَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ فَسَلَّمتُ عَلَيهِ، فَوَالله مَا رَدَّ عَلَيَّ السَّلامَ. فَقُلتُ له: يَا أَبَا قَتَادَةَ أَنشُدُكَ اللهَ(٥) هَل تَعلَمَنَّ أَنِّي أُحِبُّ الله وَرسوله؟ قَالَ: فَسَكَتَ، فَعُدتُ فَنَاشَدتُهُ فَسَكَتَ، فَعُدتُ فَنَاشَدتُهُ، فَقَالَ: الله وَرسولُهُ أَعلَمُ؛ فَفَاضَت عَينَايَ، وَتَوَلَّيتُ حَتَّى تَسَوَّرتُ الجِدَارَ، فَبينَا أَنَا أَمشِي فِي سُوقِ المَدِينَةِ إِذَا نَبَطِيٌّ مِن نَبَطِ (وفي رواية: أنباط) أَهلِ الشَّامِ(٦) مِمَّن قَدِمَ بِالطَّعَامِ يَبِيعُهُ بِالمَدِينَةِ، يَقُولُ: مَن يَدُلُّ على كَعبِ بنِ مَالِكٍ؟ قَالَ: فَطَفِقَ النَّاسُ يُشِيرُونَ له إِلَيَّ حَتَّى جَاءَنِي فَدَفَعَ إِلَيَّ كِتَاباً مِن مَلِكِ غَسَّانَ، وَكُنتُ كَاتِباً فَقَرَأتُهُ، فَإِذَا فِيهِ: أَمَّا بَعدُ؛ فَإِنَّهُ قد بَلَغَنَا أَنَّ صَاحِبَكَ قد جَفَاكَ، وَلَم يَجعَلكَ الله بِدَارِ هَوَانٍ وَلا مَضيَعَةٍ(٧)، فَالحَق بِنَا نُوَاسِكَ(٨). قَالَ فَقُلتُ حِينَ قَرَأتُهَا: وَهَذِهِ

(١) أنظر إليه في خفية.

(٢) إعراضهم.

(٣) علوته وصعدت سوره: وهو أعلاه.

(٤) بستانه وحديقته، وذكر أنه ابن عمه؛ لأنه من قومه بني سلمة وليس ابن عمه أخي أبيه الأقرب.

(٥) أي أسألك بالله، وأصله من النشيد: وهو الصوت.

(٦) النبط والأنباط والنبيط، وهم: فلاحو العجم، وسموا بذلك؛ لأنهم يستنبطون الماء؛ أي: يستخرجونه.

(٧) فيها لغتان: إحدهما مَضِيعة، والثانية؛ مَضْيَعة، أي: موضع وحال يضيع فيه حقك.

(٨) وفي بعض النسخ: نواسيك، بزيادة ياء وهو الصحيح، أي: ونحن نواسيك=

أَيضاً مِنَ البَلاءِ؛ فتيَامَمتُ[١] بِهَا التَّنُّورَ؛ فَسَجَرتُهَا[٢] بِهَا. حَتَّى إِذَا مَضَت أَربَعُونَ مِنَ الخَمسِينَ وَاستَلبَثَ[٣] الوَحيُ، إِذَا رسولُ رسولِ الله ﷺ يَأتِينِي، فَقَالَ: إِنَّ رسولَ الله ﷺ يَأمُرُكَ أَن تَعتَزِلَ امرَأَتَكَ. قَالَ: فَقُلتُ أُطَلِّقُهَا أَم مَاذَا أَفعَلُ؟ قَالَ: لا بَلِ اعتَزِلها؛ فَلا تَقرَبَنَّهَا.

قَالَ: فَأَرسَلَ إِلَى صَاحِبَيَّ بِمِثلِ ذَلِكَ، قَالَ: فَقُلتُ لامرَأَتِي الحَقِي بِأَهلِكِ؛ فَكُونِي عِندَهُم حَتَّى يَقضِيَ الله فِي هَذَا الأَمرِ.

قَالَ: فَجَاءَتِ امرَأَةُ هِلالِ بنِ أُمَيَّةَ رسولَ الله ﷺ؛ فَقَالَت له: يَا رسولَ الله إِنَّ هِلالَ بنَ أُمَيَّةَ شَيخٌ ضَائِعٌ لَيسَ له خَادِمٌ فَهَل تكرَهُ أَن أَخدُمَهُ؟ قَالَ: «**لا، وَلَكِن لا يَقرَبَنَّكِ**» فَقَالَت: إِنَّهُ وَالله مَا بِهِ حَرَكَةٌ إِلَى شَيءٍ، ووَالله مَا زَالَ يَبكِي مُنذُ كان مِن أَمرِهِ مَا كان إِلَى يَومِهِ هَذَا.

قَالَ: فَقَالَ لِي بَعضُ أَهلِي: لَوِ استَأذَنتَ رسولَ الله ﷺ فِي امرَأَتِكَ، فَقَد أَذِنَ لامرَأَةِ هِلالِ بنِ أُمَيَّةَ أَن تَخدُمَهُ. قَالَ: فَقُلتُ: لا أَستَأذِنُ فِيهَا رسولَ الله ﷺ وَمَا يُدرِينِي مَاذَا يَقُولُ رسولُ الله ﷺ إِذَا استَأذَنتُهُ فِيهَا وَأَنَا رَجُلٌ شَابٌّ. قَالَ: فَلَبِثتُ بِذَلِكَ عَشرَ لَيَالٍ، فَكَمُلَ لَنَا خَمسُونَ لَيلَةً مِن حِينَ نُهِيَ عَن كَلامِنَا.

قَالَ: ثُمَّ صَلَّيتُ صَلاةَ الفَجرِ صَبَاحَ خَمسِينَ لَيلَةً على ظَهرِ بَيتٍ مِن

=وقطعه عن جواب الأمر. معناه: نشاركك فيما عندنا، وفي رواية: «في أموالنا، فقلت: إنا لله قد طمع في أهل الكفر».

(١) هكذا في جميع النسخ، وهي لغة في تيممت، ومعناها: قصدت.

(٢) أحرقتها، وأنث الضمير؛ لأنه أراد معنى الكتاب، وهو الصحيفة، والتنور: ما يخبز فيه.

(٣) أبطأ.

بُيُوتنا، فَبَينَا أَنَا جَالِسٌ على الحَالِ الَّتِي ذَكَرَ الله عَزَّ وَجَلَّ مِنَّا، قد ضَاقَت عَلَيَّ نَفسِي وَضَاقَت عَلَيَّ الأرضُ بِمَا رَحُبَت[1]؛ سَمِعتُ صَوتَ صَارِخٍ أوفَى على سَلع[2] يَقُولُ بِأَعلَى صَوتِهِ: يَا كَعبَ بنَ مَالِكٍ، أَبشِر. قَالَ: فَخَرَرتُ سَاجِداً، وَعَرَفتُ أَن قد جَاءَ فَرَجٌ. قَالَ: فَآذَنَ رسولُ الله النَّاسَ[3] بِتَوبَةِ الله عَلَينَا حِينَ صَلَّى صَلاةَ الفَجرِ؛ فَذَهَبَ النَّاسُ يُبَشِّرُونَنَا، فَذَهَبَ قِبَلَ صَاحِبَيَّ مُبَشِّرُونَ، وَرَكَضَ رَجُلٌ إِلَيَّ فَرَسًا وَسَعَى سَاعٍ مِن أَسلَمَ قِبَلِي، وَأوفَى الجَبَلَ فَكان الصَّوتُ أَسرَعَ مِنَ الفَرَسِ، فَلَمَّا جَاءَنِي الَّذِي سَمِعتُ صَوتَهُ يُبَشِّرُنِي فَنَزَعتُ له ثَوبَيَّ فَكَسَوتُهُمَا إِيَّاهُ بِبِشَارَتِهِ، وَالله مَا أَملِكُ غَيرَهُمَا يومَئِذٍ[4]، وَاستَعَرتُ ثَوبَينِ فَلَبِستُهُمَا، فَانطَلَقتُ أَتَأَمَّمُ[5] رسولَ الله ﷺ يَتَلَقَّانِي النَّاسُ فَوجًا فَوجًا[6] يُهَنِّئُونِي بِالتَّوبَةِ وَيَقُولُونَ: لِتَهنِئكَ تَوبَةُ الله عَلَيكَ حَتَّى دَخَلتُ المَسجِدَ؛ فَإِذَا رسولُ الله ﷺ جَالِسٌ فِي المَسجِدِ وَحَوله النَّاسُ؛ فَقَامَ طَلحَةُ بنُ عُبَيدِ الله يُهَروِلُ، حَتَّى صَافَحَنِي وَهَنَّأَنِي وَالله مَا قَامَ رَجُلٌ مِنَ المُهَاجِرِينَ غَيرُهُ. قَالَ: فَكان كَعبٌ لا يَنسَاهَا لِطَلحَةَ.

قَالَ كَعبٌ: فَلَمَّا سَلَّمتُ على رسولِ الله ﷺ قَالَ: وَهو يَبرُقُ وَجهُهُ مِنَ السُّرُورِ وَيَقُولُ: «**أَبشِر بِخَيرِ يَومٍ مَرَّ عَلَيكَ مُنذُ وَلَدَتكَ أُمُّكَ**».

قَالَ: فَقُلتُ: أَمِن عِندِكَ يَا رسولَ الله أَم مِن عِندِ الله؟ فَقَال: «**لا بَل**

---

(١) بما اتسعت، ومعناه: ضاقت عليّ الأرض مع أنها متسعة، والرحب: السعة.

(٢) صعده وارتفع عليه، وسلع: جبل بالمدينة النبوية معروف.

(٣) أعلمهم.

(٤) من جنس الثياب.

(٥) أقصد.

(٦) جماعة جماعة.

مِن عِندِ الله».

وَكان رسولُ الله ﷺ إِذَا سُرَّ استَنَارَ وَجهُهُ كَأَنَّ وَجهَهُ قِطعَةُ قَمَرٍ. قَالَ: وَكُنَّا نَعرِفُ ذَلِكَ[منه].

قَالَ: فَلَمَّا جَلَستُ بَينَ يَدَيهِ قُلتُ: يَا رسولَ الله، إِنَّ مِن تَوبَتِي أَن أَنخَلِعَ مِن مَالِي[١] صَدَقَةً إِلَى الله وَإِلَى رسولِهِ ﷺ؛ فَقَالَ رسولُ الله ﷺ: **«أَمسِك عليك بَعضَ مَالِكَ فَهو خَيرٌ لَكَ»**.

قَالَ فَقُلتُ: فَإِنِّي أُمسِكُ سَهمِيَ الَّذِي بِخَيبَرَ.

قَالَ: وَقُلتُ يَا رسولَ الله: إِنَّ الله إِنَّمَا أَنجَانِي بِالصِّدقِ، وَإِنَّ مِن تَوبَتِي أَن لا أُحَدِّثَ إِلا صِدقًا مَا بَقِيتُ.

قَالَ: فَوَالله مَا عَلِمتُ أَنَّ أَحَدًا مِنَ المُسلِمِينَ أَبلاهُ[٢] الله فِي صِدقِ الحَدِيثِ مُنذُ ذَكَرتُ ذَلِكَ لِرسولِ الله ﷺ إِلَى يَومِي هَذَا أَحسَنَ مِمَّا أَبلانِي الله بِهِ، وَالله مَا تَعَمَّدتُ كَذِبَةً مُنذُ قُلتُ ذَلِكَ لِرسولِ الله ﷺ إِلَى يَومِي هَذَا، وَإِنِّي لأرجو أَن يَحفَظَنِي الله فِيمَا بَقِيَ.

قَالَ: فَأَنزَلَ الله عَزَّ وَجَلّ: **﴿لَقَد تَابَ الله على النَّبِيِّ وَالمُهَاجِرِينَ وَالأنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ العُسرَةِ مِن بَعدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنهُم ثُمَّ تَابَ عَلَيهِم إِنَّهُ بِهِم رَءُوفٌ رَحِيمٌ. وَعلى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَت عَلَيهِمُ الأَرضُ بِمَا رَحُبَت وَضَاقَت عَلَيهِم أَنفُسُهُم﴾** حَتَّى بَلَغَ: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا الله وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾** [التوبة: ١١٧، ١١٨].

---

(١) أخرج منه، وأتصدق به.

(٢) أنعم عليه، والبلاء والإبلاء يكون في الخير والشر، ولكن إذا أطلق كان للشر غالباً، فإذا أريد الخير، قيد كما قيده هنا، فقال: أحسن مما أبلاني.

قَالَ كَعبٌ: وَاللهِ مَا أَنعَمَ اللهُ عَلَيَّ مِن نِعمَةٍ قَطُّ بَعدَ إِذ هَدَانِي اللهُ لِلإِسلامِ أَعظَمَ فِي نَفسِي مِن صِدقِي رسولَ اللهِ ﷺ، أَن لا أَكُونَ كَذَبتُهُ[(١)]؛ فَأَهلِكَ كَمَا هَلَكَ الَّذِينَ كَذَبُوا، إِنَّ اللهَ قَالَ لِلَّذِينَ كَذَبُوا حِينَ أَنزَلَ الوَحيَ شَرَّ مَا قَالَ لأَحَدٍ، وَقَالَ اللهُ: ﴿**سَيَحلِفُونَ بِاللهِ لَكُم إِذَا انقَلَبتُم إِلَيهِم لِتُعرِضُوا عَنهُم فَأَعرِضُوا عَنهُم إِنَّهُم رِجسٌ وَمَأوَاهُم جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكسِبُونَ. يَحلِفُونَ لَكُم لِتَرضَوا عَنهُم فَإِن تَرضَوا عَنهُم فَإِنَّ اللهَ لا يَرضَى عَنِ القَومِ الفَاسِقِينَ**﴾ [التوبة :٩٥،٩٦].

قَالَ كَعبٌ: كُنَّا خُلِّفنَا أَيُّهَا الثَّلاثَةُ عَن أَمرِ أُولَئِكَ الَّذِينَ قَبِلَ مِنهُم رسولُ اللهِ ﷺ حِينَ حَلَفُوا له، فَبَايَعَهُم وَاستَغفَرَ لهم، وَأَرجَأَ رسولُ اللهِ ﷺ أَمرَنَا حَتَّى قَضَى اللهُ فِيهِ، فَبِذَلِك قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿**وَعلى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا**﴾، وَلَيسَ الَّذِي ذَكَرَ اللهُ مِمَّا خُلِّفنَا تَخَلُّفَنَا عَنِ الغَزوِ، وَإِنَّمَا هو تَخلِيفُهُ إِيَّانَا وَإِرجَاؤُهُ أَمرَنَا[(٢)] عَمَّن حَلَفَ له وَاعتَذَرَ إِلَيهِ فَقَبِلَ مِنهُ»[(٣)].

---

(١) هكذا هو في جميع نسخ مسلم، وكثير من روايات البخاري، قال العلماء: لفظه لا في قوله: أن لا أكون زائدة، ومعناه: أن أكون كذبته، كقوله تعالى: ﴿**ما منعك أن لا تسجد إذ أمرتك**﴾. [الأعراف: ١٢].

(٢) تأخيره.

(٣) أخرجه البخاري (٤٤١٨)، ومسلم (٢٧٦٩) والسياق له، والزيادة الأولى والثانية له، وكذلك الرواية الأولى، وباقي الزيادات والروايات للبخاري.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفوائد

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفائدة الأولى: إباحة الغنيمة لهذه الأمة الإسلامية المرحومة.

ويبرز هذا المعنى في قول كعب رضيَ اللهُ عنهُ واصفاً خروج الأحبة محمد ﷺ وصحبه: «وخرجوا يريدون عير قريش».

وهذا مما خص الله سبحانه وتعالى به أمة الإسلام؛ لقوله ﷺ: **«أُعطيتُ خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت للناس عامة»**(١).

إن الماضين كانوا يغزون ويأخذون أموال أعدائهم وأسلابهم لكن لا يتصرّفون فيها بل يجمعونها، وعلامة قبول غزوهم ذلك أن تنزل نار من السماء فتأكلها، وعلامة عدم قبوله أن لا تأكلها، ومن أسباب عدم القبول أن يقع الغلول فيهم، وقد مَنَّ الله عَلى أمة محمد ﷺ ورحمها بشرف نبيها عنده؛ فأحل لهم الغنيمة وستر عليهم الغلول، فطوى عنهم فضيحة أمر عدم القبول، كما جاء في حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قَالَ:

«غزا نبي(٢) من الأنبياء فقَالَ لقومه: لا يتبعني رجل ملك بضع امرأه(٣) وهو يريد أن يبني(٤) بها ولما يبن بها، ولا أحد بنى بيوتاً ولم يرفع

(١) أخرجه البخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١) من حديث جابر رضي الله عنه، وله شاهد من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(٢) هو يوشع بن نون فتى موسى عليهما السلام؛ لقوله ﷺ: **«ما حبست الشمس على بشر قطّ: إلا على يوشع بن نون ليالي سار إلى بيت المقدس»**.

صحيح- أخرجه أحمد (٢/ ٣٢٥)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (٩/ ٩٩) وغيرهما من حديث أبي هريرة. رضي الله عنه بإسناده صحيح على شرط البخاري؛ كما قال شيخنا حفظه الله في «الصحيحة» (٢٢٢٦).

(٣) فرج امرأة، والمراد: تزوجها.

(٤) يدخل بها.

سقوفها، ولا آخر اشترى غنماً أو خلفات[١] وهو ينتظر ولادها؛ فغزا فدنا من القرية[٢] صلاة العصر أو قريباً من ذلك؛ فقَالَ للشمس: إنك مأمورة وأنا مأمور، اللهم احبسها علينا، فحبست حتى فتح الله عليهم، فجمع الغنائم، فجاءت[٣] لتأكلها فلم تطعمها، فقال: إن فيكم غلولاً، فليبايعني من كل قبيلة رجل، فلزقت يد رجل بيده، فقال: فيكم الغلول فليبايعني قبيلتك، فلزقت يد رجلين أو ثلاثة بيده، فقال: فيكم الغلول، فجاؤوا برأس بقرة من الذهب فوضعوها، فجاءت النار فأكلتها، ثم أحل الله لنا الغنائم، رأى ضعفنا وعجزنا، فأحلها لنا»[٤].

وفي رواية: «لم تحل الغنائم لأحد سود الرؤوس من قبلكم، كانت تنزل نار من السماء فتأكلها»[٥].

ولهذا فالغنائم رزق ساقه الله لأمة محمد ﷺ المرحومة إذا قامت بحق الجهاد في سبيل الله؛ كما في حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «بعثت بين يدي الساعة بالسيف حتى يعبد الله وحده، وجعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعل الذل والصغار على من خالف أمري، ومن تشبه بقوم فهو منهم»[٦].

(١) هي النوق الحوامل، وقد يطلق على غيرها.

(٢) هي بيت المقدس كما تقدم (ص٢٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أي النار.

(٤) أخرجه البخاري (٣١٢٤)، ومسلم (١٧٤٧).

(٥) صحيح- أخرجه الترمذي (٣٠٨٥)، والنسائي في «الكبرى» (٩/ ٣٨٣- تحفة الأشراف)، وابن حبان (٤٨٠٦)، والبيهقي (٦/ ٢٩٠- ٢٩١) وغيرهم.

قلت: إسناده صحيح على شرط الشيخين؛ كما قاله شيخنا حفظه الله في «الصحيحة» (٢١٥٥).

(٦) صحيح لغيره- أخرجه أحمد (٢/ ٥٠ و٩٢)، والخطيب البغدادي في «الفقيه والمتفقه» (٢/ ٧٣)، وابن الأعرابي في «معجمه» (ق٢٢٢)، وابن أبي شيبة في «مصنفه»=

قال الحافظ في «فتح الباري» (٦/ ٩٨): «في الحديث إشارة إلى

=(٥/ ٣١٣)، والهروي في «ذم الكلام» (ق٥٤/ ٢)، وعبد بن حميد في «المنتخب» (ق٩٢/ ٢)، وغيرهم من طريق عبدالرحمن بن ثابت بن ثوبان ثنا حسان بن عطية عن أبي منيب الجرشي عنه به.

قلت: إسناده حسن، وفي عبدالرحمن بن ثابت كلام لا ينزل حديثه عن درجة الحسن.

وقد جوّد إسناده شيخ الإسلام في «اقتضاء الصراط المستقيم» (ص ٣٩)، وصححه الحافظ العراقي في «المغني عن حمل الأسفار» (١/ ٣٤٢).

وعلق البخاري (٦/ ٩٨) جملة: «جعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمري».

وقال الحافظ في «فتح الباري»: «هو طرف من حديث أخرجه أحمد من طريق أبي منيب... وأبو منيب لا يعرف اسمه، وفي الإسناد عبدالرحمن بن ثابت بن ثوبان مختلف في توثيقه، وله شاهد مرسل بإسناد حسن أخرجه ابن أبي شيبة من طريق الأوزاعي عن سعيد بن جبلة عن [طاووس] عن النبي ﷺ بتمامه».

وأخرجه بتمامه في «تغليق التعليق» (٣/ ٤٤٥) ثم أشار إلى شاهده المرسل.

قلت: أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٥/ ٣٢٢) بتمامه، والقضاعي في «مسند الشهاب» (٣٩٠) الجملة الأخيرة.

ورجاله ثقات غير سعيد بن جبلة ذكره ابن أبي حاتم في «الجرح والتعديل» (٤/ ١٠) وقال: هو شامي.

ولم ينفرد ابن ثوبان به، فله متابعة عند الطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (٢٣١) حدثنا أبو أمية محمد بن وهب بن عطية حدثنا الوليد بن مسلم حدثنا الأوزاعي عن حسان بن عطية عن أبي منيب الجرشي عن عبدالله بن عمر مثله سواء.

وإسناده رجاله ثقات غير شيخ الطحاوي ففي «التقريب»: «صدوق صاحب حديث، يهم».

وبالجملة؛ فالحديث صحيح بمجموع ذلك، والله أعلم.

فضـل الرمـح، وإلى حـل الغنائم لهذه الأمة، وإلى أن رزق النبي ﷺ جعل فيهـا لا في غيرهمـا مـن المكاسـب، ولهـذا قـال بعض العلماء: إنها أفضل المكاسب».

وكـان بدايـة ذلـك في غزوة بدر حيث قال الله تعالى لنبيه وأصحابه: ﴿فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً واتقوا الله إن الله غفور رحيم﴾ [الأنفال:٦٩].

فلله الحمدُ على نعمه تترى، وله الثناء الحسن في الأولى والأخرى.

الفائدة الثانية: القتال يوم بدر لم يكن فرضاً عينياً.

والشـاهد في ذلـك قـول كعـب رضي الله عنه: «لم أتَخلف عن رسول الله ﷺ في غـزوة غزاهـا قط إلا في غزوة تبوك، غير أني قد تخلفت في غزوة بدر، ولم يُعَاتَب الله أحداً تخلف عنه».

وهـذا استثناء مـن المفهـوم في قولـه: «لـم أتخلف إلا في تبوك»؛ فإن مفهومـه إني حضرت جميع الغزوات ما خلا غزوة تبوك، والسبب في كونه لم يستثنهما معـا بلفـظ واحـد كونـه تخلـف في غـزوة تبـوك مختـاراً مع تقدم الطلـب ووجـوب النفـير ووقـوع العتـاب علـى من تخلف، بخلاف بدر في ذلك كله؛ فلذلك غاير بين التخلفين.

ومفهومـه أيضاً: أن الجهاد أصبح فرضاً عينياً بعد يوم بدر، ولذلك إذا استنفر الإمـام الجيش، لزمهـم النفـير، ولم يجـز لأحد التخلف إلا بإذنه، ولا يشـترط في وجـوب النفـير تعيـين كـل واحـد منهـم بعينـه، بل متى استنفر الجيـش لـزم كـل واحـد منهم الخروج معه، وهذا أحد المواضع الثلاثة التي يصـير فيهـا الجهاد فرض عين، والثاني: إذا حضر العدو البلد، والثالث: إذا حضر بين الصفين»[1].

(١) «زاد المعاد» (٣/ ٥٥٨).

الفائدة الثالثة: جواز التحدث بنعم الله إذا لم يكن على سبيل الفخر والترفع والرياء.

وشاهد ذلك قول كعب رضي الله عنه: «ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام، وما أحب أن لي بها مشهد بدر وإن كانت بدر أذكر في النَّاس منها».

إعلموا -أرشدكم الله- أن الله سبحانه وتعالى إذا أسبغ على عبده نعمة؛ فإنه جل جلاله يحب أن يرى أثرها عليه؛ لقوله ﷺ: «**إذا أنعم الله عز وجل على عبده نعمه فإنه يحب أن يرى أثر نعمته على عبده**»(١).

ومن آثار نعمة الله على العبد: التحدث بنعمة الله، وفي ذلك يقول الله عز وجل: ﴿**وأما بنعمة ربك فحدث**﴾ [الضحى: ١١].

وفي هذا التحديث قولان:

أحدهما: أنه ذكر النعمة والإخبار بها، وقول العبد: أنعم الله علي بكذا وكذا.

والآخر: هو الدعوة إلى الله وتبليغ رسالته.

والصواب: أنه يعم النوعين، إذ كل نعمة مأمور بشكرها والتحدث بها، وإظهارها في شكرها.

قال القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» (٢٠/ ١٠٢):

«والخطاب للنبي ﷺ، والحكم عام له ولغيره».

---

(١) صحيح- أخرجه أحمد (٤/ ٨٣٢)، وابن سعد في الطبقات (٤/ ٢٩١ و ٧/ ١٠) وغيرهم من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه.

قلت: وهو صحيح.

ولهذا قال رسول الله ﷺ: **«التحدث بنعمة الله شكر، وتركها كفر»**[(١)].

وقال رسول الله ﷺ: **«من أبلي**[(٢)] **بلاء فذكره فقد شكره، وإن كتمه فقد كفره»**[(٣)].

وهذا ما درج عليه أهل العلم منذ قديم الزمان، ولن أنسى قول الحافظ أبي طاهر السلفي رحمه الله:

ليس على الأرض في زماني من شأنه في الحديث شاني[(٤)]

وهذا السيوطي كتب سيرته الذاتية في كتاب وسمه بـ «التحدث بنعمة الله»[(٥)] ذاكراً فيه كثيراً مما أنعم الله به عليه.

وانظر إلى الشيخ محمد عابد السندي رحمه الله يقول: «لمثلي فليسع؛ لأن بيني وبين البخاري تسعة»[(٦)].

واسمع إلى قول الحافظ ابن رجب يعقب على بحث نفيس في توجيه آيات المواريث: «وهذا مما فتح الله به، ولا أعلم أحداً سبق إليه، ولله

---

(١) حسن- أخرجه أحمد (٤/ ٢٧٨ و ٣٧٥) وغيره من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

قلت: وهو حسن.

(٢) أنعم عليه، والإبلاء: الإنعام والإحسان.

(٣) صحيح- أخرجه أبو داود (٤٨١٤)، وأبو نعيم في «أخبار أصبهان» (١/ ٢٥٩) من حديث جابر رضي الله عنه.

قلت: وهو صحيح.

(٤) «فهرس الفهارس»، الكتاني، (٢/ ٩٩٦)، وانظر مقدمة «سؤالات السلفي» (ص١١).

(٥) وقد طبعته جامعة كمبرج سنة ١٩٧٥م.

(٦) «فهرس الفهارس»، الكتاني، (٢/ ٧٢٢).

االحمد والمنة»[١].

قال مقيده أبو أسامة الهلالي: ضابط هذا الباب أن لا يكون كِبراً أو فخراً أو ترفعاً ورياءً، فقد حدث رسول الله ﷺ بنعمة الله عليه مبيناً هذا الضابط؛ فقال: «**إني لأول النَّاس تنشق الأرض عن جمجمتي يوم القيامة ولا فخر، وأعطى لواء الحمد ولا فخر، وأنا سيد النَّاس يوم القيامة ولا فخر، وأنا أول من يدخل الجنة ولا فخر**» الحديث[٢].

الفائدة الرابعة: بيعة العقبة من أفضل مشاهد الصَّحابَة.

وشاهد ذلك أن كعباً رضي الله عنه كان لا يراها دون مشهد بدر.

واستمع إلى كعب بن مالك رضي الله عنه يحدث عن تلك الليلة العظيمة التي تواثقوا فيها على نصرة الإسلام؛ فقال: «خرجنا في حجاج قومنا من المشركين، وقد صلينا وفقهنا ومعنا البراء بن معرور كبيرنا وسيدنا فلما توجهنا لسفرنا وخرجنا من المدينة قال البراء لنا: يا هؤلاء إني قد رأيت والله رأياً وإني ما أدري ما توافقوني عليه أم لا ؟ قال: قلنا له: وما ذاك؟ قال: قد رأيت أن لا أدع هذه البنية مني بظهر -يعني الكعبة- وأن أصلي إليها. قال: فقلنا: والله ما بلغنا أن نبينا يصلي إلا إلى الشام، وما نريد أن نخالفه. فقال: إني أصلي إليها. قال: فقلنا له: لكنا لا نفعل؛ فكنا إذا حضرت الصلاة صلينا إلى الشام وصلى إلى الكعبة حتى قدمنا مكة. قال أخي وقد عبنا عليه ما صنع وأبى إلا الإقامة عليه، فلما قدمنا

---

(١) «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٤٧٥- ٤٧٦).

(٢) صحيح- أخرجه أحمد (٣/ ٤١٤) واللفظ له، والدارمي(١/ ٢٧) من حديث أنس رضي الله عنه.

قلت: وهو صحيح.

مكة قال: يا ابن أخي انطلق إلى رسول الله ﷺ؛ فاسأله عما صنعت في سفري هذا، فإنه والله قد وقع في نفسي منه شيء لما رأيت من خلافكم إياي فيه. قال: فخرجنا نسأل رسول الله ﷺ وكنا لا نعرفه لم نره قبل ذلك؛ فلقينا رجل من أهل مكة؛ فسألناه عن رسول الله ﷺ، فقال: هل تعرفانه؟ قال: قلنا: لا. قال: فهل تعرفان العباس بن عبد المطلب عمه؟ قلنا: نعم. قال: وكنا نعرف العباس كان لا يزال يقدم علينا تاجراً قال: فإذا دخلتما المسجد فهو الرجل الجالس مع العباس. قال: فدخلنا المسجد فإذا العباس جالس ورسول الله ﷺ معه جالس؛ فسلمنا ثم جلسنا إليه؛ فقال رسول الله ﷺ للعباس: «**هل تعرف هذين الرجلين يا أبا الفضل؟**» قال: نعم، هذا البراء بن معرور سيد قومه، وهذا كعب بن مالك. قال: فو الله ما أنسى قول رسول الله ﷺ: «**الشاعر**» قال: نعم. قال: فقال البراء بن معرور: يا نبي الله إني خرجت في سفري هذا وهداني الله إلى الإسلام؛ فرأيت أن لا أجعل هذه البنية مني بظهر؛ فصليت إليها، وقد خالفني أصحابي في ذلك حتى وقع في نفسي من ذلك شيء فماذا ترى يا رسول الله؟ قال: «**لقد كنت على قبلة لو صبرت عليها**» قال: فرجع البراء إلى قبلة رسول الله ﷺ، فصلى معنا إلى الشام. قال: وأهله يزعمون أنه صلى إلى الكعبة حتى مات، وليس ذلك كما قالوا، ونحن أعلم به منهم. قال: وخرجنا إلى الحج فواعدنا رسول الله ﷺ العقبة من أوسط أيام التشريق، فلما فرغنا من الحج وكانت الليلة التي وعدنا رسول الله ﷺ ومعنا عبدالله ابن عمرو بن حرام أبو جابر سيد من سادتنا، وكنا نكتم من معنا من قومنا من المشركين أمرنا؛ فكلمناه، وقلنا له: يا أبا جابر إنك سيد من ساداتنا وشريف من أشرافنا وإنا نرغب بك عما أنت فيه أن تكون حطباً للنار غداً ثم دعوته إلى الإسلام وأخبرته بميعاد رسول الله ﷺ؛ فأسلم؛ وشهد

معنا العقبة وكان نقيباً. قال: فنمنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله ﷺ نتسلل مستخفين تسلل القطا حتى اجتمعنا في الشعب عند العقبة ونحن سبعون رجلاً ومعنا أمرأتان من نسائهم نسيبة بن كعب أم عمارة إحدى نساء بني مازن ابن النجار وأسماء بنت عمرو بن عدي بن ثابت إحدى نساء بني سلمة وهي أم منيع. قال: فاجتمعنا بالشعب ننتظر رسول الله ﷺ حتى جاءنا ومعه يومئذ عمه العباس بن عبد المطلب، وهو يومئذ على دين قومه إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له، فلما جلسنا كان العباس بن عبد المطلب أول متكلم؛ فقال: يا معشر الخزرج قال: وكانت العرب مما يسمون هذا الحي من الأنصار الخزرج: أوسها وخزرجها إن محمداً منا حيث علمتم، وقد منعناه من قومنا ممن هو على رأينا فيه، وهو في عز من قومه ومنعة في بلده.

قال: فقلنا: قد سمعنا ما قلت؛ فتكلَّم يا رسول الله؛ فخذ لنفسك ولربك ما أحببت. قال فتكلم رسول الله ﷺ فتلا ودعا إلى الله عز وجل ورغب في الإسلام قال: «**أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نسائكم وأبناءكم**» قال: فأخذ البراء بن معرور بيده، ثم قال: نعم، والذي بعثك بالحق لنمنعنَّك مما نمنع منه أزرنا؛ فبايعنا رسول الله ﷺ، فنحن أهل الحروب وأهل الحلقة ورثناها كابراً عن كابر قال: فاعترض القول والبراء يكلم رسول الله ﷺ أبو الهيثم بن التيهان حليف بني عبد الأشهل؛ فقال يا رسول الله: إن بيننا وبين الرجال حبالاً وإن قاطعوها -يعني العهود- فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: «**بل الدم الدم والهدم الهدم أنا منكم وأنتم مني أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم**». وقد قال

رسـول الله ﷺ: **«أخرجـوا إلي منكـم إثنـى عشر نقيباً يكونون على قومهم»** فأخرجوا منهم اثنى عشر نقيباً منهم تسعة من الخزرج، وثلاثة من الأوس.

وأمـا معبـد بن كعب فحدثني في حديثه عن أخيه عن أبيه كعب بن مـالك قال: كان أول من ضرب على يد رسول الله ﷺ البراء بن معرور ثم تـابع القـوم فلمـا بايعنا رسول الله ﷺ صرخ شيطان في رأس العقبة بأبعد صـوت سـمعته قـط: يـا أهل الجباجب -والجباجب: المنازل- هل لكم في مذمـم والصبـاة معـه قـد أجمعوا على حربكم -قال يعني ابن إسحاق: ما يقـول عـدو الله: محمـد فقـال رسـول الله ﷺ: **«هـذا أزب العقبـة هـذا ابن أزيـب اسـمع أي عـدو الله أما والله لأفرغن لك»**، ثم قال رسول الله ﷺ: **«ارفعـوا إلى رحـالكم»** قـال: فقـال لـه العباس بن عبادة بن نضلة: والذي بعثـك بـالحق لئـن شـئت لنميلـن على أهل منى غداً بأسيافنا. قال: فقال رسـول الله ﷺ: **«لم أومـر بذلـك»**. قـال: فرجعنـا فنمنـا حتى أصبحنا فلما أصبحنـا غـدت علينـا جلة قريش حتى جاؤونا في منازلنا؛ فقالوا: يا معشر الخـزرج إنـه قـد بلغنـا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنـا وتبايعونـه علـى حربنا، والله أنه ما من العرب أحد أبغض إلينا أن تنشـب الحرب بيننا وبينه منكم. قال: فانبعث من هنالك من مشركي قومنا يحلفـون لهـم بـالله ما كان هذا شيء وما علمناه، وقد صدقوا ولم يعلموا ما كـان منـا. قال: فبعضنا ينظر إلى بعض. قال: وقام القوم وفيهم الحارث بن هشـام بـن المغـيرة المخزومـي وعليه نعلان جديدان قال: فقلت: كأني أريد أن أشـرك القوم بها فيما قالوا ما تستطيع يا أبا جابر وأنت سيد من سادتنا أن تتخـذ نعلـين مثل نعلي هذا الفتى من قريش فسمعها الحارث؛ فخلعها ثـم رمـى بهـا إلي؛ فقـال: والله لتنتعلـن، قال يقول أبو جابر: أحفظت والله الفتـى فـاردد عليه نعليه قال: فقلت: والله لا أردهما قال: والله صلح، والله

لئن صدق الغال لأسلبنه.

فهذا حديث كعب بن مالك في العقبة وما حضر منها[١].

هـذه بيعـة العقبـة ومـا جـرى فيهـا مـن محاورات، وما أبرم فيها من مواثيـق ومعـاهدات جعلـت كعبـاً لا يراهـا دون مشـهد بدر لأمور تظهر في السياق، منها:

١- أن الأمـر في العقبـة قـام علـى التجرد المحض، والبذل الخالص، وليس للمغانم مكان بل المغارم المتوقعة أكثر من المغانم الموهوبة.

وهـذا خـلاف يومٍ بدر حيث خرجوا يريدون عير قريش أن تكون لهم؛ لأن فيهـا عوضـاً كـاملاً لمـا لحـق المسـلمين مـن خسـائر في أثناء هجرتهم، لذلـك قـال رسـول الله ﷺ: «**هـذه عير قريش فيها أموالهم؛ فأخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها**»[٢].

ويريـد الله أن يحـق الحـق ويبطـل الباطل، فجمع بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد.

٢- أن بيعـة العقبـة الكبرى نقطة بعث جديد في ميدان الدعوة التي

---

(١) **صحيـح** - أخرجـه أحمـد (٣/ ٤٦٠ - ٤٦٢)، وابـن جريـر في «تاريخ الأمم الملـوك» (١/ ٢٣٧- ٢٣٩) مـن طريـق ابـن إسـحاق قـال حدثني معبد بن كعب بن مـالك بـن أبي كعب القين: أن أخاه عبد الله بن كعب -وكان أعلم الأنصار- حدثه أن أباه كعباً حدثه- وكان كعب ممن شهد العقبة وبايع رسول الله ﷺ قال: فذكره.

قلـت: وهـذا إسناد صحيح رجاله ثقات، وقد صرح ابن إسحاق بالتحديث، وهو حجة في السيرة والمغازي.

(٢) **صحيـح** - أخرجـه ابن هشام (٢/ ٦١) عن ابن إسحاق بسند صحيح من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

يسوسـها محمـد ﷺ حيث نجح المستضعفون في الأرض من تأسيس دار لهم وسـط صحراء تموج بالكفر والجهالة، فكان المسلم في المدينة وإن لم ير أخاه المسـتضعف في مكـة يحنـو عليه، ويتعصب له، ويغضب من ظالمه، ويقاتل دونـه، وذلك ما استقدم الأنصار من المدينة تجيش في حناياهم مشاعر الولاء لمن أحبوهم بالغيب في ذات الله.

وهـذا أعظم كسب حققه المهاجرون حيث تنادوا من كل مكان هلموا إلى دار الأنصار حيث المنعة والإيثار:

﴿وَالَّذِيـنَ تَبَـوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِـدُونَ فِـي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

الفـائدة الخامسة: فضيلة أهل العقبة وبدر وأنهم جيل القدوة وقرن الأسوة.

وشـاهد ذلـك قـول كعب: «هل لقي هذا معي من أحد؟ قالوا: نعم لقيـه رجـلان قـالا مثـل مـا قلت، وقيل لهما مثل ما قيل لك، قال: قلت: مـن همـا؟ قـالوا: مـرارة بن الربيع العمري، وهلال بن أمية الواقفي. قال: فذكـروا لي رجلـين صـالحين قـد شـهدوا بـدراً فيهمـا أسوة. قال: فمضيت حيث ذكروهما لي».

فـإن قيـل: قوله في مرارة وهلال بأنهما شهدا بدراً من أوهام الزهري؛ كمـا عـده الإمام ابن قيم الجوزية رحمه الله فقال: «وهذا الموضع مما عد من أوهـام الزهـري؛ فإنـه لا يحفـظ عن أحد من أهل المغازي والسير ألبتة ذكر هذيـن الرجلين في أهل بدر لا ابن إسحاق، ولا موسى بن عقبة، ولا الأموي ولا الواقـدي، ولا أحـد ممـن عد أهل بدر، وكذلك ينبغي ألا يكونا من أهل

بـدر، فإن النبي ﷺ لم يهجر حاطبا ولا عاقبه وقد جس عليه، وقال لعمر لما هـم بقتلـه: «**وما يدريك أن الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**».

وأين ذنب التخلف من ذنب الجس؟

قـال أبو الفرج بن الجوزي: ولم أزل حريصاً على كشف ذلك وتحقيقه حتـى رأيـت أبـا بكـر الأثـرم قد ذكر الزهري، وذكر فضله وحفظه وإتقانه، وأنـه لا يكـاد يحفـظ عليـه غلط إلا في هذا الموضع؛ فإنه قال: إن مرارة بن الربيـع وهـلال بـن أميـة شـهدا بـدراً، وهـذا لم يقله أحد غيره، والغلط لا يعصم منه أحد» أ.هـ بحروفه[(١)].

وتعقبـه الحـافظ ابـن حجر فقال بعد قول كعب الآنف: «وهكذا وقع هنـا، وظـاهره أنـه من كلام كعب بن مالك، وهو مقتضى صنيع البخاري، وقـد قـررت ذلـك في غـزوة بـدر، وممـن جـزم بأنهم شهدا بدراً أبو بكر بن الأثـرم[(٢)]، وتعقبه ابن الجوزي ونسبه إلى الغلط، ولم يصب[(٣)].

واسـتدل بعـض المتأخرين[(٤)] لكونهما لم يشهدا بدراً بما وقع في قصة حـاطب وأن النبـي ﷺ لم يهجـره، ولا عاقبـه مع كونه جس عليه، بل قال

(١) «زاد المعاد» (٣/ ٥٧٧).

(٢) هكـذا جـاء في «فتح الباري»، وكلام ابن قيم الجوزية يدل على: أن أبا بكر ابن الأثرم نقل عنه ابن الجوزي أنّه غلّط الزهري في قوله أنهما شهدا بدراً(!).

(٣) هكـذا ورد في «فتـح الباري» وفي كلام ابن قيم الجوزية ما يدل على أن ابن الجـوزي استدل بقول أبي بكر الأثرم ولم يتعقبه، وإنما أبو بكر بن الأثرم هو الذي تعقب الزهري.

(٤) هـو ابـن قيـم الجوزيـة كـما تقـدم، وقـد نقـل الحافظ جُلَّ كلامه حول فقه حديث الثلاثة الذين خلفوا ولم يشر إلى ذلك (!).

لعمر لما هم بقتله: «**وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فإني قد غفرت لكم**» قال: وأين ذنب التخلف من ذنب الجس؟

قلت: وليس ما استدل به بواضح؛ لأنه يقتضي أن البدري عنده إذا جنى جناية ولو كبرت لا يعاقب عليها، وليس كذلك، فهذا عمر بن الخطاب مع كونه المخاطب بقصة حاطب فقد جلد قدامة بن مظعون الحد لما شرب الخمر وهو بدري كما تقدم، وإنما لم يعاقب النبي ﷺ حاطباً ولا هجره، لأنه قبل عذره في أنه كاتب قريشاً خشية على أهله وولده وأراد أن يتخذ عندهم يداً فعذره بذلك، بخلاف تخلف كعب وصاحبيه؛ فإنهم لم يكن لهم عذراً أصلاً، والله أعلم» أ.هـ[1]

الفائدة السادسة: جواز إخبار الرجل عن تفريطه وتقصيره في طاعة الله ورسوله، وعن سبب ذلك، وما آل إليه أمره؛ للموعظة والاعتبار ولا يُعَدُّ ذلك من المجاهرة بالمعصية.

وشاهد ذلك قول كعب: «وكان من خبري حين تخلفت عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنه في تلك الغزوة، والله ما جمعت قبلها راحلتين قط حتى جمعتهما في تلك الغزوة».

وفي هذا من التحذير والنصيحة وبيان طرق الخير وما يترتب عليه من أهم الأمور، فإنَّ المؤمن كالنذير العريان لا يكذب أهله بل يحضهم على النصح، ويدلهم على مواطن الخير؛ لئلا يقعوا فيما وقع، ويصنعوا في لحظة نسيان ما صنع.

الفائدة السابعة: تسلية المرء نفسه عما لم يقدر عليه من الخير بما

---

(١) «فتح الباري» (٨/ ١٢٠).

قدر له من نظيره أو خير منه.

وشاهد ذلك قول كعب: «ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام، وما أحب أن لي بها مشهد بدر وإن كانت بدر أذكر في النَّاس منها».

الفائدة الثامنة: أن الإمام إذا رأى مصلحة في أن يستر على رعيته بعض ما يهم به ويقصده من العدو، ويورّي به عنه استحب له ذلك أو يتعين بحسب المصلحة، ومن ذلك ينبغي لأمير الجيش إذا أراد غزوة أن يوري بغيرها؛ لئلا يسبقه الجواسيس ونحوهم بالتحذير.

وينبغي على الإمام أو أمير الجيش إذا كان سفراً بعيداً إعلامهم بالذي يضرهم ستره وإخفاؤه؛ ليتأهبوا له، ويعدوا له عدته.

وشاهد ذلك كله قول كعب عن رسول الله ﷺ: «ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا ورّى بغيرها حتى كانت تلك الغزوة؛ فغزاها رسول الله ﷺ في حر شديد، واستقبل سفراً بعيداً ومفازاً، واستقبل عدواً كثيراً؛ فجلى للمسلمين أمرهم؛ ليتأهبوا أهبه غزوهم؛ فأخبرهم بوجههم الَّذي يريد».

ومن هنا تظهر حكمة رسول الله ﷺ على الصعيد العسكري؛ كمحافظته على سرية الخطط إذا كان الموقف يستدعي ذلك، وعدم تغريره بجنده، ووضعهم في الصورة الحقيقية الواقعية للمعركة حتى يكونوا على مستوى المهمات الملقاه عليهم، وهذا يوضحه ما بعده.

الفائدة التاسعة: أن الستر والكتمان إذا تضمن مفسدة لم يجز.

لأن المقصود من الستر والكتمان إنجاح الحوائج وتحقيق المقاصد؛ لقوله ﷺ: «**استعينوا على إنجاح الحوائج بالكتمان**»[(١)].

---

(١) حسن- «الصحيحة» (١٤٥٣).

قال ابن الجوزي رحمه الله: «لا ينبغي لمن تظاهرت نعم الله عز وجل عليه أن يظهر منها ما يبين أثرها ولا يكشف جملتها، وهذا من أعظم لذات الدنيا التي يأمر الحزم بتركها؛ فإن العين حق.

وإني تفقدت النعم، فرأيت إظهارها حلواً عند النفس؛ إلا أنها إن أُظهرت لوديد؛ لم يأمن تشعث باطنه بالغيظ، وأن أُظهرت لعدوٍ؛ فالظاهر إصابته بالعين لموضع الحسد.

إلا أنني رأيت شر الحسود كاللازم؛ فإنه في حال البلاء يتشفى، وفي حال النعم يصيب بالعين.

ولعمري؛ إن المنعم عليه يشتهي غيظ حسوده، ولكنه لا يؤمن أن يخاطر بنعمته؛ فإن الغالب إصابته الحاسد لها بالعين؛ فلا يساوي الالتذاذ بإظهار ما غيظ به ما أفسدت عينه بإصابتها.

وكتمان الأمور في كل حال فعل الحازم؛ فإنه إن كشف مقدار سنه؛ استهرموه إن كان كبيراً، واحتقروه إن كان صغيراً، وإن كشف ما يعتقده؛ ناصبه الأضداد بالعداوة. وإن كشف قدر ماله؛ استحقروه إن كان قليلاً، وحسدوه إن كان كثيراً.

وفي هذه الثلاثة يقول الشاعر:

احفظ لسانك لا تبح بثلاثة ... سن ومال وما استطعت ومذهب

فعلى الثلاثة تبتلى بثلاثة ... بمموه وممخرق ومكذب

وقس على ما ذكرت ما لم أذكره، ولا تكن من المذاييع الغر الذين لا يحملون أسرارهم حتى يفشوها إلى من لا يصلح.

وربَّ كلمةٍ جرى بها اللسان هلك بها الإنسان»[١]

وقال: «رأيت أكثر الناس لا يتمالكون من إفشاء سرهم؛ فإذا ظهر؛ عاتبوا من أخبروا به.

فوا عجباً كيف ضاقوا بحبسه ذرعاً، ثم لاموا من أفشاه؟

وفي الحديث: «**استعينوا على قضاء أموركم بالكتمان**».

ولعمري؛ إن النفس يصعب عليها كتم الشيء، وترى بإفشائه راحة، خصوصاً إذا كان مرضاً أو هماً أو عشقاً، وهذه الأشياء في إفشائها قريبة، إنما اللازم كتمانه احتيال المحتال فيما يريد أن يحصل به غرضاً؛ فإن من سوء التدبير إفشاء ذلك قبل تمامه؛ فإنه إذا ظهر؛ بطل ما يراد أن يفعل، ولا عذر لمن أفشى هذا النوع.

وقد كان النبي ﷺ إذا أراد سفراً؛ ورَّى بغيره.

فإن قال قائل: إنما أحدث من أثق به.

قيل له: وكل حديث جاوز الاثنين شائع، وربما لم يكتم صديقك، وكم قد سمعنا من يحدث عن الملوك بالقبض على صاحب، فنمَّ الحديث إلى الصاحب، وهرب، ففات السلطان مراده، وإنما الرجل الحازم الذي لا يتعداه سره، ولا يفشه إلى أحد.

ومن العجز إفشاء السر إلى الولد والزوجة.

والمال من جملة السر؛ فإطلاعهم عليه: إن كان كثيراً؛ فربما تمنوا هلاك المورث، وإن كان قليلاً؛ تبرموا بوجوده، وربما طلبوا من الكثير على مقدار كثرته، فأتلفته النفقات.

---

(١) «صيد الخاطر» (ص ٢٣٢- ٢٣٣).

وستر المصائب من جملة كتمان السر؛ لأن إظهارها يسر الشامت، ويؤلم المحب.

وكذلك ينبغي أن يكتم مقدار السن؛ لأنه إن كان كبيراً؛ استهرموه، وإن كان صغيراً؛ احتقروه.

ومما قد انهال فيه كثير من المفرطين: أنهم يذكرون بين أصدقائهم أميراً أو سلطاناً، فيقولون فيه، فيبلغ ذلك إليه، فيكون سبب الهلاك.

وربما رأى الرجل من صديقه إخلاصاً وافياً، فأشاع سرّه.

وقد قيل:

احذر عدوك مرّةً واحذر صديقك ألف مرّة
فلربما انقلب الصديـ ـق فكان أدرى بالمضرّة

ورب مفش سره إلى زوجة أو صديق، فيصير بذلك رهيناً عنده، ولا يتجاسر أن يطلق الزوجة ولا أن يهجر الصديق؛ مخافة أن يظهر سره القبيح.

فالحازم من عامل الناس بالظاهر، فلا يضيق صدره بسره؛ فإن فارقته امرأة أو صديق أو خادم؛ لم يقدر أحدٌ منهم أن يقول فيه ما يكره.

ومن أعظم الأسرار الخلوات؛ فليحذر الحازم فيها من الانبساط بمرأى من مخلوق.

ومن خلق له عقل ثاقب؛ دلّه على الصواب قبل الوصايا»[(١)].

أمّا إذا انقلب الستر والكتمان إلى مفسدة، فلا يحل ذلك، ولذلك لم يُورِّ رسول الله ﷺ في غزوة تبوك.

---

(١) المصدر السابق (ص ٤٣٣- ٤٣٥).

ومن التستر والتكتم الذي يهب ريشاً السرية في العمل الدعوي المعاصر الذي ركبتها الجماعات الحزبية، وذلك من وجوه:

١- إثارة الحكام المفسدين الذين لا يحكمون بما أنزل الله، وتهييج أعوانهم المجرمين؛ حيث يرون أن السرية تريد قلب كراسيهم، وقطع رؤوسهم، وسلب ملكهم، والتآمر عليهم.

٢- قطع الصلة بين المسترين بالدعوة وبقية المسليمن حيث يكتمون عنهم ما لا يجوز كتمانه، ويخفون عنهم ما لا ينبغي اخفاؤه.

٣- السرية أضحت من علامات أهل البدع والأهواء الذين يسترون عن أهل السنة.

قال عمر بن عبدالعزيز رحمه الله: «إذا رأيت قوماً يتناجون في دينهم دون العامة، فاعلم أنهم على تأسيس ضلالة»[(١)]

قال ابن الجوزي رحمه الله: «فقد بان بما ذكرنا أن أهل السنة هم المتبعون، وأن أهل البدعة هم المظهرون شيئاً لم يكن قبل، ولا مستند له، ولهذا استتروا ببدعتهم، ولم يكتم أهل السنة مذهبهم، فكلمتهم ظاهرة، ومذهبهم مشهور، والعاقبة لهم»[(٢)].

٤- أن السرية هلاك للدعوة والعلم وقد أدرك عمر بن عبدالعزيز رحمه الله ذلك؛ فكتب إلى أبي بكر بن حزم: «أنظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ فاكتبه؛ فإني خفت دروس العلم وذهاب العلماء، ولا تقبل إلا حديث النبي ﷺ، ولتُفشوا العلم، ولتجلسوا حتى يُعلَّم من لا يعلم؛

---

(١) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص ٤٨)، والدارمي (١/ ٩١).

(٢) «المنتقى النفيس من تلبيس إبليس» (ص ٤٠).

فإن العلم لا يهلك حتى يكون سرّاً»[١].

لقد بـين هذا الخليفة السني متى تهلك الأمة حتى يكون العلم سراً، ولا يفشـو حديث رسـول الله ﷺ؛ فعندئـذ ينطـق الأصـاغر، ويستنسـر الرويبضة، وتغرق السفينة... عياذاً بالله.

٥- وقـد شـهد مـن عـاني هـذه السرية بخطورتها فقال: «إن الدعوة إلى السِّـرية الإسـلامية، إنمـا تسـللت تحـت اسـم المصلحـة إلى أجوائهـا؛ فأصبحت ممراً لتقديم الولاءات، وإبعاد الكفاءات عن مواطن الحل والعقد.

وكـان أول ضحايـا الدعـوة إلى السـرية مقومـات العمـل الإسـلامي، وليس أعداءه.

ويجـب أن لا يغـرب عـن بالنـا مـا ألحقت الدعوات السرية والباطنية بالإسـلام مـن كيـد، وما لحق فكرها من انحراف، وعقيدتها من زيغ، لأنها مشـت في الأنفـاق المظلمـة، ولم يكن هناك سبيل للتصويب والحوار، ورصد نتائجه، باسم الحفاظ على الكيان والسرية والأمن»[٢].

وقـال آخـر: «كل عمل اتَّسم بطابع السرية والعمل تحت الأرض، إذا كـان يظـن في نفسـه البراعـة والذكـاء، وأن خصومـه لـن يدسـوا لـه مـن عناصرهم ما يسرب أخباره دوماً؛ فهو في غفلة.

إن الأوسـاط السـرية المظلمـة هـي الأوساط المناسبة لاستنبات البذور الغريبة، مجهولة الطبيعة، والمناسبة للعمل تحت الأرض»[٣].

---

(١) أخرجه البخاري (١/ ١٩٤- فتح).

(٢) «نظرات في مسيرة العمل الإسلامي»، (ص ٣٨- ٣٩) بتصرف.

(٣) «في النقد الذاتي» (ص ٤١).

قال أبو أسامة الهلالي عفا الله عنه: لقد أثبتت التجارب المتواترة والمشاهدات المتكاثرة: أن العمل الدعوي السِّريَّ سريٌّ عن المخلصين من أهل العلم وطلابه، مكشوف لأعداء الإسلام، مخترق من أجهزة تجسسهم، ويحرك في أغلب الأوقات حسب مخططاتهم، ولذلك فأعداء العمل الإسلامي من داخله أو خارجه يصرون على تقبيح صورة العلم وأهله وطلابه؛ ليبتعد الشباب المتحمس عن نصحهم وحرصهم؛ فيقع صيداً سهلاً لمخططات المتربصين بالإسلام ودعاته شراً، ولكن المستعجلين لا يفقهون.

الفائدة العاشرة: الجيش في حياة النبي ﷺ لم يكن له ديوان جامع.

وشاهد ذلك في قول كعب: «والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير ولم يجمعهم كتاب حافظ، يريد بذلك الديوان».

وأول من دَوَّنَ الديوان عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وهذا من سنته التي أمر النبي ﷺ باتباعها، وظهرت مصلحتها، وحاجة المسلمين إليها.

وهذا يدخل في «المصلحة المرسلة» وهي في اصطلاح الأصوليين: أوصاف تلائم مقاصد الشريعة، ولكن لم يشهد لها دليل معين بالاعتبار أو الإلغاء، ويحصل من ربط الحكم بها جلبُ مصلحة راجحة أو دفع مفسدة واضحة عن العباد.

وضابطها ما وضحه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله فقال: «والضابط في هذا -والله أعلم- أن يقال: إن النَّاس لا يحدثون شيئاً إلا لأنهم يرونه مصلحة إذ لو اعتقدوه مفسدة لم يحدثوه، فإنه لا يدعو إليه عقل ولا دين.

فما رآه النَّاس مصلحة؛ نظر في سبب المحوج إليه:

فإن كان السبب المحوج إليه أمراً حدث بعد النبي ﷺ من غير تفريط منه، فهنا قد يجوز إحداث ما تدعو الحاجة إليه.

وكذلك إذا كان المقتضي لفعله قائماً على عهد رسول الله ﷺ، لكن تركه النبي ﷺ لمعارض زال بموته.

وأما ما لم يحدث سبب يحوج إليه، أو كان السبب المحوج إليه بعض ذنوب العباد، فهنا لا يجوز الإحداث.

فكل أمر يكون المقتضي لفعله على عهد رسول الله موجوداً، لو كان مصلحة ولم يفعل: يعلم أنه ليس بمصلحة.

وأما ما أحدث المقتضي له بعد موته من غير معصية الخالق؛ فقد يكون مصلحة.

ثم هنا للفقهاء طريقان:

أحدهما: أن ذلك يفعل ما لم ينه عنه.

وهذ قول القائلين بالمصالح المرسلة.

والثاني: أن ذلك لا يفعل ما لم يؤمر به.

وهو قول من لا يرى إثبات الأحكام بالمصالح المرسلة.

وهؤلاء ضربان:

منهم من لا يثبت الحكم إن لم يدخل في لفظ كلام الشارع أو فعله أو إقراره، وهم نفاة القياس.

ومنهم من يثبته بلفظ الشارع أو بمعناه، وهم القياسيون.

فأما ما كان المقتضي لفعله موجوداً، لو كان مصلحة، وهو مع هذا لم يشرعه، فوضعه تغيير لدين الله، وإنما أدخله فيه من نسب إلى تغيير الدين

من الملوك والعلماء والعباد، أو من زل منهم باجتهاد.

فمثال هذا القسم: الأذان في العيدين؛ فإن هذا لما أحدثه بعض الأمراء؛ أنكره المسلمون؛ لأنه بدعة، فلو لم يكن كونه بدعة دليلاً على كراهته، وإلا لقيل: هذا ذكر لله، ودعاء للخلق إلى عبادة الله، فيدخل في العمومات؛ كقوله تعالى: ﴿اذكروا الله ذكراً كثيراً﴾ [الأحزاب: ٤١] وقوله تعالى: ﴿ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله﴾ [فصلت: ٣٣] أو يقاس على الأذان في الجمعة؛ فإن الاستدلال على حسن الأذان في العيدين أقوى من الاستدلال على حسن أكثر البدع.

بل يقال: ترك رسول الله ﷺ له مع وجود ما يعتقد مقتضياً وزوال المانع: سنة، كما أن فعله سنة.

فلما أمر بالأذان في الجمعة، وصلى العيدين بلا أذان ولا إقامة؛ كان ترك الأذان فيهما سنة.

فليس لأحد أن يزيد في ذلك، بل الزيادة في ذلك كالزيادة في أعداد الصلوات، أو أعداد الركعات، أو صيام الشهر، أو الحج.

فإن رجلاً لو أحب أن يصلي الظهر خمس ركعات، وقال: هذا زيادة عمل صالح؛ لم يكن له ذلك.

وكذلك لو أراد أن ينصب مكاناً آخر يقصد لدعاء الله فيه وذكره؛ لم يكن له ذلك، وليس له أن يقول: هذه بدعة حسنة، بل يقال له: كل بدعة ضلالة.

ونحن نعلم أن هذا ضلالة، قبل أن نعلم نهياً خاصاً عنها، أو نعلم ما فيها من مفسدة؛ فهذا مثال لما حدث مع قيام المقتضي له، وزوال المانع له، لو كان خيراً.

فـإن كـل ما يبديه المحدث لهذا من المصلحة أو يستدل به من الأدلة قـد كـان ثابتـاً على عهد رسول الله ﷺ، ومع هذا لم يفعله رسول الله ﷺ؛ فهذا الترك سنة خاصة، مقدمة على كل عموم وكل قياس»[1] أ.هـ مختصراً.

قال الشاطبي رحمه الله: «سكوت الشارع عن الحكم على ضربين:

أحدهمـا: أن يسـكت عنه؛ لأنه لا داعية له تقتضيه، ولا موجب يقدر لأجلـه؛ كـالنوازل التـي حدثـت بعد رسول الله ﷺ؛ فإنها لم تكن موجودة، ثـم سـكت عنهـا مـع وجودهـا، وإنمـا حدثـت بعد ذلك، فاحتجاج أهل الشريعة إلى النظر فيها، وإجرائها على ما تقرر في كلياتها.

ومـا أحدثـه السـلف الصـالح راجـع إلى هـذا القسـم[2]؛ كجمـع المصحـف، وتدويـن العلـم، وتضمـين الصُّناع، وما أشبه ذلك مما لم يجر له ذكـر في زمن رسول الله ﷺ، ولم تكن من نوازل زمانه، ولا عرض للعمل بها موجب يقتضيها.

فهـذا القسـم جاريـة فروعـه علـى أصولـه المقررة شرعاً؛ بلا إشكال، فالقصد الشرعي فيها معروف.

والثـاني: أن يسـكت عنـه وموجبـه المقتضـي لـه قـائم، فلم يقرر فيه حكم عند نزول النازلة زائد على ما كان في ذلك الزمان.

فهـذا الضـرب السكوت فيه كالنص على أن قصد الشارع أن لا يزاد فيـه ولا ينقـص؛ لأنـه لمـا كـان هـذا المعنـى الموجـب لشرع الحكم العملي

---

(١) «إقتضاء الصراط المستقيم» (ص ٢٧٨- ٢٨٠).

(٢) يريـد الـرد علـى العز بن عبد السلام رحمه الله في تقسيمه البدع إلى الأحكام الخمسـة، وقـد بسـطت الـرد عليه في كتابي «البدعة وأثرها السيئ في الأمة»، (ص٦١- ٦٣).

موجوداً، ثم لم يشرع الحكم دلالة عليه؛ كان ذلك صريحاً في أن الزائد على ما كان هنالك بدعة زائدة، ومخالفه لما قصده الشارع، إذ فهم من قصده الوقوف عند ما حُدَّ هنالك، لا الزيادة عليه ولا النقصان منه»[1].

وقال أيضاً: «واستدلال كل من اخترع بدعة أو استحسن محدثة لم تكن في السلف الصالح بأن السلف اخترعوا أشياء لم تكن في زمان رسول الله ﷺ؛ ككتب المصحف، وتصنيف الكتب، وتدوين الدواوين، وتضمين الصناع، وسائر ما ذكر الأصوليون في أصل المصالح المرسلة، فخلطوا وغلطوا، واتبعوا ما تشابه من الشريعة ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويلها، وهو كله خطأ على الدين، واتباع لسبيل الملحدين؛ فإن هؤلاء الذين أدركوا هذه المدارك، وعبروا على هذه المسالك: إما أن يكونوا قد أدركوا من فهم الشريعة ما لم يفهمه الأولون، أو حادوا عن فهمها؟

وهذا الأخير هو الصواب، إذ المتقدمون من السلف الصالح هم كانوا على الصراط المستقيم، ولم يفهموا من الأدلة المذكورة وما أشبهها؛ إلا ما كانوا عليه، وهذه المحدثات لم تكن فيهم، ولا عملوا بها، فدل على أن تلك الأدلة لم تتضمن هذه المعاني المخترعة بحال، وصار عملهم بخلاف ذلك دليلاً إجماعياً على أن هؤلاء في استدلالهم وعملهم مخطئون ومخالفون للسنة.

فيقال لمن استدل بأمثال ذلك: هل وجد هذا المعنى الذي استنبطت في عمل الأولين أو لم يوجد؟

فإن زعم أنه لم يوجد -ولا بد من ذلك-؛ فيقال له: أفكانوا غافلين عما تنبهت له؟ أو جاهلين به؟ أم لا ؟

(١) «الموافقات»، (٢/ ٤٠٩- ٤١٠).

ولا يسعه أن يقول بهذا؛ لأنه فتح لباب الفضيحة على نفسه، وخرق للإجماع.

وإن قال: إنهم كانوا عارفين بمآخذ هذه الأدلة كما كانوا عارفين بمآخذ غيرها.

قيل له: فما الذي حال بينهم وبين العمل بمقتضاها على زعمك حتى خالفوها إلى غيرها؟ ما ذاك إلا لأنهم اجتمعوا فيها على الخطأ دونك أيها المتقول، والبرهان الشرعي والعادي دال على عكس القضية، فكل ما جاء مخالفاً لما عليه السلف الصالح؛ فهو الضلال بعينه.

فإن زعم أن ما انتحله من ذلك إنما هو من قبيل المسكوت عنه في الأولين، وجد له إذا كان مسكوتاً عنه في الأدلة مساغ؛ فلا مخالفة، إنما المخالفة أن يعاند ما نقل عنهم بضده، وهو البدعة المنكرة؛ قيل له: بل هو مخالف؛ لأن ما سكت عنه في الشريعة على وجهين:

أحدهما: أن تكون مظنة العمل به موجودةً في زمان رسول الله ﷺ، فلم يشرع له أمر زائد على ما مضى فيه، فلا سبيل إلى مخالفته؛ لأن تركهم لما عمل به هؤلاء مضاد له، فمن استلحقه؛صار مخالفاً للسنة.

والثاني: أن لا توجد مظنة العمل به ثم توجد، فيشرع له أمر زائد يلائم تصرفات الشرع في مثله، وهي المصالح المرسلة، وهي من أصول الشريعة المبني عليها، إذ هي راجعة إلى أدلة الشرع حسبما تبين في علم الأصول، فلا يصح إدخال ذلك تحت جنس البدع.

وأيضاً؛ فالمصالح المرسلة -عند القائل بها- لا تدخل في التعبدات ألبتة، وإنما هي راجعة إلى حفظ أصل الملة، وحياطة أهلها في تصرفاتهم في العبادات أن لا يقع إلا على ما كانت عليه في الأولين، فلذلك نهى

عـن أشياء وكره أشياء، وإن كان إطلاق الأدلة لا ينفيها؛ بناء منه على أنها تقيـدت مطلقاتهـا بـالعمل، فـلا مزيد عليه، وقد تمهد أيضاً في الأصول أن المطلق إذا وقع العمل به على وجه؛ لم يكن حجة في غيره.

فالحـاصل: أن الأمر أو الإذن إذا وقع على أمر له دليل مطلق، فرأيت الأولـين قـد عنـوا بـه علـى وجه، واستمر عليه عملهم؛ فلا حجة فيه على العمل على وجه آخر، بل هو مفتقر إلى دليل يتبعه في إعمال ذلك الوجه.

فـإذاً؛ ليـس مـا انتحـل هـذا المخـالف العمل به من قبيل المسكوت عنـه، ولا مـن قبيل ما أصله المصالح المرسلة، فلم يبق إذا أن يكون إلا من قبيـل المعـارض لمـا مضـى عليـه عمـل الأقدمـين، وكفى بذلك مزلَّة قدم، وبالله التوفيق»[1].

فـإذا تبـين ضـابط المصلحـة المرسـلة؛ فحاصلهـا يرجع إلى حفظ أمر ضـروري، أو رفـع حـرج لازم في الديـن، ومدارها على المعاملات والعادات ونحوهـا دون العبـادات التـي مدارها على التوقيف الَّذي ينبغي أن يأتي به العبد وفق ما شرع الله، وَبيَّنه رسول الله ﷺ.

الفـائدة الحاديـة عشـر: الحزم في مبادرة الطاعة إذا حضرت فرصتها أو حان وقتها.

قـال ابـن قيـم الجوزيـة: «إن الرجـل إذا حضـرت لـه فرصـة القربـة والطاعـة؛ فـالحزم كل الحزم في انتهازها، والمبادرة إليها، والعجز في تأخيرها، والتسـويف بهـا، ولا سـيما إذا لم يثـق بقدرتـه وتمكنه من أسباب تحصيلها، فـإن العزائـم والهمـم سريعة الانتقاض قلما ثبتت، والله سبحانه يعاقب من فتـح لـه بابـاً مـن الخـير فلم ينتهزه، بأن يحول بين قلبه وإرادته، فلا يمكنه بعـد مـن إرادتـه عقوبة له، فمن لم يستجب لله ورسوله إذا دعاه، حال بينه

(١) «الموافقات»، (٣/ ٧٣- ٥٧).

وبين وقلبه وإرادته، فلا يمكنه الاستجابة بعد ذلك.

قـال تعـالى: ﴿يَـا أَيُّهَـا الذِينَ آمَنُوا استَجِيبُوا لِلَّه وَللرَّسُولِ إذَا دَعَاكُم لِمَـا يُحيِيكُـم وَاعلَمُـوا أَنَّ اللهَ يَحُـولُ بَينَ المرءِ وَقَلبِه﴾ [الأنفال: ٢٤]، وقد صـرح الله سـبحانه بهـذا في قولـه: ﴿وَنُقَلِّـبُ أَفئِدَتَهُـم وَأَبصَـارَهُم كَمَا لَم يُؤمِنُـوا بِـهِ أَوَّلَ مَـرَّةٍ﴾ [الأنعـام: ١١٠]، وقـال تعـالى: ﴿فَلَمَّـا زَاغُـوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُـم﴾ [الصـف: ٥]. وقـال: ﴿وَمَـا كـان اللهُ لِيُضِـلَّ قَومَـاً بَعـدَ إذ هَدَاهُم حَتَّى يُبَيِّنَ لهم مَا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة:١١٥] وهو كثير في القُرآن»[1].

يـا لهـا مـن صـورة رهيبـة مخيفـة تظهـر على صفحاتها حكمة القدرة اللطيفـة؛ فيحـول بينه وبين قلبه الذي بين جنبيه، ويستحوذ عليه، ويحتجزه، فيصرفـه كيـف شـاء، ويقلبـه كيف يريد، وصاحبه لا يملك شيئاً، وهو قلبه الـذي في صـدره، ولكنهـا عقوبـة يستحقها فقد شغل قلبه في وقت الطاعة بغـير طاعـة، ولـو كانت في صورتها طاعة، فإن الطاعة أن تطيع الله في كل طاعـة في وقتهـا هـي، وليـس في وقت غيرها، وهذا هو مقام العبودية الذي يريـده الله مـن عبـده أن يكـون عبـداً له متى يريد وأين يريد، ولذلك من أدى العبادة في غير وقتها أو بعد فواته ليس مطيعاً.

ولذلـك؛ فـإن أسـعد أهـل العبوديـة بالعبودية هـم الذيـن: «رأوا أن أفضـل العبـادة: العمـل علـى مرضـاة الـرب في كـل وقت بما هو مقتضي ذلك الوقت ووظيفته:

فـأفضل العبـادات في وقـت الجهـاد: الجهاد، وإن آل إلى ترك الأوراد مـن صـلاة الليـل وصيـام النهار، بل ومن ترك إتمام صلاة الفرض، كما في حالة الأمن.

---

(١) «زاد المعاد»، (٤/ ٥٧٤).

والأفضل وقت حضور الضيف مثلاً: القيام بحقه، والاشتغال به عن الورد المستحب، وكذلك في أداء حق الزوجة والأهل.

والأفضل في أوقات السحر: الاشتغال بالصلاة والقرآن، والدعاء والذكر والاستغفار.

والأفضل في وقت استرشاد الطالب وتعليم الجاهل: الإقبال على تعليمه والاشتغال به.

والأفضل في أوقات الأذان: ترك ما هو فيه من ورد، والاشتغال بإجابة المؤذن.

والأفضل في أوقات الصلوات الخمس: الجد والنصح في إيقاعها على أكمل الوجوه، والمبادرة إليها في أول الوقت، والخروج إلى الجامع، وإن بعد كان أفضل.

والأفضل في وقت ضرورة المحتاج إلى المساعدة بالجاه، أو البدن، أو المال: الاشتغال بمساعدته، وإغاثة لهفته، وإيثار ذلك على أورادك وخلوتك.

والأفضل في وقت الوقوف بعرفة: الاجتهاد في التضرع والدعاء والذكر دون الصوم المضعف عن ذلك.

والأفضل في أيام العشر ذي الحجة: الإكثار من التعبد لا سيما التكبير والتهليل والتحميد، فهو أفضل من الجهاد المتعين.

والأفضل في العشر الأواخر من رمضان: لزوم المسجد فيه والخلوة والاعتكاف دون التصدي لمخالطة النَّاس والاشتغال بهم، حتى أنه أفضل من الإقبال على تعليمهم العلم، وإقرائهم القُرآن، عند كثير من العلماء.

والأفضـل في وقـت مـرض أخيـك المسـلم أو موتـه: عيادته، وحضور جنازته وتشيعه، وتقديم ذلك على خلوتك وجمعيتك.

والأفضـل في وقـت نزول النوازل وأذاة النَّاس لك: أداء واجب الصبر مـع خلطتـك بهم، دون الهرب منهم، فإن المؤمن الذي يخالط النَّاس ليصبر على أذاهم أفضل من الذي لا يخالطهم ولا يؤذونه.

والأفضـل خلطتهـم في الخـير، فهي خير من اعتزالهم فيه، واعتزالهم في الشـر، فهـو أفضل من خلطتهم فيه، فإن علم أنه إذا خالطهم أزاله أو قلله فخلطتهم حينئذ أفضل من اعتزالهم.

فـالأفضل في كـل وقـت وحـال: إيثـار مرضـاة الله في ذلـك الوقـت والحال، والاشتغال بواجب ذلك الوقت ووظيفته ومقتضاه.

وهـؤلاء هـم أهـل التعبـد المطلـق، والأصنـاف قبلهم هم أهل التعبد المقيـد، فمتى خرج أحدهم عن النوع الذي تعلق به من العبادة وفارقه يرى نفسـه كأنه قد نقص وترك عبادته، فهو يعبد الله على وجه واحد، وصاحب التعبـد المطلق ليس له غرض في تعبد بعينه يؤثره على غيره، بل غرضه تتبع مرضـاة الله تعـالى أيـن كـانت، فمـدار تعبـده عليها، فهو لا يزال متنقلاً في منـازل العبوديـة، كلمـا رفعـت له منزلة عمل على سيره إليها، واشتغل بها حتـى تلـوح لـه منزلـة أخرى، فهـذا دأبـه في السير حتى ينتهي سيره، فإن رأيـت العلمـاء رأيتـه معهـم، وإن رأيـت العبـاد رأيتـه معهـم، وإن رأيت المجـاهدين رأيتـه معهـم، وإن رأيـت الذاكريـن رأيتـه معهـم، وإن رأيـت المتصدقين رأيته معهم.

فهـذا هـو العبـد المطلـق، الذي لم تملكه الرسوم، ولم تقيده القيود، ولم يكـن عملـه علـى مراد نفسه، وما فيه لذتها وراحتها من العبادات، بل هو

على مراد ربه، ولو كانت راحة نفسه ولذّتها في سواه، فهذا هو المتحقق بالعبودية حقاً، القائم بها صدقاً، ملبسه ما تهيأ، ومأكله ما تيسر، واشتغاله بما أمر الله به في كل وقت بوقته، ومجلسه حيث انتهى به المكان ووجده خالياً، لا تملكه إشارة، ولا يتعبده قيد، ولا يستولي عليه رسم حر مجرد دائر مع الأمر حيث دار، يدين بدين الآمر أنى توجهت ركائبه، ويدور معه حيث استقلت مضاربه، يأنس به كل محق، ويستوحش منه كل مبطل، كالغيث حيث وقع نفع، وكالنخلة لا يسقط ورقها، وكلها منفعة حتى شوكها، وهو موضع الغلظة منه على المخالفين لأمر الله، والغضب إذا انتهكت محارم الله، فهو لله وبالله ومع الله، قد صحب الله بلا خلق، وصحب الناس بلا نفس، بل إذا كان مع الله عزل الخلائق عن البين، وتَخلى عنهم، وإذا كان مع خلقه عزل نفسه عن الوسط وتَخلى عنها.

فواهاً له، ما أغربه بين الناس، وما أشد وحشته منهم، وما أعظم أنسه بالله وفرحه به، وطمأنينته وسكونه إليه، والله المستعان، وعليه التكلان»أ.هـ(١).

الفائدة الثانية عشر: الركون إلى الدنيا وإيثارها رأس كل بلية في الدين.

وذلك أن رسول الله ﷺ غزا تلك الغزوة حين طابت الثمار، ودنا قطافها، وامتدت الظلال واتسع فيؤها؛ فأخبر كعب بن مالك أنه إليها أميل؛ فصرفته عن القيام بالواجب الذي ينبغي على الوجه الذي ينبغي في الوقت الذي ينبغي، ففرط فيه، ووقع فيما يعتذر منه شرعاً.

---

(١) «مدارج السالكين»، (١/ ٨٨- ٩٠).

وقد ذكر ابن قيم الجوزية رحمه الله وجوهاً عديدة تبين أن حب الدنيا وإيثارها رأس الخطايا ومفسد للدين، منها:

أحدها: أن حبها يقتضي تعظيمها، وهي حقيرة عند الله، ومن أكبر الذنوب تعظيم ما حَقَّرَ الله.

ثانيها: أن الله لعنها ومقتها وأبغضها إلا ما كان له فيها، ومن أحب ما لعنه الله ومقته وأبغضه، فقد تعرض للفتنة.

ثالثها: أنه إذا أحبها صيرها غايته، وتوسل لها بالأعمال التي جعلها الله وسائل إليه وإلى الدار الآخرة، فعكس الأمر وقلب الحكمة؛ فانعكس قلبه، وانعكس سيره إلى وراء.

فههنا أمران:

أحدهما: جعل الوسيلة غاية.

الثاني: التوسل بأعمال الآخرة إلى الدنيا.

وهذا شر معكوس من كل وجه، وقلب منكوس غاية الانتكاس.

رابعها: أن محبتها تعترض بين العبد وبين فعل ما يعود عليه نفعه في الآخرة؛ لاشتغاله عنه بمحبوبه.

والنَّاس ههنا مراتب:

فمنهم من يشغله محبوبه عن الإيمان وشرائعه.

ومنهم من يشغله عن الواجبات التي تجب عليه لله ولخلقه، فلا يقوم بها ظاهراً ولا باطناً.

ومنهم من يشغله حبها عن كثير من الواجبات.

ومنهم من يشغله عن واجب يعارض تحصيلها وإن قام بغيره.

ومنهـم من يشغله عن القيام بالواجب الذي ينبغي على الوجه الذي ينبغي؛ فيفرط في وقته وفي حقوقه.

ومنهـم مـن يشغله عن عبودية قلبه في الواجب وتفريغه له عند أدائه، فيؤديـه ظـاهراً لا باطنـاً... وأيـن هـذا مـن عشـاق الدنيا ومحبيها؟ هذا من أندرهم.

وأقـل درجـات حبهـا أن يشغل عن سعادة العبد، وهو: تفريغ القلب لحـب الله، ولسـانه لذكـره، وجمـع قلبـه على لسانه، وجمع لسانه وقلبه على ربه، فعشقها ومحبتها تضر بالآخرة ولا بد؛ كما أن محبة الآخرة تضر بالدنيا.

خامسها: أن محبتها تجعلها أكثر هَمِّ العبد.

قـال ﷺ: **«من كانت الآخرة أكبر هَمِّه، جعل الله غناه في قلبه، وجمع شـمله، وأتتـه الدنيـا وهـي راغمـة، ومـن كانت الدنيا أكبر همه، جعل الله فقره بين عينيه، وفرق عليه شمله، ولم يأته من الدينا إلا ما قُدِّر لَهُ»**[(١)].

---

(١) صحيـح - أخرجـه الـترمذي (٢٤٦٥) من طريق الربيع بن صبيح عن يزيد ابن أبان وهو الرقاشي عن أنس مرفوعاً.

قلـت: سـكت عنـه الـترمذي، وإسناده ضعيف؛ لأن يزيد الرقاشي ضعيف، لكنه مقبول في المتابعات.

وأخرجـه ابـن عدي في «الكامل» (١/ ٢٨٢) من طريق إسماعيل بن مسلم عن الحسن وقتادة، و(٣/ ٩٦٦) من طريق داود بن محبرثنا همام عن قتادة كلاهما عن أنس بلفظ آخر.

وأخرجـه البيهقـي في «شعب الإيمان» (١٠٣٤١)، والبزار (ص٣٢٢- زوائده) من طريق إسماعيل عن الحسن وحده.

قلت: هذه أسانيد فيها ضعف كما لا يخفى.

وله شاهد من حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه.

سادسـها: أن مُحِبَّهـا أشـد النَّـاس عذابـاً بهـا، وهـو معذب في دوره الثـلاث: يعـذب في الدنيـا بتحصيلها والسعي فيها ومنازعة أهلها، وفي دار الـبرزخ بفواتهـا والحسـرة عليها، وكونه قد حيل بينه وبين محبوبه على وجه لا يرجـو اجتماعه به أبداً ولم يحصل له هناك محبوب يعوضه عنه، فهذا أشد النـاس عذابـاً في قـبره، يعمل الهم والغم والحزن والحسرة في روحه ما تعمل الديدان وهوام الأرض في جسمه.

والمقصـود: أن محـب الدنيـا يعذب في قبره ويعذب يوم لقاء ربه، قال تعـالى: **﴿فَـلا تُعجِبـكَ أَموَالُهُـم وَلا أولادُهُـم إنَّما يُرِيدُ اللهُ لِيعَذِّبَهُم بِها في الحَياةِ الدُّنيا وَتَزهَقَ أَنفُسُهم وَهُم كَافِرُون﴾** [التوبة:٥٥].

سـابعها: أن عاشـقها ومحبها الذي يؤثرها على الآخرة من أسفه الخلق وأقلهـم عقـلاً؛ إذ آثـر الخيـال علـى الحقيقـة، والمنـام علـى اليقظة، والظل الزائـل علـى النعيـم الدائـم، والـدار الفانيـة علـى الدار الباقية، وباع حياة الأبـد في أرغـد عيـش بحيـاة إنما هي أحلام نوم أو كظل زائل، إن اللبيب

= أخرجه ابن ماجه (٤١٠٥)، وأحمد (٥/ ١٨٣)، والدارمي (١/ ٧٥)، وابن عبدالبر في «جـامع بيان العلم» (١/ ٣٨)، وابن حبان (٦٨٠) وغيرهم من طريق شعبة عن عمر ابـن سـليمان قال: سمعت عبد الرحمن بن أبان بن عثمان بن عفان عن أبيه قال خرج زيد بن ثابت من عند مروان بنصف النهار.

قلـت: مـا بعـث إليـه هذه الساعة إلا لشيء يسأل عنه، فسألته فقال: سألنا عن أشياء سمعناها من رسول الله ﷺ (وذكره).

قلـت: إسـناده صحيح رجاله ثقات؛ كما قال البوصيري في «زوائده» (ق٢٥٢/ أ) ووافقه شيخنا في «الصحيحة» (٤٠٤ و٩٥٠).

وله شواهد من حديث ابن عباس، وابن عمر، وأبي هريرة رضي الله عنهم.

وبالجملة؛ فالحديث ثابت صحيح، ولله الحمد والمنة على الإسلام والسنة.

بمثلها لا يُخدَعُ.

وكان بعض السلف يتمثل في هذا البيت:

يا أهل اللذات دنيا لا بقاء لها   إن اغتراراً بظل زائل حمق» أ.هـ[١]

الفائدة الثالثة عشرة: لم يكن يتخلف عن رسول الله ﷺ إلا أحد ثلاثة: رجل مغموص عليه في النفاق، أو رجل من أهل الأعذار، أو رجل خَلَّفه رسول الله ﷺ لمصلحته أو استعمله على المدينة.

فأما النفاق فهو أصل كل بلية، وجذر كل رزية، وقد وصفه ابن قيم الجوزية؛ فأخلص الوصية، ودونك أغلى هدية: «وأما النفاق: فالداء العضال الباطن، الذي يكون الرجل ممتلئاً منه، وهو لا يشعر، فإنه أَمرٌ خفي على النَّاس، وكثيراً ما يخفى على من تلبس به؛ فيزعم أنه مصلح وهو مفسد.

وهو نوعان: أكبر، أصغر.

فالأكبر: يوجب الخلود في النار في دركها الأسفل، وهو: أن يظهر للمسلمين إيمانه بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وهو في الباطن منسلخ من ذلك كله مكذب به، لا يؤمن بأن الله تكلم بكلام أنزله على بشر جعله رسولاً للناس، يهديهم بإذنه، وينذرهم بأسه، ويخوفهم عقابه.

وقد هتك الله سبحانه أستار المنافقين، وكشف أسرارهم بالقُرآن، وجليّ لعباده أمورهم؛ ليكونوا منها ومن أهلها على حذر، وذكر طوائف العالم الثلاث في أول سورة البقرة: المؤمنين، والكفار، والمنافقين، فذكر في المؤمنين أربع آيات، وفي الكفار آيتين، وفي المنافقين ثلاث عشرة آية؛

---

(١) من «عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين» (ص ٤١١-٤١٨ بتحقيقي) باختصار.

لكثرتهم وعموم الابتلاء بهم، وشدة فتنتهم على الإسلام وأهله، فإن بلية الإسلام بهم شديدة جداً، لأنهم منسوبون إليه، وإلى نصرته وموالاته، وهم أعداؤه في الحقيقة.

يخرجون عداوته في كل قالب يظن الجاهل أنه علم وإصلاح، وهو غاية الجهل والإفساد»[(١)].

ثم فَصَّل أحوالهم، وبَيَّنَ قيلهم وقالهم، وضرب للعقلاء أمثالهم لينجوا فإن النفاق أخفى من دبيب النملة على صخرة صماء في جنح ليلة ظلماء، نسأل الله السلامة من الكفر والنفاق والفسوق والعصيان.

وأما أهل الأعذار فإنهم ليبلغون مراتب المجاهدين إذا صحت نيتهم، وصفت طويتهم.

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: كنا مع رسول الله ﷺ في غزاة فقال: «**إن بالمدينة لرجالاً ما سرتم سيراً، ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم حبسهم المرض**»[(٢)].

وفي رواية: «**إلا شركوكم في الأجر**»[(٣)].

وعن أنس رضي الله عنه: «رجعنا من غزوة تبوك مع النبي ﷺ فقال: «**إن أقواماً بالمدينة خلفنا ما سلكنا شعباً ولا وادياً إلا وهم معنا فيه، حسبهم العذر**»[(٤)].

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٣٤٧- ٣٥٩).

(٢) أخرجه مسلم (١٩١١).

(٣) أخرجه مسلم (٣/ ١٥١٨).

(٤) أخرجه البخاري (٢٨٣٨، ٢٨٣٩).

فمن حبسه العذر أو كان من أُولي الضرر بلغ بنيته أجر المجاهدين وألحقه الله بهم، شاهد ذلك في كتاب الله: ﴿**لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم**﴾ [النساء: ٩٥].

«فإنه سبحانه فاضل بين المجاهدين والقاعدين ثم استثنى أولي الضرر من القاعدين، فكأنه ألحقهم بالفاضلين»(١).

وفي هذا المقام نكتة لطيفة ينبغي التنبيه عليها، لأن تحتها كنزاً من الفهم عن الله ورسوله ﷺ ووضع كلامهما موضعه.

قال الإمام الهمام ابن قيم الجوزية: «ولا يلزم من استوائهما في أصل الأجر استواؤهما في كيفيته وتفاصيله؛ فإن الأجر على العمل والنية له مزية على مجرد النية التي قارنها القول، ومن نوى الحج ولم يكن له مال يحج به، وإن أثيب على ذلك، فإن ثواب من باشر أعمال الحج مع النية له مزية عليه.

وإذا أردت فهم هذا؛ فتأمل قول النبي ﷺ: «**من سأل الله الشهادة صادقاً من قلبه بلغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه**»(٢).

ولا ريب أن ما حصل للمقتول في سبيل الله من ثواب الشهادة تزيد كيفيته وصفاته على ما حصل لناوي ذلك إذا مات على فراشه، وإن بلغ منزلة الشهيد.

فها هنا أجران: أجر وقرب، فإن استويا في أصل الأجر، لكن الأعمال التي قام بها العامل تقتضي أثرا زائداً وقرباً خاصّاً، وهو فضل الله يؤتيه

---

(١) «فتح الباري» (٦/ ٤٧).

(٢) أخرجه مسلم (١٩٠٩).

من يشاء.

وقد قال ﷺ: «**إذا تواجه المسلمان بسيفهما؛ فالقاتل والمقتول في النار» قالوا: هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: «إنه كان حريصاً على قتل صاحبه»**[(١)].

فاستويا في دخول النار، ولا يلزم استواؤهما في الدرجة ومقدار العذاب؛ فأعط ألفاظ رسول الله ﷺ حقها، ونزلها منازلها يتبين لك المراد»[(٢)]

وأما من قعد بأمر رسول الله ﷺ؛ فإنه مجاهد في سبيل الله؛ لأن الجهاد مراتب، فإذا كان الجيش يحمي ثغور المسلمين من الأعداء، فإن حصون المسلمين من الداخل بحاجة من يحميها من العابثين الذين يتسللون لواذاً لكشف العورات للأعداء.

وما تقدم ذكره من ذم النفاق والمنافقين، ومدح أولي الضرر وأهل العذر الذين كانوا مع المجاهدين بقلوبهم وشعورهم يفضي إلى وجوب الخروج في الغزو إذا دعا الإمام إليه؛ لقوله ﷺ: «**لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا**»[(٣)].

الفائدة الرابعة عشر: الإمام والمطاع لا ينبغي أن يهمل من تخلف عنه في بعض الأمور، بل يَذكُرُهُ وَيُذَكِّره؛ ليراجع الطاعة ويتوب.

ويدل عليه أن النبي ﷺ قال بتبوك: «**ما فعل كعب بن مالك؟**»» ولم يذكر سواه من المخلفين استصلاحاً له، ومراعاة لحاله، وإهمالاً للقوم المنافقين، ولقد كان لذلك أثر بالغ وخير سابغ على كعب بن مالك وثباته

---

(١) أخرجه البخاري(٣١) ومسلم(٢٨٨٨).

(٢) «عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين» (ص ٤٦١ - ٤٦٢ -بتحقيقي).

(٣) أخرجه البخاري (٢٧٨٣ و٢٨٨٩) ومسلم (١٨٦٤).

على منهجه عندما أرسل له ملك غسان يعرض عليه الجاه والمال ليلحق به ويترك دار الإسلام.

وهذا باب عظيم من أبواب التربية النبوية وهو: الاهتمام بالأتباع، وتفقد أحوالهم ومراعاة شؤونهم؛ تطييباً لقلوبهم ومن ذلك وصية رسول الله ﷺ العلماء بطلابهم؛ لأن طلاب العلم غراس في رياض العلماء، فينبغي على أهل العلم أن يستوصوا بهم خيراً، وينظروا إليهم بعين المحبة، ويحيطوهم بالحرص والرعاية حتى يستقيم عودهم، ولا تميل قناتهم.

ولقد أوصى رسول الله ﷺ بطلاب الحديث خيراً؛ فعن أبي سعيد الخدري أنه قال:

«مرحباً بوصية رسول الله ﷺ، كان رسول الله ﷺ يوصينا بكم؛ يعني: طلبة الحديث»[(١)].

وتأمل كيف استوصى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب بصاحبه الكميل بن زياد النخعي؛ حيث هش في وجهه ممسكاً بيده، ودلَّه على مواطن العبر والموعظة؛ فأخذه إلى الجَبّان[(٢)]، وهو:

إما أن يكون الخلاء؛ فهو موطن خلوة واعتبار وتفكر وتأمل؛ لأن القلب يفرغ لما توجه إليه، فرسول الله ﷺ حُبِّب إليه الخلاء بادئ بدء؛ فعن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت:

---

(١) صحيح أخرجه الحاكم (١/ ٨٨)، والعلائي في «بغية الملتمس» (ص٢٨)، والرامهرمزي في «المحدث الفاصل» (٢١).

وصححه شيخنا في «الصحيحة» (٢٨٠).

(٢) انظرها مخرجة مشروحةً في كتابي «الإسعاد بذكر فوائد وصية علي بن أبي طالب للكميل بن زياد».

«أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه»(١).

أو يكون المراد بالجبان: المقابر؛ فإنها تذكر بالآخرة.

ثم نبهه على أهمية ما يُمليه عليه؛ فأمره بالوعي والحفظ.

وهذا منهج نبوي في التعليم؛ كما صنع رسول الله ﷺ مع ابن عباس رضي عنهما فقال له:

«يا غلام إني أعلمك كلمات...» الحديث(٢).

وقد أدرك علماء السلف الربانيون أهمية هذه النكتة، فأفردوها بأبواب في مصنفاتهم.

قال الخطيب البغدادي في «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» (١/ ٣٤٣- ٣٥٥):

«باب توقير المحدث طلبة العلم وأخذه نفسه بحسن الاحتمال لهم والحلم».

وذكر تحت هذا الباب فصولاً، نذكر رؤوسها:

١- إكرامه المشايخ وأهل المعرفة.

٢- تعظيم الأشراف وذوي الأنساب.

٣- تعظيمه من كان رأساً في طائفته وكبيراً عند أهل نحلته.

٤- إكرامه الغرباء من الطلبة وتقريبهم.

٥- استقباله لهم بالترحيب.

---

(١) أخرجه البخاري (٣)

(٢) صحيح- كما بينته في كتابي «صحيح كتاب الأذكار وضعيفه» (١٢٦٨/ ١٠٠٠).

٦- تواضعه لهم.

٧- تحسين خلقه معهم.

٨- الرفق بمن جفا طبعه منهم.

ومن درر قالاته في «الفقيه والمتفقه» (٢/ ١١٠) تحت باب: «ذكر أخلاق الفقيه وآدابه وما يلزمه استعماله مع تلاميذه وأصحابه»:

«يلزم الفقيه أن يتخير من الأخلاق أجملها، ومن الآداب أفضلها، فيستعمل ذلك مع البعيد والقريب والأجنبي والنسيب، ويتجنب طرائق الجهال وخلائق العوام والأراذل».

وقال (٢/ ١١٣) تحت عنوان: «استعمال التواضع ولين الجانب ولطف الكلام»

«ينبغي له أن يعود لسانه لين الخطاب والملاطفة في السؤال والجواب، ويعم بذلك جميع الأمة من المسلمين وأهل الذمة».

وقال (٢/ ١١٦-١٢٠) تحت عنوان: «استقباله المتفقهة بالترحيب بهم وإظهار البشر لهم»:

«وخدمة الفقيه أصحابه بنفسه مما يصفي منهم المودة، ويلقي في قلوبهم المحبة».

وقال: «وينبغي أن يتفقدهم، ويسأل عمن غاب منهم».

وقال (٢/ ١٣٩) تحت عنوان: «تنبيه الفقيه على مراتب أصحابه»: «يستحب للفقيه أن ينبه على مراتب أصحابه في العلم، ويذكر فضلهم، ويبين مقاديرهم؛ ليفزع النَّاس إليهم في النوازل بعده إليهم، ويأخذوا عنهم».

وقـال (٢/ ١٤٠): «وإذا بـان للفقيـه نفـاذ أحـد أصحابـه في العلـم وحسن بصيرته بالفقه جاز له تخصيصه دونهم وأثرته عليهم».

وتحت هذه النكت لطائف منها:

١- بقاء سلسلة الإسناد واتصاله.

قـال العلائـي في «بغيـة الملتمـس» (ص ٢٣): «وأمـا بعـد: فـإن الله تبـارك وتعالى، وله الحمد والمنة، مَنَّ على هذه الأمة المكرمة بسلسلة الإسناد واتصالـه، ونقـل خلفُها عن سلفِها سنة نبيها ﷺ وبيان أحواله، وذلك من معجزاتـه التـي أشـار إليهـا، ووعد أمته بالمحافظة عليها، وأوصى بالطالبين لذلـك وإلطافهم وإسعادهم بمطلوبهم وإسعافهم، ثم ساق (بإسناده) قول رسول الله ﷺ: «**تسمعون، ويسمع منكم، ويسمع ممن يسمع منكم**»[(١)].

ثم ساق (بإسناده) روايات وطرق وصية رسول الله بطلبة العلم[(٢)].

٢- تشجيع الرحلة في طلب العلم.

حيث ورد في بعض روايات حديث أبي سعيد الخدري السابق:

«**سـيأتيكم أقـوام يطلبـون العلـم؛ فإذا رأيتموهم فقولوا: مرحباً مرحباً بوصية رسول الله ﷺ، وأقنوهم**».

قلت للحكم: ما أقنوهم؟

---

(١) صحيـح - أخرجه أبو داود (٣٦٩٥)، وأحمد (١/ ٣٢١)، وابن حبان (٧٧- مـوارد)، والحـاكم (١/ ٩٥) مـن طريـق عبـدالله بن عبدالله عن سعيد بن جبير عن ابن عباس مرفوعاً.

وصححه الحاكم على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

قلت: إسناده صحيح؛ لكن عبدالله بن عبدالله لم يخرج له الشيخان، وهو ثقة.

(٢) مضى تخريجه (ص ٦١).

قال: علِّموهم[(١)].

وقد صنف الخطيب البغدادي كتابه: «الرحلة في طلب الحديث» ذكر فيه نفائس هذا الباب.

ومن اشتهر عنه من أهل العلم التواضع وحرصه على إفادة تلاميذه سعى إليه طلبة العلم من أقطار الأرض ينهلون من معينه.

٣- إقبال المتعلم على طلب العلم.

ومن كان من العلماء مُوَطَّأ الأكناف، سمح الأوصاف ورده طلبة العلم، وأفادوا منه؛ يدلك على هذا قول الله تعالى لنبيه:

﴿فَبِمَا رَحمَةٍ مِنَ اللهِ لِنتَ لَهَم وَلَو كُنتَ فَظاً غَلِيظَ القَلبِ لانفَضُوا مِن حَولِك فَاعفُ عَنهُم وَاستَغفِر لهم وَشَاوِرهُم فِي الأمر﴾ [آل عمران: ١٥٩].

فإذا كان رب البرية يوصي رسوله ﷺ بأصحابه خيراً؛ فطلاب العلم في حاجة إلى كنف عالم رحيم، وإلى رعاية والدٍ فائقة، وإلى بشاشة أخٍ سمحة، وإلى ود يسعهم، وحلم لا يضيق بجهلهم، وضعفهم، ونقصهم.

إنهم في حاجة إلى قلب كبير يعطيهم ولا يحتاج منهم إلى عطاء، ويحمل همومهم ولا يضنيهم بهمه، ويجدون عنده الرعاية والعطف.

وهكذا فلا يكاد المرء يسمع شيئاً من هذه الوصايا بطلاب العلم، ويرى الرعاية لهم من أهل العلم إلا اندفع تلقائياً؛ ليكون أحد أطراف الحياة العلمية الشامخة.

الفائدة الخامسة عشر: العجب من المهلكات.

---

(١) «صحيح سنن ابن ماجه»، (٢٠١).

ودلالتـه في الحديـث قـول الصحـابي مجيباً رسول الله ﷺ عندما سأل عن كعب فقال: «حبسه برداه والنظر في عطفيه».

وقـد بيّـن رسـول الله ﷺ: أن العُجبَ مهلكةٌ: «**ثلاث مهلكات: شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه**»(١).

وقـال ﷺ: «**بينما رجل يتبختر في بردين وقد أعجبته نفسه خسف الله به الأرض؛ فهو يتجلجل**(٢) **فيها إلى يوم القيامة**»(٣).

والعُجبُ لا يستدعي غير المعجب حتى لو قُدِّرَ أن يخلق وحده تصور أن يكـون معجبـاً بنفسـه ويـرى لهـا الفضـل، فـإن كان معه غيره تولد من العُجبِ الكِبرُ.

وهـذا الكـبر المتولـد مـن العجـب أول مـا عصـى إبليس اللعين ربه تعـالى؛ فـآل أمـره إلى الخسران والهوان: ﴿**قال مَا مَنعَكَ ألا تَسجُدَ إذ أَمَرتُك قـال أَنـا خَـير مِنـهُ خَلَقتَنـي مِـن نَـارٍ وَخَلَقتَهُ مِن طِين قال فَاهبِط مِنها فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتكَبَّرَ فِيها فَاخرُج إنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِين**﴾ [الأعراف: ١٢، ١٣].

وقـد خـاف رسـول الله ﷺ العجـب علـى أمتـه فقـال: «**لو لم تكونوا تذنبون لخفت عليكم ما هو أكبر من ذلك: العجب العجب**»(٤).

وهـذا يدل على أن العجب من أكبر الكبائر وأخطر الذنوب، وأنه ران القلـوب يحجبهـا عن مراد الله ورسوله ﷺ؛ كما قال تعالى: ﴿**سَأَصرِفُ عَن ءاياتيَ الذينَ يَتكَبَّرُونَ فِي الأرضِ بغيرِ الحقّ**﴾ [الأعراف: ١٤٦]

---

(١) «الصحيحة» (١٨٠٢).

(٢) يغوص في الأرض باضطراب.

(٣) أخرجه البخاري (٥٧٨٩)، ومسلم (٢٠٨٨).

(٤) حسن لغيره؛ كما بينه شيخنا في «الصحيحة» (٦٥٨).

وبذلك يتبين: أن بذرة العجب إذا نبتت في قلب أفسدته وجعلته كالبيت الخرب: تأوي إليه الشرور من كل حدب وصوب، وصدق من قال: الغرور شرور، وحب الظهور يقصم الظهور[(١)].

الفائدة السادسة عشر: جواز الطعن في الرجل بما يغلب على اجتهاد الطاعن حمية أو ذباً عن الله ورسوله ﷺ.

وهذا واضح جلي في قول الصحابي من بني سلمة أمام رسول الله ﷺ: «يا رسول الله حَبَسَهُ برداه والنظر في عطفيه».

قال الإمام النووي رحمه الله: «اعلم أن الغيبة تباح لغرض صحيح شرعي لا يمكن الوصول إليه إلا بها، وهو ستة أسباب:

الأول: التظلم، فيجوز للمظلوم أن يتظلم إلى السلطان والقاضي وغيرهما ممن له ولاية، أو قدرة على إنصافه من ظالمه؛ فيقول: ظلمني فلان بكذا.

الثاني: الاستعانة على تغيير المنكر، ورد العاصي إلى الصواب، فيقول لمن يرجو قدرته على إزالة المنكر: فلان يعمل كذا، فازجره عنه ونحو ذلك، ويكون مقصوده التوصل إلى إزالة المنكر، فإن لم يقصد ذلك كان حراماً.

الثالث: الاستفتاء؛ فيقول للمفتي: ظلمني أبي، أو أخي، أو زوجي، أو فلان بكذا، فهل له ذلك؟ وما طريقي في الخلاص منه، وتحصيل حقي ودفع الظلم؟ ونحو ذلك، فهذا جائز للحاجة، ولكن الأحوط والأفضل أن يقول: ما تقول في رجل أو شخص، أو زوج، كان من أمره كذا؟ فإنه يحصل به الغرض من غير تعيين ومع ذلك؛ فالتعيين جائز.

---

(١) وانظر لزاماً كتابي «التواضع»؛ ففيه تفاصيل مسألة الكبر وبيان مفاسدها وأسبابها وأبوابها.

الرابع: تحذير المسلمين من الشر ونصيحتهم، وذلك من وجوه:

منها جرح المجروحين من الرواة والشهود، وذلك جائز بإجماع المسلمين، بل واجب للحاجة.

ومنها المشاورة في مصاهرة إنسان، أو مشاركته، أو إيداعه، أو معاملته، أو غير ذلك، أو مجاورته، ويجب على المشاور أن لا يخفي حاله، بل يذكر المساوئ التي فيه بنية النصيحة.

ومنها إذا رأى متفقهاً يتردد إلى مبتدع، أو فاسق يأخذ عنه العلم، وخاف أن يتضرر المتفقه بذلك، فعليه نصيحته ببيان حاله، بشرط أن يقصد النصيحة، وهذا مما يُغلَطَ فيه، وقد يحمل المتكلم بذلك الحسد، ويلبس الشيطان عليه بذلك، ويخيل إليه أنها نصيحة؛ فليتفطن لذلك.

ومنها أن يكون له ولاية لا يقوم بها على وجهها: إما بأن لا يكون صالحاً لها، وإما بأن يكون فاسقاً، أو مغفلاً، ونحو ذلك فيجب ذكر ذلك لمن له عليه ولاية عامة ليزيله، ويولي من يصلح، أو يعلم ذلك منه ليعامله بمقتضى حاله، ولا يغتر به، وأن يسعى في أن يحثه على الاستقامة أو يستبدل به.

الخامس: أن يكون مجاهراً بفسقه أو بدعته كالمجاهر بشرب الخمر، ومصادرة الناس، وأخذ المكس؛ وجباية الأموال ظلماً، وتولي الأمور الباطلة، فيجوز ذكره بما يجاهر به، ويحرم ذكره بغيره من العيوب، إلا أن يكون لجوازه سبب آخر مما ذكرناه.

السادس: التعريف، فإذا كان الإنسان معروفاً بلقب؛ كالأعمش، والأعرج، والأصم، والأعمى، والأحول، وغيرهم جاز تعريفهم بذلك؛ ويحرم إطلاقه على وجه التنقص؛ ولو أمكن تعريفه بغير ذلك كان أولى.

فهذه ستة أسباب ذكرها العلماء وأكثرها مجمع عليه؛ ودلائلها من الأحاديث الصحيحة مشهورة[١].

وقد تعقب الشوكاني رحمه الله النووي رحمه الله في رسالة سماها: «رفع الريبة عما يجوز وما لا يجوز من الغيبة»، وقد وازنت بينهما في كتابي «بهجة الناظرين شرح رياض الصالحين» (٣/ ٣٥- ٤٩).

الفائدة السابعة عشر: الرد على المخالف والطاعن من أصول الدين إذا غلب على ظن الراد أن المخالف وهم أو غلط.

ودلالته في رد معاذ بن جبل رضي الله عنه على من قال: «حبسه برداه والنظر في عطفيه»، وسكوت رسول الله ﷺ مقرّاً.

قال ابن قيم الجوزية رحمه الله: «جواز الرد على الطاعن إذا غلب على ظن الراد أنه وهم وغلط؛ كما قال معاذ للذي طعن في كعب: بئس ما قلت، والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيراً، ولم ينكر رسول الله ﷺ على واحد منهما»[٢].

اعلموا إخواني في الله أسعدكم الله: أن الرد من أهل السنة والجماعة أتباع السلف الصالح أهل الحديث على رؤوس البدع، رأس في مراد الشارع الحكيم.

ومن استقرأ الوحيين رأى في مواقف الأنبياء مع أممهم، والدعاة مع

---

(١) «بهجة الناظرين شرح رياض الصالحين» (٣/ ٣٣ - ٣٥).

وهذه الأوجه التي ذكرها النووي رحمه الله سبقه إلى ذلك الغزالي في «الإحياء» (٣/ ١٥٢- ١٥٣)؛ كما نبّه على ذلك في كتاب «الأذكار»، ولكنه في «شرح صحيح مسلم» و«رياض الصالحين» لم يبين ذلك.

(٢) «زاد المعاد» (٤/ ٥٧٥).

أهلهم مواقف المناظرة والمجادلة بالتي هي أحسن، وهكذا ورثتهم من بعدهم، فإليكم بيانها:

أولاً : القرآن الكريم:

وردت إشارات صريحة في القرآن الكريم تدل على ذلك، وباستقرائها تبين أنها وردت على وجوه:

أ- بيان وظيفة الأنبياء والرسل في دعوتهم:

من المهمات التي بعث الله جل جلاله رسله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، بيان مواطن النزاع، والفصل في موارد الإشكال، وفي ذلك يقول الحق عز وجل: **﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعبُدُوا اللَّهَ وَاجتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنهُم مَّن هَدَى اللَّهُ وَمِنهُم مَّن حَقَّت عَلَيهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُوا فِي الأَرضِ فَانظُرُوا كَيفَ كَانَ عَاقِبَةُ المُكَذِّبِينَ. إِن تَحرِص عَلَى هُدَاهُم فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يَهدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ. وَأَقسَمُوا بِاللَّهِ جَهدَ أَيمَانِهِم لاَ يَبعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَى وَعداً عَلَيهِ حَقّاً وَلَكِنَّ أَكثَرَ النَّاسِ لاَ يَعلَمُونَ. لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَختَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُم كَانُوا كَاذِبِينَ﴾** [النحل: ٣٦- ٣٩].

وفي متعلق اللام في قوله تعالى: **﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَختَلِفُونَ فِيهِ﴾** تفسيران[(١)]:

الأول: أنها تتعلق بقوله **﴿بلى﴾**؛ أي: يبعثهم **﴿لِيُبَيِّنَ لَهُم﴾**، والضمير في قوله: **﴿لهم﴾** عائد إلى من يموت، لأنه شامل للمؤمنين والكافرين.

---

(١) «أضواء البيان» (٣/ ٢٧١).

الآخر: أنها تتعلق بقوله: ﴿وَلَقَد بَعَثنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً﴾؛ أي: بعثناه ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُم﴾.

قلت: والراجح هو التفسير الأخير؛ بدلالة قوله تعالى: ﴿تَاللَّهِ لَقَد أَرسَلنَآ إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبلِكَ فَزَيَّنَ لهمُ الشَّيطَانُ أَعمَالهم فَهو وَلِيُّهُمُ اليَومَ وَلهم عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَمَا أَنزَلنَا عَلَيكَ الكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لهمُ الَّذِي اختَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحمَةً لِّقَومٍ يُؤمِنُونَ﴾ [النحل: ٦٣-٦٤].

وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالبَيِّنَاتِ قَالَ قَد جِئتُكُم بِالحِكمَةِ وَلأُبَيِّنَ لَكُم بَعضَ الَّذِي تَختَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الزخرف: ٦٣].

إذن؛ فبيان الخلاف بإحقاق الحق وإزهاق الباطل مقصد إلهي من مقاصد إرسال الرسل وإنزال الكتب.

ب- الرد على صنوف المخالفين: من الدهريين، والصابئة، والمجوس، وأهل الكتاب، والمنافقين، والكفار، والمبتدعين.

ت- إبطال شبه الكافرين والجاحدين والمجادلين بالباطل، وعلى رأسهم إبليس حيث فند الحق شبهه.

ث- تعليم المؤمنين طريق الحوار والاسترشاد والجدل بالتي هي أحسن.

ثانياً: السنة النبوية الصحيحة:

ففي نصوصها الكثير الطيب؛ فمن فعله:

أ- رده ﷺ على ذي الخويصرة التميمي عندما اعترض على قسمته ﷺ.

ب- ورده ﷺ على النفر الثلاثة الذين سألوا عن عبادته وتقالُّوها.

ت- ورده ﷺ على عثمان بن مظعون رضي الله عنه التبتل.

ث- ورده ﷺ على من سأله يوم حنين أن يجعل للمسلمين ذات أنواط.

جـ- محاجة وفد نصارى نجران.

قال ابن قيم الجوزية رحمه الله ذاكراً فوائد قصة وفد نجران:

«ومنها: جواز مجادلة أهل الكتاب ومناظرتهم، بل استحباب ذلك، بل وجوبه إذا ظهرت مصلحته من إسلام من يرجى إسلامه منهم، وإقامة الحجة عليهم، ولا يهرب من مجادلتهم إلا عاجز عن إقامة الحجة، فَلْيُوَلِّ ذلك إلى أهله، وَلْيُخَلِّ بين المطي وحاديها، والقوس وباريها، ولولا خشية الإطالة لذكرنا من الحجج التي تلزم أهل الكتابين الإقرار بأنه رسول الله بما في كتبهم، وبما يعتقدون بما لا يمكن دفعه ما يزيد على مئة طريق، ونرجو من الله سبحانه إفرادها بمصنف مستقل[(١)].

ودار بيني وبين بعض علمائهم مناظرة في ذلك؛ فقلت له في أثناء الكلام: ولا يتم لكم القدح في نبوة نبينا ﷺ إلا بالطعن في الرَّب تعالى والقدح فيه، ونسبته إلى أعظم الظلم والسَّفه والفساد، تعالى الله عن ذلك.

فقال: كيف يلزمنا ذلك؟

قلت: بل أبلغ من ذلك، لا يتم لكم ذلك إلا بجحوده وإنكار وجوده تعالى. وبيان ذلك: أنه إذا كان محمد عندكم ليس بنبي صادق، وهو بزعمكم ملك ظالم؛ فقد تهيأ له أن يفتري على الله، ويتقول عليه ما لم يقله، ثم يتم له ذلك، ويستمر حتى يحلل، ويحرم، ويفرض الفرائض،

---

(١) وقد أفردها رحمه الله في كتاب عجاب هو «هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى».

ويشرع الشرائع، وينسخ الملل، ويضرب الرقاب، ويقتل أتباع الرسل، وهم أهل الحق، ويسبي نساءهم وأولادهم، ويغنم أموالهم وديارهم، ويتم له ذلك حتى يفتح الأرض، وينسب ذلك كله إلى أمر الله تعالى له به ومحبته له، والرب تعالى يشاهده، وما يفعل بأهل الحق وأتباع الرسل، وهو مستمر في الافتراء عليه ثلاثاً وعشرين سنة، وهو مع ذلك كله يؤيده وينصره، ويُعلي أمره، ويمكِّن له من أسباب النصر الخارجة عن عادة البشر، وأعجب من ذلك أنه يجيب دعواته، ويهلك أعداءه من غير فعل منه نفسه ولا سبب، بل تارة بدعائه، وتارة يستأصلهم سبحانه من غير دعاء منه ﷺ، ومع ذلك يقضي له كل حاجة سأله إياها، ويعده كل وعد جميل،ثم ينجز له وعده على أتم الوجوه، وأهنئها، وأكملها، هذا وهو عندكم في غاية الكذب والافتراء والظلم، فإنه لا أكذب ممن كذب على الله، واستمر على ذلك، ولا أظلم ممن أبطل شرائع أنبيائه ورسله، وسعى في رفعها من الأرض، وتبديلها بما يريد هو، وقتل أوليائه وحزبه وأتباع رسله، واستمرت نصرته عليهم دائماً، والله تعالى في ذلك كله يقره،ولا يأخذ منه باليمين،ولا يقطع منه الوتين،وهويخبر عن ربه أنه أوحي إليه أنه لا ﴿**أَظلَمُ مِمَّنِ افتَرَى علَى اللَّهِ كَذِباً أَو قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَم يُوحَ إِلَيهِ شَيءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ**﴾ [الأنعام: ٩٣] فيلزمكم معاشر من كذبه أحد أمرين لا بد لكم منهما:

إما أن تقولوا: لا صانع للعالم، ولا مدبر، ولو كان للعالم صانع مدبر قدير حكيم، لأخذ على يديه، ولقابله أعظم مقابلة، وجعله نكالا للظالمين إذ لا يليق بالملوك غير هذا، فكيف بملك السماوات والأرض، وأحكم الحاكمين؟

الثـاني: نسـبة الـرب إلى مـا لا يليـق بـه مـن الجور، والسفه، والظلم، وإضـلال الخلـق دائمـا أبـد الآبـاد، لا بل نصرة الكاذب، والتمكين له من الأرض، وإجابة دعواته، وقيام أمره من بعده، وإعلاء كلماته دائماً، وإظهار دعوتـه، والشـهادة له بالنبوة قرناً بعد قرن على رؤوس الأشهاد في كل مجمع ونـاد، فأين هذا من فعل أحكم الحاكمين، وأرحم الراحمين؟ فلقد قدحتم في رب العـالمين أعظـم قدح، وطعنتم فيه أشد طعن، وأنكرتموه بالكلية، ونحن لا ننكـر أن كثـيراً مـن الكذابـين قام في الوجود، وظهرت له شوكة، ولكن لم يتـم لـه أمـره، ولم تطـل مدته، بل سلط عليه رسله وأتباعهم، فمحقوا أثره، وقطعوا دابره، واستأصلوا شأفته.

هـذه سـنته في عبـاده منـذ قـامت الدنيـا، وإلى أن يـرث الأرض ومن عليها.

فلما سمع مني هذا الكلام.

قـال: معاذ الله أن نقول: إنه ظالم أو كاذب، بل كل منصف من أهل الكتـاب يقـر بـأن مـن سـلك طريقـه، واقتفـى أثـره، فهـو من أهل النجاة والسعادة في الأخرى.

قلـت لـه: فكيـف يكـون سالك طريق الكذاب، ومقتفي أثره بزعمكم من أهل النجاة والسعادة؟

فلم يجد بداً من الاعتراف برسالته، ولكن لم يرسل إليهم.

قلـت: فقـد لزمـك تصديقـه، ولا بـد وهو قد تواترت عنه الأخبار بأنه رسـول رب العـالمين إلى النّـاس أجمعين، كتابيهم وأميهم، ودعا أهل الكتاب إلى دينـه، وقـاتل مـن لم يدخـل في دينـه منهم حتى أقروا بالصغار والجزية،

فبهت الكافر، ونهض من فوره.

والمقصود: أن رسول الله ﷺ لم يزل في جدال الكفار على اختلاف مللهم ونحلهم إلى أن توفي، وكذلك أصحابه من بعده، وقد أمره الله سبحانه بجدالهم بالتي هي أحسن في السورة المكية والمدنية، وأمره أن يدعوهم بعد ظهور الحجة إلى المباهلة، وبهذا قام الدين، وإنما جعل السيف ناصراً للحجة، وأعدل السيوف سيف ينصر حجج الله وبيناته، وهو سيف رسوله وأمته» أ.هـ(١).

ومن قوله:

أ- **«جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم»**(٢).

ب- **«يحمل هذا العلم من كل خلف عدولهُ: ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين»**(٣).

ومن إقراره ﷺ:

أ- إقراره لحسان بن ثابت في هجائه للمشركين.

ثالثاً: أقوال الصَّحَابَة رضي الله عنهم:

قام الصَّحَابَة رضي الله عنهم بواجب الجهاد عن الإسلام عقيدة

---

(١) «زاد المعاد» (٣/ ٦٣٩- ٦٤٢).

قلت: وذكر ابن قيم الجوزية هذه المناظرة بينه وبين الكتابي في «الصواعق المرسلة» (١/ ٣٢٧- ٣٢٩) بأخصر من هنا.

(٢) صحيح- أخرجه أبو داود (٢٥٠٤)، والنسائي (٦/ ٧) وغيرهما من حديث أنس رضي الله عنه بإسناد صحيح على شرط مسلم.

(٣) حسن بشواهده؛ كما بينته في «تحرير النقول في تصحيح حديث العدول»، وذكرت من حسنه من أهل العلم.

وشـريعة خـير قيـام مـن رد البدع، وتفنيد الأهواء المضلة ووئدها في مهدها، فمن ذلك:

١- منـاظرة عبـد الله بـن مسـعود رضي الله عنه لأفراخ الخوارج[(١)] في مسجد الكوفة.

٢- مناظرة عبد الله بن عباس رضي الله عنه للخوارج.

٣- مناظرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب للخوارج.

قال ابن عبد البر رحمه الله:

«ونـاظر علـي رضـي الله عنـه الخـوارج حتـى انصرفـوا، ونـاظرهم ابن عبـاس أيضـا بمـا لا مدفـع فيه من الحجة من نحو كلام علي، ولولا شهرة ذلك وخشية طول الكتاب لاجتلبت ذلك على وجهه»[(٢)].

رابعا: أقوال أهل العلم:

١- أثبـت ابـن عبـد البر رحمه الله باباً بَيّن فيه جواز المناظرة والمجادلة وإقامة الحجة، وأورد أقوال السلف في ذلك[(٣)].

٢- الرد على منكري المناظرة والمجادلة.

قـال الخطيـب البغـدادي رحمـه الله: «وقد ذهب قوم قصرت علومهم، وبعدت أفهامهم إلى إنكار المناظرة وإبطال المجادلة»[(٤)].

وقـد بـين الإمـام ابـن قيـم الجوزية رحمه الله في بحث تاريخي مقامات

---

(١) لأن عامة تلك الحلق كانوا يطاعنون الصحابة يوم النهروان مع الخوارج(!).

(٢) «جامع بيان العلم وفضله» (٢/ ١٠٣).

(٣) المصدر السابق (٢/ ٩٩- ١٠٨).

(٤) «الفقيه والمتفقه» (١/ ٢٣٠ و ٢/ ٥).

الرد على المخالفين فقال: «والذي صح عن النبي ﷺ ذمهم من طوائف أهل البدع هم الخوارج؛ فإنه قد ثبت فيهم الحديث من وجوه كلها صحاح[(١)]؛ لأن مقالتهم حدثت في زمن النبي ﷺ، وكلمه رئيسهم[(٢)].

وأما الإرجاء، والرفض، والقدر، والتجهم، والحلول وغيرها من البدع، فإنها حدثت بعد انقراض عصر الصَّحَابَة.

وبدعة القدر أدركت آخر عصر الصَّحَابَة، فأنكرها من كان حيّاً منهم؛ كعبد الله بن عمر، وابن عباس، وأمثالهما رضي الله عنهم، وأكثر ما يجيء في ذمهم فإنما هو موقوف على الصَّحَابَة»

قلت: ردوا على أحبائهم وأهلهم وعلمائهم، وكانوا كما قال شيخ الاسلام الثاني ابن قيم الجوزية: «شيخ الاسلام[(٣)] حبيبناً، ولكن الحق أحب إلينا منه»[(٤)].

وقال أيضاً: «ولولا أن الحق لله ورسوله، وأن كل ما عدا الله ورسوله، فمأخوذ من قوله ومتروك، وهو عرضة الوهم والخطأ؛ لما اعترضنا على من لا نلحق غبارهم، ولا نجري معهم في مضمارهم، ونراهم فوقنا في مقامات الإيمان ومنازل السائرين؛ كالنجوم الدراري، ومن كان عنده علم فليرشدنا إليه، ومن رأى في كلامنا زيغاً، أو نقصاً وخطأ، فليهد إلينا الصواب، نشكر

---

(١) الواقف على أحاديث الخوارج يجزم بتواترها.

(٢) هو ذو الثدية.

(٣) هو أبو اسماعيل عبد الله بن محمد بن علي الهروي الصوفي المتوفى سنة ٤٨١هـ، صاحب كتاب «منازل السائرين» الذي شرحه ابن قيم الجوزية في «مدارج السالكين».

(٤) «مدارج السالكين» (٢/ ٣٧ و ٣/ ٣٩٤).

له سعيه، ونقابله بالقبول والإذعان والانقياد والتسليم، والله أعلم، وهو الموفق[(١)]».

قلت: وقد أَصَّل هذا الأصل على قواعد أهل السنة والحديث الأخ الشيخ المفضال عبد الله بن بكر أبو زيد حفظه الله في كتابه المستطاب: «الرد على المخالف من أصول الإسلام» وشحنه بحقائق تسر المتبعين، وتشفي صدور قوم مؤمنين، وتبين أن حزب النجاة والفرقة المنصورة أهل الحديث لا يزالون في جهاد ومجاهدة وصبر ومصابرة ومرابطة يذبون عن الإسلام وأهله كيد الخائنين حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك لا يضرهم المخالفون ولا المثبطون؛ فاظفر به؛ فإنه نفيس.

الفائدة الثامنة عشر: السنة للقادم من السفر أن يدخل البلد على وضوء، وأن يبدأ ببيت الله قبل بيته؛ فيصلي فيه ركعتين، ثم يجلس للمُسَلِّمين عليه، ثم ينصرف إلى أهله[(٢)].

ودليل ذلك قول كعب بن مالك: «وصبّح رسول الله ﷺ قادماً، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد؛ فركع فيه ركعتين، ثم جلس للناس».

الفائدة التاسعة عشر: أحكام الإسلام تجري على الظاهر والله يتولى السرائر.

ودلالته في قول كعب بن مالك رضي الله عنه: «فلما فعل ذلك جاءه المخلفون؛ فطفقوا يعتذرون إليه، ويحلفون له، وكانوا بضعةً وثمانين رجلاً؛ فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم، وبايعهم، واستغفر لهم، ووكل سرائرهم إلى الله».

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ١٣٧).

(٢) «زاد المعاد» (٤/ ٥٧٥).

قال ابن قيم الجوزية: «إن رسول الله ﷺ كان يقبل علانية من أظهر الإسلام من المنافقين، ويكل سريرته إلى الله، ويجري عليه حكم الظاهر، ولا يعاقبه بما لم يعلم من سرِّه»[1].

ولا شك في صحة هذه القاعدة وتوافقها مع مقاصد الشرع، ولشهرتها فلا تكاد تمحى، ولذلك ظن كثير من الأصوليين والفقهاء أن «**أمرت أن أحكم بالظاهر والله يتولى السرائر**» حديث نبوي مرفوع.

وممن ذكره كذلك:

١- أبو بكر بن العربي: «...فإن قيل هذا يعارضه قوله ﷺ: «**أمرت أن أقاتل النَّاس حتى يقولوا لا إله إلا الله**»[2].

وفي رواية: «**إنما أمرت بالظاهر والله يتولى السرائر**».

٢- القاضي عياض: «ومحال تغيير حكم البشر في الباطن حكم الله تعالى وحكمته؛ لقوله عليه السلام: «**إنا معشر الأنبياء إنما نحكم بالظاهر والله يتولى السرائر**».

ويروى: «**والله يتولى البواطن**».

وفي رواية: «**إنما أمرت أن أحكم بالظاهر والله يتولى السرائر**»[3].

٣- ناصر الدين البيضاوي[4].

---

(١) «زاد المعاد» (٥/ ٥٧٥).

(٢) «أحكام القرآن» (١/ ١٤٣).

(٣) «ترتيب المدارك» (١/ ١٠١).

(٤) «منهاج الوصول إلى معرفة علم الأصول» (ص ٢٤٥).

٤- السيوطي فيما نقله عنه السندي[(١)]:

«قال السيوطي في حاشية أبي داود: هذا في أول الأمر لما أمر رسول الله ﷺ أن يحكم بالظاهر ويكل سرائر الخلق إلى الله تعالى كسائر الأنبياء».

بل نسبه النووي[(٢)] صراحة لرسول الله ﷺ فقال: «معناه: إني أمرت بالحكم بالظاهر والله يتولى السرائر؛ كما قال ﷺ»[(٣)].

(١) «حاشية السندي على سنن النسائي» (٨/ ٢٣٣).

(٢) «شرح صحيح مسلم» (٧/ ١٦٣).

(٣) وهذا ما قرره السخاوي (ص ١٦٢) فقال: «اشتهر بين الأصوليين والفقهاء، بل وقع في «شرح النووي» في قوله ﷺ: «إني لم أومر أن أنقب عن قلوب الناس، ولا أشق بطونهم» ما نصه: «معناه: إني أمرت بالحكم بالظاهر والله يتولى السرائر» كما قال ﷺ» أ.هـ.

وأقره العجلوني في «كشف الخفاء» (١/ ٢٢٢)، والقاري في «الأسرار المرفوعة» (٢٤٢).

واستنكر أبو غدة في تعليقاته على «المصنوع» (ص ٩٥) هذه النسبة فقال:

«ومما يجب التنبيه عليه هناك ما وقع للسخاوي رحمه الله (وذكره)».

ثم قال: «وقد وقع لقائل هذا على النووي تسرع في فهم عبارة النووي، فكان منه الخطأ والغلط، وإليك نص عبارة النووي (وذكره)».

وقال: «وليس فيه نسبة جملة «أمرت أن أحكم بالظاهر...» إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإنما فيه تفسير بها، غير منسوبة لرسول الله ﷺ، وإنما وقع هذا الوهم لقائله من تسرع في نظره في عبارة النووي، وجعله جملة (كما قال ﷺ) مرتبطة بما قبلها، في حين أنها مرتبطة بما بعدها».

قلت: سياق كلام النووي صريح في تعلق جملة (كما قال ﷺ) بما قبلها، ولذلك فتوهيم السخاوي والقاري والعجلوني هو الوهم، والله أعلم.

قلت: هو من كلام الإمام الشافعي في «الأم»[١] كما نبه عليه الحافظ ابن حجر رحمه الله حيث قال:

«رأيت في: «الأم» للشافعي بعد أن أخرج حديث أم سلمة رضي الله عنها، فأخبر ﷺ أنه إنما يحكم بالظاهر، وأن أمر السرائر إلى الله؛ فظن بعض من رأى كلامه: أن هذا حديث آخر، وإنما هو كلام الشافعي استنبطه من الحديث الآخر»[٢].

وقال ابن كثير رحمه الله: «هذا الحديث كثيراً ما يلهج به أهل الأصول، ولم أقف له على سند، وسألت عنه الحافظ أبا الحجاج المزي، فلم يعرفه»[٣].

وقال الحافظ العراقي: «لا أصل له، وسئل عنه المزي، فأنكره»[٤].

وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «هذا الحديث استنكره المزي فيما حكاه ابن كثير عنه في: «أدلة التنبيه».. وقد ثبت في «تخريج أحاديث المنهاج» للبيضاوي سبب وقوع الوهم من الفقهاء في جعلهم هذا حديثاً مرفوعاً، وأن الشافعي قال في كلام له: وقد أمر الله نبيه بالظاهر، والله يتولى السرائر، وكذا قال ابن عبد البر في «التمهيد»: أجمعوا أن أحكام الدنيا على

---

(١) ونسبه السيوطي في «الدرر المنثرة» (ص ٥٢) للشافعي في «الرسالة».

(٢) «موافقة الخبر الخبر» (١/ ١٨١). وقال قبله: «هذا الحديث اشتهر بين الأصوليين والفقهاء وتكملته «والله يتولى السرائر» ولا وجود له في كتب الحديث المشهورة، ولا الأجزاء المنثورة، وقد سئل عنه المزي فلم يعرفه، والذهبي قال: لا أصل له. قال ابن كثير: يؤخذ معناه من حديث أم سلمة في الصحيحين».

(٣) «تحفة الطالب» (ص ١٧٤).

(٤) تخريج أحاديث «مختصر المنهاج» (ص ٧٨).

الظاهر، وأن أمر السرائر إلى الله.

وأغرب إسماعيل بن علي بن إبراهيم بن القاسم الجنزوي في كتابه «إدارة الأحكام»[١] فقال:

«إن هذا الحديث ورد في قصة الكندي والحضرمي اللذين اختصما في الأرض، فقال المقضي عليه: قضيت علي، والحق لي، فقال ﷺ: **«إنما أقضي بالظاهر والله يتولى السرائر»**[٢] أ.هـ

وقال الزركشي: «هذا الحديث اشتهر في كتب الفقه وأصوله، وقد استنكره جماعة من الحفاظ منهم: المزي، والذهبي وقالوا: لا أصل له، وأفادني شيخنا علاء الدين مغلطاي رحمه الله قال: إن الحافظ أبا طاهر إسماعيل بن علي بن إبراهيم بن أبي القاسم الجنزوي رواه في كتابه «إدارة الأحكام» في قصة الكندي والحضرمي اللذين اختصما إلى النبي ﷺ، وأصل حديثهما في «الصحيحين»، فقال المقضي عليه: قضيت علي والحق لي، فقال رسول الله ﷺ: «إنما أقضي بالظاهر، والله يتولى السرائر» أ.هـ[٣].

وقال: «هو غير ثابت بهذا اللفظ، ولعله مروي بالمعنى من أحاديث صحيحة ذكرتها في الأقضية من «الذهب الإبريز»[٤].

وقال السخاوي: «اشتهر بين الأصوليين والفقهاء... ولا وجود له في

---

(١) قال الحافظ في «موافقة الخبر الخبر» (١/ ١٨١): «ولم أقف على هذا الكتاب، ولا أدري هل ساق له إسماعيل المذكور إسنادا أم لا ؟»

ونقل مثل ذلك السخاوي في «المقاصد الحسنة» (١٦٣).

(٢) «التلخيص الحبير» (٤/ ١٩٢)، وقارن بـ «موفقة الخبر الخبر» (١/ ١٨١).

(٣) «المعتبر في تخريج أحاديث المنهاج والمختصر» (ص٩٩).

(٤) «التذكرة في الأحاديث المشتهرة» (ص ٧٠ - ٧١).

كتب الحديث المشهورة، ولا الأجزاء المنثورة، وجزم العراقي بأنه لا أصل له، وكذا أنكره المزي، وغيره»[(١)].

وأقره السيوطي[(٢)]، والقاري[(٣)]، والعجلوني[(٤)]، والسمهودي[(٥)]، وابن الديبع[(٦)]، والغماري[(٧)].

وقال الشوكاني: «يحتج به أهل الأصول، ولا أصل له، وفي معناه قوله ﷺ يوم بدر: كان ظاهرك علينا»[(٨)].

وقال: «لا أصل له»[(٩)].

قلت: لا شك أن معناه صحيح، وقد أورد له الحفاظ شواهد كثيرة، منها:

١- عن أم سلمة ترفعه: **«إنما أنا بشر، وإنه يأتيني الخصم، فلعل بعضكم أن يكون أبلغ من بعض، فأحسب أنه صدق فأقضي له بذلك؛ فمن قضيت له بحق مسلم؛ فإنما هي قطعة من النار، فليأخذها أو**

---

(١) «المقاصد الحسنة» (ص ١٧٨)، وكأن السخاوي تبطن كلام شيخه الحافظ ابن حجر.

(٢) «الدرر المنتثرة» (ص ٥١ - ٥٢).

(٣) «المصنوع» (ص ٣٨)، و «الأسرار المرفوعة» (ص ٢٤١ - ٢٤٢).

(٤) «كشف الخفاء ومزيل الالتباس» (٥٨٥).

(٥) «الغماز على اللماز» (٣٨).

(٦) «تمييز الطيب من الخبيث» (ص ٤٠).

(٧) «الابتهاج في تخريج أحاديث المنهاج» (ص ٢٤٥).

(٨) «الفوائد المجموعة» (ص ٢٠٠).

(٩) «إرشاد الفحول» (ص ٢٧٤).

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

ليتركها»(١).

وترجم عليه النسائي «باب الحكم الظاهر»(٢).

وقال الحافظ ابن كثير: «لكن له معنى في الصحيح (وذكر حديث أم سلمة)»(٣).

٢- عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه في الذّهيبة التي بعث بها علي بن أبي طالب رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ فقسمهما بين أربعة نفر، فقام رجل فقال: اتق الله، فقال: «**ويلك أولست أحق أهل الأرض أن يتقي الله**».

فقال خالد: ألا أضرب عنقه؟

قال: «**لا لعله أن يكون يصلي**».

فقال خالد: وكم من مصل يقول بلسانه ما ليس في قلبه؛ فقال رسول الله ﷺ: «**إني لم أمر أن أنقب عن قلوب النّاس، ولا أشق بطونهم**»(٤).

قال النووي: «معناه: إني أمرت بالحكم بالظاهر، والله يتولى السرائر؛ كما قال ﷺ»(٥).

قلت: أصاب في تفسير معناه، وأخطأ في رفع لفظه ومبناه.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٤٥٨)، ومسلم (١٧١٣).

(٢) «المجتبى» (٨/ ٢٣٣).

(٣) «تحفة الطالب» (ص ١٧٤)، ونحوه في «موافقة الخبر الخبر» (١/ ١٨١).

(٤) أخرجه البخاري (٤٣٥١)، ومسلم (١٠٦٤).

(٥) «شرح صحيح مسلم» (٧/ ١٦٣).

٣- عن عبدالله بن عتبة قال: سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: «إن ناساً كانوا يؤخذون بالوحي في عهد رسول الله ﷺ، وإن الوحي قد انقطع، وإنما نأخذكم الآن بما ظهر لنا من أعمالكم؛ فمن أظهر لنا خيراً أمّناه وقرّبناه، وليس إلينا من سريرته شيء، الله يحاسب سريرته، ومن أظهر لنا سوءاً لم نأمنه ولم نصدقه، وإن قال: إن سريرته حسنة»(١).

الفائدة العشرون: «ترك الإمام والحاكم رد السلام من أحدث حدثاً تأديباً له، وزجراً لغيره، فإنه ﷺ لم ينقل أنه رد على كعب، بل قابل سلامه بتبسم المغضب»(٢).

الفائدة الحادية والعشرون: ملامح الوجه لا تدل على حقيقة الحال.

قال ابن قيم الجوزية: «إن التبسم قد يكون عن الغضب، كما يكون عن التعجب والسرور، فإن كُلاّ منها يوجب انبساط دم القلب وثورانه، ولهذا تظهر حمرة الوجه لسرعة ثوران الدم فيه، فينشأ عن ذلك السرور، والغضب تعجب يتبعه ضحك وتبسم، فلا يغتر المغتر بضحك القادر عليه في وجهه ولا سيما عند المعتبة؛ كما قيل:

إذا رأيت نيوب الليث بارزة فلا تظنَّن أن الليث مبتسم(٣)»(٤)

وعلى وزان التبسم البكاء فإنه جريان الدمع من العين فلا يدل على الصدق؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَاءُوا أَبَاهُم عِشَاءً يَبْكُونَ﴾ [يوسف: ١٦].

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٤١).

(٢) «زاد المعاد» (٣/ ٥٧٥).

(٣) قائله هو أبو الطيب المتنبي من قصيدة في معاتبة سيف الدولة الحمداني.

(٤) «زاد المعاد» (٣/ ٥٧٥ - ٥٧٦).

قال ابن العربي رحمه الله: «قال علماؤنا: هذا يدل على أن بكاء المرء لا يدل على صدق مقاله؛ لاحتمال أن يكون تصنعاً، ومن الخلق من يقدر على ذلك، ومنهم من لا يقدر، وقد قيل: إن الدمع المصنوع لا يخفى، كما قال الحكيم:

إذا اشتبكت دموع في خدود   تبين من بكى ممن تباكى

والأصح عندي: أن الأمر مشتبه، وأن من الخلق في الأكثر من يقدر من التطبع على ما يشبه الطبع»(١).

وقال البقاعي رحمه الله: «والآية دالة على أن البكاء لا يدل على الصدق لاحتمال التصنع»(٢).

وهذه الحال لم تخف على القضاة الأذكياء؛ فقد جاءت امرأة إلى شريح تخاصم في شيء؛ فجعلت تبكي، فقالوا: يا أبا أمية أما تراها تبكي؟ فقال: «قد جاء إخوة يوسف أباهم عشاء يبكون»(٣).

الفائدة الثانية والعشرون: «معاتبة الإمام والمطاع أصحابه، ومن يعز عليه، وَيكرُم عليه، فإنه عاتب الثلاثة دون سائر من تخلف عنه، وقد أكثر النَّاس من مدح عتاب الأحبة، واستلذاذه، والسرور به، فكيف بعتاب أحب الخلق على الإطلاق إلى المعتوب عليه، ولله ما كان أحلى ذلك العتاب، وما أعظم ثمرته، وأجل فائدته، ولله ما نال به الثلاثة من أنواع المسرات،

---

(١) «أحكام القرآن» (٣/ ١٠٧٥)، وعنه القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ١٤٥) دون عزو.

(٢) «نظم الدرر» (٤/ ١٧).

(٣) عزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٥١٢) لابن المنذر.

وحلاوة الرضى، وخلع القبول»[1].

إن هذا العتاب تربية وتزكية لتطهير النفوس من أدرانها، وتنقيتها من سخائمها، وتقويمها على الحق وبالحق؛ فهي عملية تنظيف، وهو يوجد تنظيف دون نوع خشونة ولذلك زجرهم بالهجر.

لذلك لا تصدنك أيها الموفق خشونة الربانيين في بعض الأحايين، لأنها تكفيك المؤونة؛ فهي مبرأة بإذن الله من كل طيش أو استعجال أو رعونة.

لا يوحشنك ذاك العتب إن له   لطفاً يريك الرضا في حالة الغضب

لأن الفقيه من نظر في العواقب، وتبصر في المقاصد؛ فهذه الخشونة تتمخض نعومة: قوامها الصبر، وروحها الطهر.

لعل عتبك محمود عواقبه   وربما صحت الأجسام بالعلل

الفائدة الثالثة والعشرون: التوفيق حليف الصدق وقرينه.

قال ابن قيم الجوزية: «توفيق الله لكعب وصاحبيه فيما جاؤوا به من الصدق، ولم يخذلهم حتى كذبوا واعتذروا بغير الحق، فصلحت عاجلتهم، وفسدت عاقبتهم كل الفساد، والصادقون تعبوا في العاجلة بعض التعب، فأعقبهم صلاح العاقبة، والفلاح كل الفلاح، وعلى هذا قامت الدنيا والآخرة، فمرارات المبادي حلاوات في العواقب وحلاوات المبادئ مرارات في العواقب»[1].

وقال رحمه الله: «عظم مقدار الصدق، وتعليق سعادة الدنيا والآخرة،

---

(١) «زاد المعاد» (٣/ ٥٧٦).

(٢) «زاد المعاد» (٣/ ٥٧٦).

والنجـاة مـن شـرهما بـه، فمـا أنجى الله من أنجاه إلا بالصدق، ولا أهلك مـن أهلكـه إلا بـالكذب، وقـد أمر الله سبحانه عباده المؤمنين أن يكونوا مع الصـادقين، فقـال: ﴿يَـا أَيُّهَـا الَّذِيـنَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّه وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

وقـد قسم سبحانه الخلق إلى قسمين: سعداء وأشقياء، فجعل السعداء هـم أهـل الصـدق والتصديـق، والأشقياء هم أهل الكذب والتكذيب، وهو تقسـيم حـاصر مطَّـرد منعكـس؛ فالسـعادة دائـرة مـع الصـدق والتصديـق، والشقاوة دائرة مع الكذب والتكذيب.

وأخـبر سـبحانه وتعـالى: أنـه لا ينفـع العبـاد يـوم القيامة إلا صدقهم، وجعـل علم المنافقين الذي تميزوا به هو الكذب في أقوالهم وأفعالهم، فجميع مـا نعـاه عليهـم أصلـه الكـذب في القـول والفعل، فالصدق بريد الإيمان، ودليله، ومركبه، وسائقه، وقائده، وحليته، ولباسه، بل هو لبه وروحه.

والكـذب: بريـد الكفـر والنفـاق، ودليلـه، ومركبـه، وسـائقه، وقـائده، وحليتـه، ولباسـه، ولبـه، فمضادة الكذب للإيمان كمضادة الشرك للتوحيد، فـلا يجتمـع الكـذب والإيمـان إلا ويطرد أحدهما صاحبه، ويستقر موضعه، والله سـبحانه أنجـى الثلاثة بصدقهم، وأهلك غيرهم من المخلفين بكذبهم، فمـا أنعـم الله علـى العبد بعد الإسلام بنعمة أفضل من الصدق الذي هو غـذاء الإسـلام وحياتـه، ولا ابتـلاه ببليـة أعظم من الكذب الذي هو مرض الإسلام وفساده، والله المستعان»(١).

وبهـذا يتبـين: أن التوفيـق حليـف الصادقين والخذلان قرين الكاذبين، ولذلـك ختـم الله تعـالى الآيات التي أنزلت في المخلفين الثلاثة بقوله: ﴿يَا

---

(١) «زاد المعاد» (٣/ ٥٩٠- ٥٩١).

أَيُّها الذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونوا مَعَ الصَّادِقِين﴾ [التوبة: ١١٩].

وقد بين ابن قيم الجوزية رحمه الله منزلة الصدق من الإيمان؛ فقال[1]: «وهي منزلة القوم الأعظم، الذي منه تنشأ جميع منازل السالكين، والطريق الأقوم الذي من لم يسر عليه من المنقطعين الهالكين، وبه تميز أهل النفاق من أهل الإيمان، وسكان الجنان من أهل النيران.

وهو سيف الله في أرضه الذي ما وضع على شيء إلا قطعه، ولا واجه باطلاً إلا أرداه وصرعه، من صال به لم ترد صولته، ومن نطق به علت على الخصوم كلمته.

فهو روح الأعمال، ومحك الأحوال، والحامل على اقتحام الأهوال، والباب الذي دخل منه الواصلون إلى حضرة ذي الجلال.

وهو أساس بناء الدين، وعمود فسطاط اليقين، ودرجته تالية لدرجة النبوة التي هي أرفع درجات العالمين، ومن مساكنهم في الجنات تجري العيون والأنهار إلى مساكن الصديقين، كما كان من قلوبهم إلى قلوبهم في هذه الدار مدد متصل ومعين.

وقد أمر الله سبحانه أهل الإيمان: أن يكونوا مع الصادقين، وخص المنعم عليهم بالنبيين والصديقين والشهداء والصالحين، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَع الصَّادِقِين﴾ [التوبة:١١٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَـئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنعَمَ اللَّهُ عَلَيهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَـئِكَ رَفِيقاً﴾ [النساء: ٦٩].

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٢٦٨- ٢٧٣).

ولا يزال الله يمدهم بأنعمه وألطافه ومزيده إحساناً منه وتوفيقاً، ولهم مرتبة المعية مع الله؛ فإن الله مع الصادقين، ولهم منزلة القرب منه، إذ درجتهم منه ثاني درجة النبيين.

وأخبر تعالى أن من صدقه فهو خير له، فقال: ﴿**فَإِذَا عَزَمَ الأَمرُ فَلَو صَدَقُوا اللهَ لَكَانَ خَيراً لَهم**﴾ [محمد: ٢١].

وأخبر تعالى عن أهل البر، وأثنى عليهم بأحسن أعمالهم: من الإيمان، والإسلام، والصدقة، والصبر؛ بأنهم أهل الصدق فقال: ﴿**وَلَـكِنَّ البِرَّ مَن آمَنَ بِاللَّهِ وَاليَومِ الآخِرِ وَالمَلائِكَةِ وَالكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى المَالَ عَلى حُبِّهِ ذَوِي القُربَى وَاليَتَامَى وَالمَسَاكِينَ وَابنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالمُوفُونَ بِعَهدِهِم إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي البَأسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ البَأسِ أُولَـئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَـئِكَ هُمُ المُتَّقُونَ**﴾ [البقرة: ١٧٧] وهذا صريح في أن الصدق بالأعمال الظاهرة والباطنة، وأن الصدق هو مقام الإسلام والإيمان.

وقسم الله سبحانه النَّاس إلى صادق، ومنافق؛ فقال: ﴿**لِيَجزِيَ اللهُ الصَّادِقِينَ بِصِدقِهِم وَيُعَذِّبَ المُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَو يَتُوبَ عَلَيهِم**﴾ [الأحزاب: ٢٤].

والإيمان أساسه الصدق، والنفاق أساسه الكذب؛ فلا يجتمع كذب وإيمان إلا وأحدهما محارب للآخر.

وأخبر سبحانه: أنه في يوم القيامةلا ينفع العبد وينجيه من عذابه إلا صدقه.

قال تعالى: ﴿**هَـذَا يَومُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدقُهُم لَهم جَنَّاتٌ تَجرِي مِن تَحتِهَا الأَنهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَّضِيَ اللَّهُ عَنهُم وَرَضُوا عَنهُ ذَلِكَ**

الفَوزُ العَظِيمُ﴾ [المائدة:١١٩]، وقال تعالى: **﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ المتَّقُونَ﴾** [الزمر: ٣٣]، فالذي جاء بالصدق هو: من شأنه الصدق في قوله، وعمله، وحاله، فالصدق في هذه الثلاثة.

فالصدق في الأقوال: استواء اللسان على الأقوال، كاستواء السنبلة على ساقها.

والصدق في الأعمال: استواء الأفعال على الأمر والمتابعة، كاستواء الرأس على الجسد.

والصدق في الأحوال: استواء أعمال القلب والجوارح على الإخلاص، واستفراغ الوسع، وبذل الطاقة.

فبذلك يكون العبد من الذين جاءوا بالصدق، وبحسب كمال هذه الأمور فيه وقيامها به؛ تكون صديقيته، ولذلك كان لأبي بكر الصديق رضي الله عنه وأرضاه، ذروة سنام الصديقية، سمي الصديق على الإطلاق، والصديق أبلغ من الصدوق، والصدوق أبلغ من الصادق.

فأعلى مراتب الصدق: مرتبة الصديقية، وهي كمال الانقياد للرسول ﷺ، مع كمال الإخلاص للمرسل.

وقد أمر الله تعالى رسوله أن يسأله أن يجعل مدخله ومخرجه على الصدق، فقال: **﴿وَقُل رَبِّ أَدخِلنِي مُدخَلَ صِدقٍ وَأَخرِجنِي مُخرَجَ صِدقٍ وَاجعَل لِي مِن لَدُنكَ سُلطاناً نَصِيراً﴾** [الإسراء:٨٠].

وأخبر عن خليله إبراهيم ﷺ أنه سأله أن يهب له لسان صدق في الآخرين فقال: **﴿وَاجعَل لِي لِسَانَ صِدقٍ فِي الآخِرِين﴾** [الشعراء:٨٤].

وبشر عباده بأن لهم عنده قدم صدق، ومقعد صدق، فقال تعالى:

﴿وَبَشِّرِ الذِينَ آمَنُوا أَنَّ لهم قَدَمَ صِدقٍ عِندَ رَبِّهِم﴾ [يونس:٢]، وقال: ﴿إِنَّ المتَقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ فِي مَقعَدِ صِدق عِندَ مَلِيكٍ مُقتَدِر﴾ [القمر: ٥٤، ٥٥] فهذه خمسة أشياء: مدخل الصدق، ومخرج الصدق، ولسان الصدق، وقدم الصدق، ومقعد الصدق.

وحقيقة الصدق في هذه الأشياء: هو الحق الثابت، المتصل بالله، الموصل إلى الله، وهو ما كان به وله، من الأقوال والأعمال، وجزاء ذلك في الدنيا والآخرة.

فمدخل الصدق، ومخرج الصدق: أن يكون دخوله وخروجه حقاً ثابتاً بالله وفي مرضاته، بالظفر بالبغية، وحصول المطلوب، ضد مخرج الكذب ومدخله الذي لا غاية له يوصل إليها، ولا له ساق ثابته يقوم عليها؛ كمخرج أعدائه يوم بدر، ومخرج الصدق كمخرجه ﷺ هو وأصحابه في تلك الغزوة.

وكذلك مدخله ﷺ المدينة: كان مدخل صدق بالله، ولله، وابتغاء مرضاة الله، فاتصل به التأييد، والظفر والنصر، وإدراك ما طلبه في الدنيا والآخرة، بخلاف مدخل الكذب الذي رام أعداؤه أن يدخلوا به المدينة يوم الأحزاب، فإنه لم يكن بالله، ولا لله، بل كان محادة لله ورسوله، فلم يتصل به إلا الخذلان والبوار.

وكذلك مدخل من دخل من اليهود المحاربين لرسول الله ﷺ حصن بني قريظة، فإنه لما كان مدخل كذب: أصابه معهم ما أصابهم.

فكل مدخل معهم ومخرج كان بالله، ولله، فصاحبه ضامن على الله، فهو مدخل صدق، ومخرج صدق.

وكان بعض السلف إذا خرج من داره: رفع رأسه إلى السماء، وقال:

اللهم إني أعوذ بك أن أخرج مخرجاً لا أكون فيه ضامناً عليك؛ يريد: أن لا يكون المخرج مخرج صدق.

ولذلك فسر مدخل الصدق ومخرجه: بخروجه ﷺ من مكة، ودخوله المدينة.

ولا ريب أن هذا على سبيل التمثيل، فإن هذا المدخل والمخرج من أجل مداخله ومخارجه ﷺ، وإلا فمداخله كلها مداخل صدق، ومخارجه مخارج صدق، إذ هي لله، وبالله، وبأمره، ولابتغاء مرضاته.

وما خرج أحد من بيته ودخل سوقه أو مدخلاً آخر إلا بصدق أو بكذب، فمخرج كل واحد ومدخله: لا يعدو الصدق والكذب، والله المستعان.

وأما لسان الصدق؛ فهو الثناء الحسن عليه ﷺ من سائر الأمم بالصدق، ليس ثناءً بالكذب؛ كما قال عن إبراهيم وذريته من الأنبياء والرسل عليهم صلوات الله وسلامه: ﴿وَجَعَلْنَا لهم لِسَانَ صِدقٍ عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٠].

والمراد باللسان ههنا: الثناء الحسن، فلما كان الصدق باللسان، وهو محله، أطلق الله سبحانه ألسنة العباد بالثناء على الصادق، جزاء وفاقاً، وعبر به عنه.

فإن اللسان يراد به ثلاثة معان: هذا، واللغة؛ كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرسَلنَا مِن رَسُولٍ إلا بِلِسَانِ قَومِهِ لِيُبَيِّنَ لَهم﴾ [إبراهيم: ٤] وقوله: ﴿واختِلاف أَلسِنَتِكُم وَأَلوَانِكُم﴾ [الروم: ٢٢] وقوله: ﴿لِسَانُ الَّذِي يُلحِدُونَ إِلَيهِ أَعجَمِي وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِين﴾ [النحل: ١٠٣]. ويراد به الجارحة

نفسها؛ كقوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ [القيامة: ١٦].

وأما قدم الصدق؛ ففسر بالجنة، وفسر بمحمد ﷺ، وفسر بالأعمال الصالحة.

وحقيقة «القدم» ما قدموه، وما يقدمون عليه يوم القيامة، وهم قدموا الأعمال والإيمان بمحمد ﷺ، ويقدمون على الجنة التي هي جزاء ذلك.

فمن فسره بها أراد: ما يقدمون عليه، ومن فسره بالأعمال وبالنبي ﷺ؛ فلأنهم قدموها، وقدموا الإيمان به بين أيديهم؛ فالثلاثة قدم صدق.

وأما مقعد الصدق؛ فهو الجنة عند الرب تبارك وتعالى.

ووصف ذلك كله بالصدق مستلزم ثبوته واستقراره، وأنه حق، ودوامه ونفعه، وكمال عائدته؛ فإنه متصل بالحق سبحانه، كائن به وله، فهو صدق غير كذب، وحق غير باطل، ودائم غير زائل، ونافع غير ضار، وما للباطل ومتعلقاته إليه سبيل ولا مدخل.

ومن علامات الصدق: طمأنينة القلب إليه، ومن علامات الكذب: حصول الريبة؛ كما في الترمذي مرفوعاً من حديث الحسن بن علي رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «**الصدق طمأنينة، والكذب ريبة**»[(١)].

وفي «الصحيحين» من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**إن الصدق يهدي إلى البرِّ وإن البرَّ يهدي إلى الجنة، وإن**

---

(١) صحيح - أخرجه الترمذي (٨١٥٢)، والنسائي (٨/ ٧٢٣)، وأحمد (١/ ٢٠٠) من طرق عن شعبة عن بريد بن أبي مريم عن أبي الحوراء السعدي قال: قلت للحسن بن علي: ما حفظت من رسول الله ﷺ فقال: (وذكره).

قلت: إسناده صحيح؛ ورجاله ثقات، وله شواهد عن أنس وعبدالله بن عمر رضي الله عنهم.

الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صدّيقاً، وإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذاباً» (١).

فجعل الصدق مفتاح الصديقية ومبدأها، وهي غايته؛ فلا ينال درجتها كاذب ألبتة، لا في قوله، ولا في عمله، ولا في حاله، ولا سيما كاذب على الله في أسمائه وصفاته، ونفي ما أثبته، أَو إثبات ما نفاه عن نفسه، فليس في هؤلاء صديق أبداً.

وكذلك الكذب عليه في دينه وشرعه؛ بتحليل ما حرمه، وتحريم ما لم يحرمه، وإسقاط ما أوجبه، وإيجاب ما لم يوجبه، وكراهة ما أحبه، واستحباب ما لم يحبه، كل ذلك مناف للصديقية.

وكذلك الكذب معه في الأعمال: بالتحلي بحلية الصادقين المخلصين، والزاهدين المتوكلين، وليس في الحقيقة منهم.

فلذلك كانت الصديقية: كمال الإخلاص والانقياد، والمتابعة للخبر والأمر، ظاهراً وباطناً، حتى إن صدق المتبايعين يحل البركة في بيعهما، وكذبهما يمحق بركة بيعهما؛ كما في «الصحيحين» عن حكيم بن حزام رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«البيعان بالخيار ما لم يتفرقا، فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما، وإن كذبا وكتما: محقت بركة بيعهما»**(٢) أ.هـ

وقال رحمه الله: «فإنّ الصادق مطلوبه رضى ربه، وتنفيذ أوامره، وتتبع

(١) أخرجه البخاري (٦٠٩٤)، ومسلم (٢٢٠٦).

(٢) أخرجه البخاري (٢٠٧٩)، ومسلم (١٥٣٢).

محابـه، فهـو متقلـب فيهـا يسـير معها حيث توجهت ركائبها، ويستقل معها أيـن اسـتقلت مضاربهـا؛ فبينا هو في صلاة إذ رأيته في ذكر، ثمّ في غزو، ثمّ في حـجّ، ثـم في إحسـان للخلق بالتعليم وغيره من أنواع النّفع، ثم في أمرٍ بمعـروف، أو نهي عن منكر، أو في قيامٍ بسبب فيه عمارة الدين والدنيا، ثم في عيـادة مريـض، أو تشـييع جنـازة، أو نصـر مظلـوم -إن أمكن- إلى غير ذلك من أنواع القُرَب والمنافع.

فهـو في تفـرق دائـمٍ لله، وجمعيةٌ على الله، لا يملكه رسم ولا عادة ولا وضع، ولا يتقيد بقيدٍ ولا إشارة»[(١)].

الفـائدة الرابعة والعشرون: جواز التمسك بمفهوم اللقب عند وجود قرينة.

قـال ابـن قيـم الجوزيـة رحمه الله: «وقول النبي ﷺ لكعب: «**أما هذا، فقـد صـدق**» دليل ظاهر في التمسك بمفهوم اللقب عند قيام قرينة تقتضي تخصيص المذكـور بـالحكم؛ كقولـه تعـالى: ﴿**وَدَاوُدَ وَسُـلَيمَانَ إِذ يَحكُمَانِ فِي الحَرثِ إِذ نَفَشَت فِيهِ غَنَمُ القَومِ وَكُنَّا لِحُكمِهِم شَاهِدِينَ. فَفَهَّمنَاهَا سُلَيمَانَ**﴾ [الأنبيـــاء: ٧٨ و٧٩]، وقولــه: ﷺ: «**جعلـت لي الأرض مسـجداً وتربتهـا طهوراً**»[(٢)] وقوله في هذا الحديث: «**أما هذا فقد صدق**».

وهذا مما لا يشك السامع أن المتكلم قصد تـخصيصه بالحكم»[(٣)].

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٢٧٥).

(٢) سبق تخريجه (ص ٢٣).

(٣) «زاد المعاد» (٣/ ٥٧٦- ٥٧٧).

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفائدة الخامسة والعشرون: رد المصائب بروح التأسي.

قال ابن قيم الجوزية رحمه الله: «وقول كعب: هل لقي هذا معي أحد؟ فقالوا: نعم، مرارة بن الربيع، وهلال بن أمية.

فيه: أن الرجل ينبغي له أن يرد حر المصيبة بروح التأسي بمن لقي مثل ما لقي.

وقد أرشد سبحانه إلى ذلك بقوله تعالى: ﴿**وَلا تَهِنُوا فِي ابتِغَاءِ القَومِ إِن تَكُونُوا تَألَمُونَ فَإِنَّهُم يَألَمُونَ كَمَا تَألَمُونَ وَتَرجُونَ مِنَ اللهِ مَا لا يَرجُون**﴾ [النساء: ١٠٤].

وهذا هو الروح الذي منعه الله سبحانه أهل النار فيها بقوله: ﴿**وَلَن يَنفَعَكُمُ اليَومَ إِذ ظَلَمتُم أَنَّكُم فِي العَذَابِ مُشتَرِكُون**﴾ [الزخرف: ٣٩](١)».

وقال أيضاً: «ولما كان المصاب إذا شاركه غيره في مصيبته، حصل له بالتأسي نوع تخفيف وتسلية، أخبر سبحانه أن هذا غير الموجود وغير حاصل في حق المشتركين في العذاب، وأن القرين لا يجد راحته ولا أدنى فرح بعذاب قرينه معه، وإن كانت المصائب في الدنيا إذا عمت صارت مسلاة؛ كما قالت الخنساء في أخيها صخر:

فلولا كثرة الباكين حولي ... على إخوانهم لقتلت نفسي
وما يبكون مثل أخي ولكن ... أعزي النفس عنه بالتأسي
ألا يا صخر لا أنساك حتى ... أفارق عيشتي وورود رمسي(٢)

(١) «زاد المعاد» (٣/ ٥٧٧).

(٢) الأبيات في «ديوان الخنساء» (ص٨٥).

فمنع الله سبحانه هذا القدر من الراحة على أهل النار؛ فقال: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ اليَوْمَ إِذ ظَلَمتُم أَنَّكُم فِي العَذَابِ مُشتَرِكُونَ﴾ [الزخرف: ٣٩]»[١].

ومما ينبغي الوقوف عليه في هذا المقام:

١- أن ما تقدم هو في المصائب التي تكون في المال والأهل والولد وغيرها من متاع الدنيا أما التي تحلق الدين فلا يتأسى بالبطالين ورفقاء السوء إلا الجهلة الثكلة؛ لأن هذا لا ينفع يوم الحسرة.

قال ابن قيم الجوزية: «فرفقاء المتخلف البطالون أكثر من أن يحصوا، فله أسوة بهم، ولن ينفعه هذا التأسي يوم الحسرة شيئاً، كما قال تعالى: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ اليَوْمَ إِذ ظَلَمتُم أَنَّكُم فِي العَذَابِ مُشتَرِكُونَ﴾ [الزخرف: ٣٩]؛ فقطع الله سبحانه انتفاعهم بتأسي بعضهم بعضاً في العذاب.

فهذا الروح الحاصل من التأسي معدوم بين المشتركين في العذاب يوم القيامة»[٢].

فإن مصائب الدنيا إذا عمّت صارت مسلاةً، وتأسى بعض المصابين ببعض؛ كما قالت الخنساء:

فلولا كثرة الباكين حولي ... على إخوانهم لقتلت نفسي
وما يبكون مثل أخي ولكن ... أسلي النفس عنهم بالتأسي

وردّ المصائب بروح التأسي معلوم في أمثال العامة؛ فهم يقولون عند نزول المصائب: من رأى مصائب الناس هانت مصيبته عنده.

٢- أن المؤمن لو رد المصيبة بالتأسي ولكن مقامه فوق ذلك؛ لأنه

---

(١) «الدّاء والدّواء» (ص ١٤٧ - ١٤٨).

(٢) «الرّسالة التبوكية» (ص ١٩٠ - ١٩١ بتحقيقي).

متميز عن الناس بعقيدته ومنهجه وتطلعه فهو يرجو من الله ما لا يرجو من ليس بمسلم، وهذا ما نبه عليه رب العزة تبارك وتعالى بقوله: ﴿وَلاَ تَهِنُوا فِي ابتِغَاءِ القَومِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُم يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمونَ وَتَرجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ يَرجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤].

ولذلك؛ فالمؤمن هو الأعلى دائماً لعلو منهجه وتطلعاته المتعلقة بالملأ الأعلى، وهذا ما قرره الحق سبحانه في قوله: ﴿وَلاَ تَهِنُوا وَلا تَحزَنُوا وَأَنتُمُ الأعلَونَ إِن كُنتُم مُّؤمِنِينَ. إِن يَمسَسكُم قَرحٌ فَقَد مَسَّ القَومَ قَرحٌ مِّثلُهُ وَتِلكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَينَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٣٩، ١٤٠].

وهذا من تمام نعمة الله على عبده الصابر المحتسب حيث برد اليقين وطمأنينة الإيمان وخشوع القلب والجوارح.

اللهم لا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين.

الفائدة السادسة والعشرون: وجوب هجران أهل البدع والفسوق ومنابذي السنة.

وهذا ظاهر في نهي رسول الله ﷺ عن كلامهم، واستجابة المجتمع المسلم لذلك لم يتخلف أحد عن ذلك حتى أقاربهم مما يدل على الوجوب لا الاستحباب.

قال ابن قيم الجوزية رحمه الله: «وفيه دليل على هجران الإمام والعالم والمطاع لمن فعل ما يستوجب العتب، ويكون هجرانه دواء له بحيث لا يضعف عن حصول الشفاء به، ولا يزيد في الكمية والكيفية عليه فيهلكه، إذ المراد تأديبه لا إتلافه»(١).

---

(١) «زاد المعاد» (٣/ ٥٧٨).

وقال الخطابي: «فيه من العلم: أن تحريم الهجرة بين المسلمين أكثر من ثلاث إنما هو فيما يكون سبباً من قبل عتب وموجدة، أو لتقصير يقع في حقوق العشرة ونحوها دون ما كان من ذلك في حق الدين، فإن هجرة أهل الأهواء والبدعة دائمة على مر الأوقات والأزمان، ما لم تظهر منهم التوبة والرجوع إلى الحق.

وكان رسول الله ﷺ خاف على كعب وأصحابه النفاق حين تخلفوا عن الخروج معه في غزوة تبوك؛ فأمر بهجرانهم، وأمرهم بالقعود في بيوتهم نحو خمسين يوماً على ما جاء في الحديث، إلى أن أنزل الله سبحانه توبته وتوبة أصحابه، فعرف رسول الله ﷺ براءتهم من النفاق»(١).

وقال النووي رحمه الله: «استحباب هجران أهل البدع والمعاصي الظاهرة، وترك السلام عليهم، ومقاطعتهم تحقيراً لهم وزجراً»(٢).

إن هجر أهل البدع والمعاصي الظاهرة صورة مشرقة من حياة السلف الصالح الأول تذكر المسلم بالأسباب الوقائية من جذام أهل البدع وسيل أهل الأهواء العرم، وتحصين القاعدة الإسلامية من شوائب الآراء المضلة.

إن الزجر بالهجر باب من الفقه الأكبر كبير، ولهذا تراه شاخصاً في كتب اعتقاد السلف الصالح أهل الحديث؛ لأنه ينضوي تحت سلطان الأصل العقدي العظيم «الولاء والبراء» الذي مداره على الحب والبغض في الله ولله، والذي هو رحى العبودية وقطب التوحيد.

ولذا ينبغي زجر أهل البدع بالهجر، وهجرهم بالحجر استصلاحاً لحالهم؛ ليضعفوا عن نشر بدعهم، فيأرزوا إلى جحورهم؛ فتكون كلمة

---

(١) «معالم السنن» (٧/ ٥).

(٢) «شرح صحيح مسلم» (١٧/ ١٠٠).

الوحي كتاباً وسنة هي العليا في حياة المسلمين.

وهكذا تبرز معالم التميز العقدي الذي يقي من المد البدعي، ويقمع استشراف أهل الأهواء المضلة للاستشراء بين الأمة، ويعصم عدة المستقبل من شباب اليقظة الإسلامية من الفتن التي صرعتهم في أحضان الأدعياء، وجعلتهم يتهافتون كالفراش على موائد دعاة الضلالة الذين يدعون إلى النار حتى كثرت الأخلاط؛ فسرى في أوصال المجتمع المسلم أمراض التميع العقدي والسلوكي تحت شعارات براقة وشارات مضللة فانفرط العقد وسقطت واسطته في الشَّرَك بلا ثمن؛ فثار في العلوم الشرعية الدخن، وظهرت في النفوس الإحن على السنن، فكان ولا بد من التحصن بالنأي عن قوم لا يستطيع السُّنّي أن يوفي الدين حقه بين ظهرانيهم، ولذلك شرع الزجر بالهجر، ولكن للهجر المشروع أحكاماً وضوابط بسطتها في رسالتي «مطلع الفجر في أحكام الزجر بالهجر» ودونك إياها:

١- الأصل في الهجر المنع بين المسلمين، ولذلك حرم الإسلام البغضاء والحسد والتدابر، وحض على التواد والتعاطف والتراحم، وما شرع من الهجران فهو للحاجة؛ لأنه قد يكون في بعض الأحايين لا بد منه للمعالجة لبعض الأدواء في النفوس، والحاجة تقدر بقدرها، وقدرها ثلاثة أيام، وعلى ذلك جملة من الأحاديث النبوية الصحيحة:

أ- عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تباغضوا، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال**»[1].

ب- عن أبي أيوب الأنصاري: أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يحل**

(١) أخرجه البخاري (٦٠٧٦)، ومسلم (٢٥٥٩).

لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال؛ يلتقيان فيعرض هذا، ويعرض هذا، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام»[١].

ت- عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «**لا هجرة بعد ثلاث**»[٢].

وفي رواية: «**فمن هجر أخاه فوق ثلاث فمات دخل النار**»[٣].

ث- عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يحل للمؤمن أن يهجر أخاه فوق ثلاث أيام**»[٤].

ج- عن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يكون لمسلم أن يهجر مسلماً فوق ثلاثة؛ فإذا لقيه سلم عليه ثلاث مرار كل ذلك لا يرد عليه؛ فقد باء بإثمه**»[٥].

ح- عن عبد الله بن مسعود قال: ألا إن محمداً ﷺ قال: «**إن قتال المسلم كفر، وسبابه فسوق، ألا لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق الثلاث**»[٦].

لقد دلت هذه الأحاديث بمنطوقها على عدم حل هجرة المسلم لأخيه المسلم فوق ثلاث ليال، وبمفهومها على إباحتها في الثلاث.

قال النووي: «قال العلماء: في هذا الحديث تحريم الهجر بين المسلمين أكثر من ثلاث ليال، وإباحتها في الثلاث الأول بنص الحديث،

(١) أخرجه البخاري (٦٠٧٧)، ومسلم (٢٥٦٠).
(٢) أخرجه مسلم (٢٥٦٢).
(٣) صحيح- أخرجه أبو داود (٤٩١٤)، وأحمد (٢/ ٣٩٢ و٤٥٦) بإسناد صحيح.
(٤) أخرجه مسلم (٢٥٦١).
(٥) حسن -أخرجه أبو داود (٤٩١٣) وغيره بإسناد حسن.
(٦) صحيح أخرجه الطيالسي (٣٠٦) بإسناد صحيح.

والثاني بمفهومه.

قالوا: وإنما عفى عنها في الثلاث؛ لأن الآدمي مجبول على الغضب وسوء الخلق ونحو ذلك، فعفي عن الهجرة في الثلاثة؛ ليذهب ذلك العارض»[(١)].

ويستثنى من ذلك هجر من له سلطة مادية أو معنوية إن دعت حاجة شرعية لذلك، وكذلك تأديب من يظهر المنكرات حتى يتوب منها، ودعاة البدع والأهواء يجوز هجرهم على التأبيد.

وهذه استثناءات تشهد لها السنة الصحيحة، وتطبيق السلف لذلك.

والنوع الأول يكون ممن له سلطة مادية كالزوج، فقد حصل هذا من النبي ﷺ حيث هجر بعض نسائه شهراً.

عن عكرمة بن عبد الرحمن بن الحارث: أن أم سلمة أخبرته: أن النبي ﷺ حلف أن لا يدخل على بعض أهله شهراً، فلما مضى تسعة وعشرين يوماً غدا عليهن -أو راح- فقيل له: يا نبي الله حلفت أن لا تدخل عليهن شهراً، قال: «**الشهر يكون تسعة وعشرين يوماً**»[(٢)].

ويكون من الإمام والمطاع؛ كما في قصة كعب بن مالك.

قال ابن عبد البر رحمه الله: «وهذا الحديث وإن كان ظاهره العموم، فهو عندي مخصوص بحديث كعب بن مالك، حيث أمر رسول الله ﷺ أصحابه أن يهجروه، ولا يكلموه هو وهلال بن أمية ومرارة بن ربيعة؛ لتخلفهم عن غزوة تبوك حتى أنزل الله توبتهم وعذرهم، فأمر رسول الله

---

(١) «شرح صحيح مسلم» (١٦/ ١١٧).

(٢) أخرجه البخاري (٥٢٠٢).

ﷺ أصحابه أن يراجعوهم الكلام.

وفي حديث كعب هذا دليل على أنه جائز أن يهجر المرء أخاه إذا بدت له منه بدعة أو فاحشة يرجو أن يكون هجرانه تأديباً له، وزجراً عنها»[١].

ويكون من الأب؛ كما فعل عبد الله بن عمر رضي الله عنهما مع بعض أبنائه.

عن مجاهد عن عبد الله بن عمر: أن النبي ﷺ قال: «**لا يمنعن رجل أهله أن يأتوا المساجد**»، فقال ابن لعبدالله بن عمر: فإنا نمنعهن. فقال عبدالله: أحدثك عن رسول الله ﷺ وتقول هذا، قال: فما كلمه عبد الله حتى مات[٢].

وأما من له سلطة معنوية؛ فكما هجرت عائشة رضي الله عنها ابن اختها عبد الله بن الزبير[٣].

وأما هجر دعاة البدعة؛ فقد دلت السنة الفعلية على مشروعيته، وورد عن كثير من السلف ومن بعدهم هجران أهل البدع ومنابذي السنة، فقد أمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه بهجر صبيغ بن عسل الذي كان يسأل عن مشكلات القُرآن[٤].

(١) «التمهيد» (٦/ ١١٧- ١١٨).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٣٦) بإسناد صحيح.

(٣) أخرجه البخاري (٦٠٧٣ و٦٠٧٤ و٦٠٧٥).

(٤) لهذه القصة طرق كثيرة ذكرها الدارمي (١/ ٥٥ - ٥٦)، وابن وضاح في «البدع والنهي عنها» (ص٥٦، ٥٧)، والآجري في«الشريعة» (ص٧٣)، واللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (١١٣٦، ١١٣٩، ١١٤٠).

قلت: وهي لا تخلو من مقال، لكن يشد بعضها بعضاً. =

عن عبد الله بن مغفل أنه رأى رجلاً يخذف؛ فقال له: لا تخذف؛ فإن رسول الله ﷺ نهى عن الخذف -أوكان يكره الخذف- وقال: «**إنه لا يصاد به صيد، ولا ينكأ به عدو، ولكنها قد تكسر السن، وتفقأ العين**»، ثم رآه بعد ذلك يخذف؛ فقال له: أحدثك عن رسول الله ﷺ: أنه نهى عن الخذف -أو كره الخذف- وأنت تَخذف؟ لا أكلمك كذا وكذا[(١)].

قال النووي رحمه الله: «فيه هجران أهل البدع والفسوق ومنابذي السنة مع العلم، وأنه يجوز هجرانه دائماً، والنهي عن الهجران فوق ثلاثة أيام إنما هو فيمن هجر لحظ نفسه، ومعايش الدنيا، وأما أهل البدع ونحوهم فهجرانهم دائماً، وهذا الحديث مما يؤيده مع نظائر له كحديث كعب بن مالك وغيره»[(٢)].

وهذا موقف السلف بعامة؛ كما قال شيخ الإسلام: «الهجر على وجه التأديب، وهو هجر من يظهر المنكرات، يهجر حتى يتوب منها، كما هجر النبي ﷺ والمسلمون: الثلاثة الذين خلفوا، حتى أنزل الله توبتهم، حين ظهر منهم ترك الجهاد المتعين عليهم بغير عذر، ولم يهجر من أظهر الخير وإن كان منافقاً، فهنا الهجر هو بمنزلة التعزير.

والتعزير يكون لمن ظهر منه ترك الواجبات وفعل المحرمات، كتارك

=وقد أوعب الحافظ ابن حجر رحمه الله في «الإصابة» (٢/ ١٩٨ - ١٩٩) فذكرها بعدة ألفاظ، وصحح بعض أسانيدها.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله في «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٢٤٨): «فإن قصة صبيغ بن عسل مشهورة مع عمر رضي الله عنه، وإنما ضربه لأنه ظهر له من أمره فيما يسأل تعنتاً وعناداً، والله أعلم».

(١) أخرجه البخاري (٥٤٧٩)، ومسلم (١٩٥٤) (٥٦).

(٢) «شرح صحيح مسلم» (١٣/ ١٠٦).

الصلاة والزكاة، والتظاهر بالمظالم والفواحش، والداعي إلى البدع المخالفة للكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة التي ظهر أنها بدع وهذه حقيقة قول من قال من السلف والأئمة: أن الدعاة إلى البدع لا تقبل شهادتهم، ولا يصلى خلفهم، ولا يؤخذ عنهم العلم، ولا يناكحون، فهذه عقوبة حتى ينتهوا، ولهذا يفرقون بين الداعية وغير الداعية، لأن الداعية أظهر المنكرات، فاستحق العقوبة، بخلاف الكاتم، فإنه ليس شراً من المنافقين الذين كان النبي ﷺ يقبل علانيتهم، ويكل سرائرهم إلى الله، مع علمه بحال كثير منهم»[(١)].

قال البغوي رحمه الله: «قد أخبر النبي ﷺ عن افتراق هذه الأمة، وظهور الأهواء والبدع فيهم، وحكم بالنجاة لمن اتبع سنته وسنة أصحابه رضي الله عنهم، فعلى المرء المسلم إذا رأى رجلا يتعاطى شيئاً من الأهواء والبدع معتقداً، أو يتهاون بشيء من السنن أن يهجره، ويتبرأ منه، ويتركه حياً وميتاً، فلا يسلم عليه إذا لقيه، ولا يجيبه إذا ابتدأ إلى أن يترك بدعته، ويراجع الحق.

والنهي عن الهجران فوق الثلاث فيما يقع بين الرجلين من التقصير في حقوق الصحبة والعشرة دون ما كان ذلك في حق الدين، فإن هجرة أهل الأهواء والبدع دائمة إلى أن يتوبوا.

قال كعب بن مالك في قصة تَخلفه وتَخلف صاحبيه: مرارة بن الربيع، وهلال بن أمية عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك على ما (وساقه بإسناده).

وفيه دليل على هجران أهل البدع على التأبيد، وكان رسول الله ﷺ خاف على كعب وأصحابه النفاق حين تخلفوا عن الخروج معه؛ فأمر

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٢٠٤- ٢٠٥).

بهجرانهم إلى أن أنزل الله توبتهم، وعرف رسول الله ﷺ براءتهم، وقد مضت الصَّحَابَة والتابعون وأتباعهم وعلماء السنة على هذا مجمعين متفقين على معاداة أهل البدعة ومهاجرتهم»[(١)].

وإجماع السلف من الصَّحَابَة ومن تبعهم من علماء الملة وفقهاء الأمة على هجران أهل البدع نقله أيضاً الخلال وأبو يعلى وابن عبد البر والغزالي وغيرهم.

وبهذا يتضح: أن النهي عن الهجر فوق الثلاث محمول على من لم يكن هجرانه شرعياً[(٢)].

٢- أن يكون هجراً شرعياً:

ينبغي أن يكون الزجر بالهجر لأهل البدع ديانة؛ لأنه من باب العقوبات الشرعية بل هو من جنس الجهاد في سبيل الله، وهو دال على منزلة الإسلام والسنة في قلوب أتباعه.

فالهجر من الأعمال التي أمر الله بها ورسوله، ولا يكون مشروعاً إلا لحق الله لا لهوى النفس وحظوظها؛ فالطاعة لا بدّ أن تكون خالصة لله وموافقة لأمره، فتكون خالصة صواباً، ولذلك فالهجر لحق النفس ينقض الإخلاص، والهجر على خلاف الأمر ينقض المتابعة.

وهجر أهل البدع المشروع على نوعين:

الأول: هجر التعزير: وهو من العقوبات الشرعية التي يوقعها المسلم على أهل الأهواء على وجه التأديب حتى يتوب المبتدع ويفيء إلى أمر الله.

---

(١) «شرح السنة» (١/ ٢٢٤ - ٢٢٧).

(٢) «فتح الباري» (٨/ ١٢٤).

قـال تعـالى: ﴿وَقَـد نَـزَّلَ عَلَيكُم فِي الكِتَابِ أَن إِذَا سَمِعتُم آيَاتِ اللَّهِ يُكَفَرُ بِهَـا وَيُستَهزَأُ بِهَـا فَـلاَ تَقعُـدُوا مَعَهُم حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيرِهِ إِنَّكُـم إِذاً مِّثلُهُـم إِنَّ اللَّـهَ جَـامِعُ المُنَـافِقِينَ وَالكَـافِرِينَ فِـي جَهَنَّمَ جَمِيعاً﴾ [النساء: ١٤٠].

وقـال: ﴿وَإِذَا رَأَيـتَ الَّذِيـنَ يَخُوضُـونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعرِض عَنهُم حَتَّى يَخُوضُـوا فِـي حَدِيثٍ غَيرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيطَانُ فَلاَ تَقعُد بَعدَ الذِّكرَى مَعَ القَومِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨].

ولمـا كـان المقصـود بـالهجر زجـر المبتـدع وتأديبـه ورجوعـه إلى جماعـة المسـلمين فـإن الشـرع يـزن الأمـور بمـيزان عـدل فلا إفراط ولا تفريط على قاعدة رعاية المصالح وتكثيرها، ودرء المفاسد وتقليلها.

قـال شـيخ الإسلام: «وهذا الهجر يختلف باختلاف الهاجرين في قوتهم وضعفهـم، وقلتهـم وكـثرتهم؛ فـإن المقصـود بـه زجر المهجور وتأديبه ورجوع العامـة عـن مثـل حاله، فإن كانت المصلحة في ذلك راجحة بحيث يفضي هجـره إلى ضعـف الشـر وخفيته كان مشروعاً، وإن كان لا المهجور ولا غيره يرتـدع بذلـك بـل يزيـد الشـر، والهاجر ضعيف، بحيث يكون مفسدة ذلك راجحة على مصلحتهم لم يشرع الهجر.

بـل يكـون التـأليف لبعـض النـاس أنفـع مـن الهجـر، والهجر لبعض النـاس أنفـع من التأليف؛ ولهذا كان النبي ﷺ يتألف قوماً ويهجر آخرين؛ كمـا أن الثلاثـة الذيـن خلفـوا كـانوا خيراً من أكثر المؤلفة قلوبهم، لما كان أولئـك كانوا سادة مطاعون في عشائرهم، فكانت المصلحة الدينية في تأليف قلوبهـم، وهـؤلاء كانوا مؤمنين، والمؤمنون سواهم كثير؛ فكان في هجرهم عز الديـن وتطهـيرهم مـن ذنوبهم، وهذا كما أن المشروع في العدو القتال تارة،

والمهادنة تارة، وأخذ الجزية تارة، كل ذلك بحسب الأحوال والمصالح.

وجواب الأئمة كأحمد وغيره في هذا الباب مبني على هذا الأصل.

ولهذا كان يفرق بين الأماكن التي كثرت فيها البدع؛ كما كثر القدر في البصرة، والتنجيم بخراسان، والتشيع بالكوفة، وبين ما ليس كذلك، ويفرق بين الأئمة المطاعين وغيرهم، وإذا عرف مقصود الشريعة سلك في حصوله أوصل الطريق إليه»[1].

وقال رحمه الله: «وعقوبة الظالم وتعزيره مشروط بالقدرة؛ فلهذا اختلف حكم الشرع في نوعي الهجرتين: بين القادر والعاجز، وبين قلة نوع الظالم المبتدع وكثرته وقوته وضعفه، كما يختلف الحكم بذلك في سائر أنواع الظلم من الكفر والفسوق والعصيان، فإن كل ما حرمه الله فهو ظلم؛ إما في حق الله فقط، وإما في حق عباده، وإما فيهما.

وما أمر به من هجر الترك والانتهاء وهجر العقوبة والتعزير إنما هو إذا لم يكن فيه مصلحة دينية راجحة على فعله، وإلا فإذا كان في السيئة حسنة راجحة لم تكن سيئة، وإذا كان في العقوبة مفسدة راجحة على الجريمة لم تكن حسنة؛ بل تكون سيئة؛ وإن كانت مكافئة لم تكن حسنة ولا سيئة.

فالهجران قد يكون مقصوده ترك سيئة البدعة التي هي ظلم وذنب وإثم وفساد، وقد يكون مقصوده فعل حسنة الجهاد والنهي عن المنكر وعقوبة الظالمين لينزجروا ويرتدعوا، وليقوى الإيمان والعمل الصالح عند أهله، فإن عقوبة الظالم تمنع النفوس عن ظلمه، وتحضها على فعل ضد ظلمه: من الايمان والسنة ونحو ذلك.

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٢٠٦- ٢٠٧).

فإذا لم يكن في هجرانه انزجار أحد ولا انتهاء أحد بل بطلان كثير من الحسنات المأمور بها لم تكن هجرة مأموراً بها، كما ذكره أحمد عن أهل خراسان إذ ذاك: إنهم لم يكونوا يقوون بالجهمية، فإذا عجزوا عن إظهار العداوة لهم سقط الأمر بفعل هذه الحسنة، وكان مداراتهم فيه دفع الضرر عن المؤمن الضعيف، ولعله أن يكون فيه تأليف الفاجر القوي.

وكذلك لما كثر القدر في أهل البصرة، فلو ترك رواية الحديث عنهم لاندرس العلم والسنن والآثار المحفوظة فيهم، فإذا تعذر إقامة الواجبات من العلم والجهاد وغير ذلك إلا بمن فيه بدعة مضرتها دون مضرة ترك ذلك الواجب: كان تحصيل مصلحة الواجب مع مفسدة مرجوحة معه خيراً من العكس.

ولهذا كان الكلام في هذه المسائل فيه تفصيل.

وكثير من أجوبة الإمام أحمد، وغيره من الأئمة، خرج على سؤال سائل قد علم المسئول حاله، أو خرج خطاباً لمعين قد علم حاله، فيكون بمنزلة قضايا الأعيان الصادرة عن الرسول ﷺ، إنما يثبت حكمها في نظيرها.

فإن أقواماً جعلوا ذلك عاماً، فاستعملوا من الهجر والإنكار ما لم يؤمروا به، فلا يجب ولا يستحب، وربما تركوا به واجبات أو مستحبات وفعلوا به محرمات.

وآخرون أعرضوا عن ذلك بالكلية، فلم يهجروا ما أمروا بهجره من السيئات البدعية؛ بل تركوها ترك المعرض لا ترك المنتهي الكاره، أو وقعوا فيها أو قد يتركونها ترك المنتهي الكاره ولا ينهون عنها غيرهم، ولا يعاقبون بالهجرة ونحوها من يستحق العقوبة عليها، فيكونون قَد ضيعوا من النهي

عن المنكر ما أمروا به إيجاباً أو استحباباً، فهم بين فعل المنكر أو ترك النهي عنه، وذلك فعل ما نهوا عنه وترك ما أمروا به. فهذا هذا، ودين الله وسط بين الغالي فيه والجافي عنه، والله سبحانه أعلم»[١].

قال الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد: «فإذا كانت الغلبة والظهور لأهل السنة كانت مشروعية هجر المبتدع قائمة على أصلها، وإن كانت القوة والكثرة للمبتدعة -ولا حول ولا قوة إلا بالله- فلا المبتدع ولا غيره يرتدع بالهجر ولا يحصل المقصود الشرعي لم يشرع الهجر وكان مسلك التأليف خشية زيادة الشر... ومن أهم المهمات هنا: إذا كانت الواجبات لدى أهل السنة مثل: التعليم، والجهاد، والطب، والهندسة، ونحوها تتعذر إقامتها إلا بواسطتهم؛ فإنه يعمل على تحصيل مصلحة الجهاد ومصلحة التعليم وهكذا مع الحذر من بدعته، وإتقاء الفتنة به وبها ما أمكن، وبقدر الضرورة، فإذا زالت عاد أهل السنة إلى الأصل في الهجر، وأبعد المبتدع»[٢].

الثاني: الهجر الوقائي المانع.

قال ابن عبد البر رحمه الله: «ولا هجرة إلا لمن ترجو تأديبه أوتخاف من شره في بدعة أو غيرها»[٣].

وقال «وأجمع العلماء على أنه لا يجوز للمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث إلا أن يكون يخاف من مكالمته وصلته ما يفسد عليه دينه أو يولد به على نفسه مضرة في دينه أو دنياه، فإن كان كذلك فقد رخص له في مجانبته وبعده»[٤].

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٢١١- ٢١٣).

(٢) «هجر المبتدع» (ص٤٥- ٤٦).

(٣) «التمهيد» (٦/ ١١٩).

(٤) المصدر نفسه (٦/ ١٢٧).

ومدار هذا النوع على قوله ﷺ: **«من سمع بالدجال؛ فلينأ عنه، فوالله إن الرجل ليأتيه وهو يحسب أنه مؤمن، فيتبعه مما يبعث به من الشبهات، أو لما يبعث به من الشبهات»**[(١)].

وعلته أن القلوب ضعيفة والشبه خطافة، ولذلك وظف السلف هذا النوع في حياتهم العملية ضد البدعة ودعاتها لكيلا يظفر مبتدع بنيل مناه في إلقاء شبهاته وإظهار دعوته وحفاظاً على عدة المستقبل وأمل الغد من ناشئة المسلمين حتى لا يصرعوا في محاضن الأدعياء دعاة البدع وأئمة الضلالة الذين يتكلمون بكلام ظاهره كنقد الذهب وباطنه أحرق للقلوب من اللهب.

ومفردات هذا النوع:

١- عدم مجالستهم.

٢- عدم الدخول عليهم ومخالطتهم.

٣- عدم مشاورتهم.

٤- عدم الاستماع والإصغاء إليهم.

٥- عدم مجادلتهم ومناظرتهم.

٦- عدم أخذ العلم عنهم.

وأقوال السلف في بيان ذلك طافحة بها كتب السنة[(٢)]، ولذلك جعله الإمام أحمد أصلاً من أصول السنة؛ فقال: «وترك الخصومات

---

(١) صحيح - أخرجه أبو داود (٩١٣٤)، أحمد (٤/ ١١٣٤) والحاكم (٤/ ١٣٥) وغيرهم من حديث عمران بن حصين رضي الله عنهما بإسناد صحيح.

(٢) وبخاصة «الإبانة» لابن بطة، و«الشريعة» للآجري، و«شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» للالكائي وغيرها.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

والجلوس مع أهل الأهواء»[(١)].

وقال ابن بطة رحمه الله معلقاً على حديث عمران بن حصين المتقدم: «هذا قول الرسول ﷺ، فالله يا معشر المسلمين لا يحملن أحداً منكم حسن ظنه بنفسه وما عهد من معرفته بصحة مذهبه على المخاطرة بدينه في مجالسة بعض أهل هذه الأهواء فيقول: أداخله لأناظره، أو لاستخرج منه مذهبه، فإنهم أشد فتنة من الدجال، وكلامهم ألصق من الجرب، وأحرق للقلوب من اللهب.

ولقد رأيت جماعة من الناس كانوا يلعنونهم، ويسبونهم في مجالسهم على سبيل الإنكار والرد عليهم فما زالت بهم المباسطة، وخفي المكر، ودقيق الكفر حتى صبوا إليهم»[(٢)].

قلت: وهذا النوع ينبغي إعماله في كل وقت وعدم إهماله؛ لئلا يصبو إليهم من لم تتمكن السنة من سويداء قلبه لصغره أو لجهله، والوقاية مقدمة على العلاج كما لا يخفى.

٣- الهجر لا يكون لمجرد ارتكاب فعل مختلف في حكمه بين الأئمة الأعلام، أو لتعثر في زلة لا يخلو منها إمام، أو هفوة لا يسلم منها كل واحد من الأنام، ولذلك ينبغي التفريق بين من أخطأ بعد تحري الحق وبذل الجهد ومن تتجارى بهم الأهواء كما يتجارى الكَلَب بصاحبه فلا يدع عرقاً ولا مفصلاً إلا داخله، فالأول مجتهد أخطأ، والآخر بدعي متسرع ما أبطأ.

والاجتهاد الخطأ ليس كالابتداع أصلاً ووصفاً ونتيجة:

أما الأصل؛ فإن الشرع قد دل على أن الهوى هو المتبع في البدع، فهو

---

(١) «أصول السنة» رواية عبدوس بن مالك العطار (ص٣٠).

(٢) «الإبانة» (٣/ ٤٧٠).

مقصودهم، ودليل الشرع تبع في حقهم، فإذا خالف دليل الشرع أهواءهم تأولوه، فإن استعصى عليهم ردّوه، ويتبعون شبهة وافقت أغراضهم، ويبتغون فتنة نالت إعجابهم.

قال مولانا الحق: ﴿هُوَ الذي أَنزَلَ عَلَيكَ الكِتَابَ مِنهُ آيَاتٌ مُّحكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الذينَ في قُلُوبِهِم زَيغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنهُ ابتِغَاءَ الفِتنَةِ وَابتِغَاءَ تَأوِيلِه﴾ الآية [آل عمران: ٧].

فأثبت الله جل جلاله الزيغ أولاً، ثم اتباع المتشابهة منه، وهو خلاف المحكم الواضح المعنى الذي هو أم الكتاب ومعظمه، على هذا القليل، فتركوا المعظم المحكم إلى القليل المتشابه، الذي لا يعطي مفهوماً واضحاً؛ إلا برده إلى المحكم.

فانظر رحمك الله كيف اتبعوا أهواءهم أولاً في مطالبة الشرع بشهادة الله.

وقال جل جلاله: ﴿إنَّ الذِينَ فرَّقوا دِينَهُم وَكَانوا شِيَعاً﴾ [الأنعام: ١٥٩].

ألم تر كيف نسب التفريق إليهم، ولو كان التفريق في مقتضى الدليل لم ينسبه إليهم، ولا أتى به في معرض الذم، وليس ذلك إلا اتباع الهوى.

وإنما يأتي التفريق بعد وضوح الصراط المستقيم اتباعا لبُنَيَّاتِ الطريق.

قال جل ثناؤه: ﴿وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُستَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُم عَن سَبِيلِهِ ذلِكُم وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُم تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وأما المجتهد الراسخ؛ فلا يبتدع بداءة، وإن وقع منه فإنما يقع فلتة،

وبالعرض لا بالذات؛ لأنه لم يقصد اتباع المتشابه؛ أي: لم يتبع هواه، ولا جعله عمدة، وعلامة ذلك أنه إذا ظهر له الحق أذعن له، وأناخ بفهمه في رحابه مقراً به.

ولذلك؛ فالابتداع يقع ممن لم يتمكن من علمه، حيث لم يصح بمسبار العلم أنه من المجتهدين، فهو الحري باستنباط ما خالف الشرع، فإذا اجتمع له مع ذلك الجهل بمقاصد الشرع الهوى الباعث عليه في الأصل، فكيف إذا انضاف إليه شبهاً ظنها شرعية على صحة ما ذهب إليه؟! فيتمكن الهوى من قلبه تمكناً لا يمكن في العادة الانفكاك عنه، فيجري منه مجرى الكَلَبِ من صاحبه؛ كما جاء في حديث الفرق(١).

والكَلَب داء عضال، لا يرجى شفاؤه، وكذلك البدع.

وهو أيضاً خبيث معد، وكذلك البدع، وعلى هذا يحمل قول رسول الله ﷺ: «**إن الله احتجز التوبة عن صاحب كل بدعة**»(٢).

أي أن البدع تتجارى بأهلها، فتحول بينهم وبين التوبة على الغالب، والله غالب على أمره، لكن أكثر الناس لا يعلمون.

وأما الوصف، فإن من اتبع هواه كان ضالاً.

قال تعالى: **﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾** [القصص: ٥٠].

وقال تعالى: **﴿ولا تَتَّبِعِ الهَوى فَيُضِلَّكَ عَن سَبيلِ الله﴾** [ص: ٢٦].

وأما المجتهد الذي يتحرى مواقع الحق، ولكنه يزل عنها أحياناً،

---

(١) انظره مخرجاً في كتابي: «نصح الأمة في فهم أحاديث افتراق الأمة».

(٢) حسن؛ كما في «الصحيحة» (١٦٢٠).

فيسمى ما صدر عنه خطأ أو غلطة أو زلة.

وأما النتيجة؛ فإن كل مبتدع مذموم آثم.

قال ﷺ: «**كل بدعة ضلالة**»[1].

وبيـان مصـير الضلالة، وأنها في النار؛ تعلم أن معناها الأثم لا الخطأ، حيث حمل بعضهم لفظ: (ضلالة) على الخطأ؛ لأن ذلك من معانيه.

بينما كل مجتهد مأجور.

قـال ﷺ: «**إذا حكم الحاكم، ثم أصاب؛ فله أجران، وإذا اجتهد، ثم أخطأ؛ فله أجر**»[2].

وبهـذه الإشـارات يتبـين الفـرق الشاسـع بـين المبتدع والمجتهد الذي أخطـأ، وقد أدغمت في ثناياها علماً جماً، يدركه من شم رائحة العلم بأدنى تـأمل، وأمـا من اتبع هواه فبينه وبين ذلك حجاباً مستوراً، وحجراً محجوراً؛ لأنه يرى ظلام الباطل نوراً، واعتقاد الحق ثبوراً.

الفـائدة السـابعة والعشرون: رد السلام على من يستحق الهجر غير واجب.

قـال ابـن قيم الجوزية: «وقوله: «آتي رسول الله ﷺ فأسلم عليه، وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول: هل حرك شفتيه برد السلام علي أم لا ؟

---

(١) أخرجه مسلم (٨٦٧).

وزاد النسـائي (٣/ ١٨٨- ١٨٩)، والبيهقـي في «الأسـماء والصفـات» (١٣٧) بإسناد صحيح: «وكل ضلالة في النار».

(٢) أخرجـه البخـاري (٧٣٥٢)، ومسـلم (١٧١٦) من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه، وله شاهد من حديث أبي هريرة رضي الله عنهما عندهما.

فيه دليل على أن الرد على من يستحق الهجر غير واجب، إذ لو وجب الرد لم يكن بد من إسماعه»[(١)].

الفائدة الثامنة والعشرون: دخول الإنسان دار صاحبه دون استئذان.

قال ابن قيم الجوزية: «وقوله: «حتى إذا طال ذلك علي، تسورت جدار حائط أبي قتادة».

فيه دليل على دخول الإنسان دار صاحبه وجاره إذا علم رضاه بذلك وإن لم يستأذنه»[(٢)].

ويدخل هذا المعنى تحت قوله تعالى: ﴿**لَّيسَ على الأعمَى حَرَجٌ وَلاَ على الأعرَجِ حَرَجٌ وَلاَ على المَرِيضِ حَرَجٌ وَلاَ على أَنفُسِكُم أَن تَأكُلُوا مِن بُيُوتِكُم أو بُيُوتِ ابَائِكُم أو بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُم أو بُيُوتِ إِخوَانِكُم أو بُيُوتِ أَخَوَاتِكُم أو بُيُوتِ أَعمَامِكُم أو بُيُوتِ عَمَّاتِكُم أو بُيُوتِ أَخوَالِكُم أو بُيُوتِ خَالاَتِكُم أو مَا مَلَكتُم مَّفَاتِحهُ أو صَدِيقِكُم لَيسَ عَلَيكُم جُنَاحٌ أَن تَأكُلُوا جَمِيعاً أو أَشتَاتاً فَإِذَا دَخَلتُم بُيُوتاً فَسَلِّمُوا على أَنفُسِكُم تَحِيَّةً مِّن عِندِ اللهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم تعقِلُونَ**﴾ [النور: ٦١].

والشاهد قوله: ﴿**أو صديقكم**﴾، وهو: بمعنى الجمع.

قال ابن كثير رحمه الله: «أي بيوت أصدقائكم وأصحابكم فلا جناح عليكم في الأكل منها إذا علمتم أن ذلك لا يشق عليهم، ولا يكرهون ذلك.

وقال قتادة: إذا دخلت بيت صديقك فلا بأس أن تأكل بغير إذنه»[(٣)].

---

(١) «زاد المعاد» (٣/ ٥٨٠).

(٢) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(٣) «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٣١٦- ٣١٧).

وقال القرطبي رحمه الله: «قيل إن هذا منسوخ، وقيل: هي محكمة؛ وهو أصح.

ذكر محمد بن ثور عن معمر قال: دخلت بيت قتادة؛ فأبصرت فيه رطباً فجعلت آكله، فقال: ما هذا؟ فقلت: أبصرت رطباً في بيتك فأكلت، قال: «أحسنت، قال الله تعالى: ﴿أو صديقكم﴾».

وذكر عبد الرزاق عن معمر عن قتادة في قوله: ﴿أو صديقكم﴾ قال: «إذا دخلت بيت صديقك من غير مؤامرته لم يكن بذٰلك بأس».

وقال معمر: قلت لقتادة: ألا أشرب من هذا الحُبِّ [(١)]؛ قال: أنت لي صديق فما هذا الاستئذان؟

وكان ﷺ يدخل حائط أبي طلحة المسمى ببيرحاء يشرب من ماء فيها طيب بغير إذنه على ما قاله علماؤنا.

قالوا: والماء متملك لأهله، وإذا جاز الشرب من ماء الصديق بغير إذنه جاز الأكل من ثماره وطعامه إذا علم أن نفس صاحبه تطيب به؛ لتفاهته ويسير مؤنته، أو لما بينهما من المودة.

ومن هذا المعنى إطعام أم حرام له ﷺ إذا نام عندها؛ لأن الأغلب أن ما في البيت من الطعام هُوَ للرجل، وأن يد زوجته في ذٰلك عارية.

وهذا كله ما لم يتخذ الأكل خُبْنَة [(٢)]، ولم يقصد بذٰلك وقاية ماله، وكان تافهاً يسيراً »[(٣)].

(١) الجرة الضخمة التي يجعل فيها الماء.

(٢) لا يأخذ منه في طرف ثوبه.

(٣) «الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٣١٦).

ويدل عليه أيضاً أحاديث من السنة الصحيحة؛ كحديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: كنا قعوداً حول رسول الله ﷺ معنا أبو بكر وعمر في نفر، فقام رسول الله ﷺ من بين أظهرنا، فأبطأ علينا، وخشينا أن يقتطع دوننا، وفزعنا، فقمنا؛ فكنت أول من فزع، فخرجت أبتغي رسول الله ﷺ حتى أتيت حائطاً للأنصار لبني النجار، فدرت به هل أجد له باباً، فلم أجد، فإذا ربيع يدخل في جوف حائط من بئر خارجة -والربيع: الجدول- فاحتفزت كما يحتفز الثعلب[1]، فدخلت على رسول الله ﷺ...» الحديث[2]

قال النووي رحمه الله: «وفيه جواز دخول الإنسان ملك غيره بغير إذنه إذا علم أنه يرضى لمودة بينهما أو غير ذٰلك؛ فإن أبا هريرة رضي الله عنه دخل الحائط وأقره النبي ﷺ على ذٰلك، ولم ينقل أنه أنكر عليه.

وهذا غير مختص بدخول الأرض بل يجوز الانتفاع بأدواته، وأكل طعامه، والحمل من طعامه إلى بيته، وركوب دابته ونحو ذٰلك من التصرف الذي يعلم أنه لا يشق على صاحبه.

هذا هُوَ المذهب الصحيح الذي عليه جماهير السلف والخلف من العلماء رحمهم الله، وصرح به أصحابنا.

قال أبو عمر بن عبد البر: وأجمعوا على أنه لا يتجاوز الطعام وأشباهه إلى الدراهم والدنانير وأشباههما.

وفي ثبوت الإجماع في حق من يقتطع بطيب قلب صاحبه بذٰلك نظر، ولعل هذا يكون في الدراهم الكثيرة التي يشك أو قد يشك في رضاه بها، فإنهم اتفقوا على أنه إذا تشكك لا يجوز التصرف مطلقا فيما تشكك في

---

(١) تضامت وتصاغرت ؛ ليسعني مدخل الجدول.

(٢) أخرجه مسلم (١٣).

رضاه به.

ثم دليل الجواز في الباب الكتاب والسنة وفعل وقول أعيان الأمة.

فالكتاب قوله تعالى: ﴿لَّيسَ على الأعمَى حَرَجٌ وَلا على الأعرَجِ حَرَجٌ وَلا على المرِيضِ حَرَجٌ وَلاَ على أَنفُسِكُم أَن تَأكُلُوا مِن بُيُوتِكُم أَو بُيُوتِ ابَائِكُم﴾ إلى قوله: ﴿أَو صَدِيْقِكُم﴾ [النّور: ٦١].

والسنة هذا الحديث، وأحاديث كثيرة معروفة بنحوه.

وأفعال السلف وأقوالهم في هذا أكثر من تحصى، والله تعالى أعلم»[١].

الفائدة التاسعة والعشرون: مدار الأقوال والأفعال على العلم والقصد.

قال ابن القيم الجوزية رحمه الله: «وفي قول أبي قتادة له الله ورسوله أعلم، دليل على أن هذا ليس بخطاب ولا كلام له، فلو حلف لا يكلمه، فقال مثل هذا الكلام جواباً له لم يحنث، ولا سيما إذا لم ينو به مكالمته، وهو الظاهر من حال أبي قتادة.

وفي إشارة الناس إلى النبطي الذي كان يقول: من يدل على كعب ابن مالك دون نطقهم له تحقيق لمقصود الهجر، وإلا فلو قالوا له صريحاً: ذاك كعب بن مالك، لم يكن ذٰلك كلاماً له، فلا يكونون به مخالفين للنهي، ولكن لفرط تحريهم وتمسكهم بالأمر، لم يذكروه له بصريح اسمه.

وقد يقال: إن في الحديث عنه بحضرته وهو يسمع نوع مكالمة له، ولا سيما إذا جعل ذٰلك ذريعة إلى المقصود بكلامه، وهي ذريعة قريبة، فالمنع

---

(١) «شرح صحيح مسلم» (١/ ٢٣٩- ٢٤٠).

من ذٰلك من باب منع الحيل وسد الذرائع، وهذا أفقه وأحسن»[(١)].

الفائدة الثلاثون: الابتلاء يمحص الإيمان والمؤمنين.

قال ابن قيم الجوزية: «وفي مكاتبة ملك غسان له بالمصير إليه ابتلاء من الله تعالى، وامتحان لإيمانه ومحبته لله ورسوله، وإظهار للصحابة أنه ليس ممن ضعف إيمانه بهجر النبي ﷺ والمسلمين له، ولا هُوَ ممن تحمله الرغبة في الجاه والملك مع هجران الرسول والمؤمنين له على مفارقة دينه، فهذا فيه من تبرئة الله له من النفاق، وإظهار قوة إيمانه، وصدقه لرسوله وللمسلمين ما هو من تمام الله نعمة الله عليه، ولطفه به، وجبره لكسره.

وهذا البلاء يُظهر لُبَّ الرجل وسره، وما ينطوي عليه؛ فهو كالكير يخرج الخبيث من الطيب»[(٢)].

وقد فقه سلفنا الصالح مسألة الابتلاء؛ فكان دافعاً للثبات، وطاقة عطاء لا تنفد، وقوة عزم لا تنقطع، ودونك معالم فقه الابتلاء عند سلفنا الصالح.

١- الابتلاء ضرورة إيمانية.

قال تعالى: ﴿**أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُم لا يُفتَنُون**﴾ [العنكبوت: ٢].

لا بدّ أن يمتحن الله أهل الإيمان ويبتليهم حتى يميز الصادق من الكاذب، ولذٰلك اقتضت حكمة الله تعالى البالغة أن نصب الابتلاء سبباً مفضياً إلى تمييز الخبيث من الطيب، والشقي من الغوي، ومن يصلح مما لا يصلح: ﴿**ما كان اللهُ لِيَذَرَ المؤمنينَ على مَا أَنتُم عَلَيهِ حَتَّى يَمِيزَ الخَبِيثَ**

---

(١) «زاد المعاد»، (٣/ ٥٨٠- ٥٨١).

(٢) «زاد المعاد» (٣/ ٥٨١).

نَ الطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

ويخلص الصادق من الوهن البشري الذي لا تسلم منه نفس بشرية؛ فتسمو همته فوق الألم فيدرك أنه جسر إلى المعالي فلن يدرك المرء المجد حتى يلعق الصبر.

ويبتلى المرء على قدر دينه كلما اشتد إيمانه عظم ابتلاؤه حتى يخلص من شرور نفسه وسيئات أعماله، ويظهر طيب نفسه بكير الامتحان؛ كالذهب الذي لا يخلص ولا يصفو من غشه إلا بكبر النيران، ولذٰلك قال ﷺ: «**أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل: يبتلى الرجل على حسب دينه؛ فإن كان في دينه صلباً اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتلى حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض ما عليه من خطيئة**»(١).

ولذٰلك فالمؤمن ينظر إلى الابتلاء أنه نعمة ورحمة من الله على عباده يتعهدهم بالابتلاء المرة بعد المرة؛ لينقيهم، ويطهرهم، ويذهب عنهم رجز الشيطان، ويربط على قلوبهم، ويثبت به الأقدام.

وكذٰلك ينظر إليه أنه دليل رضى ومحبة من الله لعباده، فإن الله إذا أحب عبداً ابتلاه، وكلما صلب إيمان المرء وقوي يقينه اشتد بلاؤه فمن رضي فله الرضى، والعكس بالعكس.

٢- الابتلاء سنة من سنن الله الجارية في الأمم الخالية.

---

(١) صحيح - أخرجه الترمذي (٢٣٩٨)، وابن ماجه (٤٠٢٣)، وأحمد (١/ ١٧٢، ١٧٤، ١٨٠، ١٨٥) وغيرهم من طريقين عن سعد بن أبي وقاص به مرفوعاً.

قلت: إسناده صحيح.

وله شاهد صحيح من حديث أبي سعيد الخدري.

قال تعالى: ﴿وَلَقد فَتَنَّا الذينَ مِن قَبلِهِم فَلَيَعلَمَنَّ اللهُ الذينَ صَدَقُوا وَلَيَعلَمَنَّ الكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٣].

٣- الابتلاء مقدمة التمكين.

لما كان الابتلاء ضرورة إيمانية؛ فإن المؤمن يحصل له الألم ابتداء ثم تكون له العاقبة في الدنيا والآخرة، وسئل الشافعي رحمه الله: أيهما أفضل للرجل أن يُمَكَّنَ أو يبتلى؟ فقال: لا يُمَكَّنُ حتى يبتلى.

وقد ابتلى الله المؤمنين فلما صبروا مكَّنهم في الأرض، واستخلفهم ﴿وَجَعَلنَا مِنهُم أَئِمَّةً يهدُونَ بأمرنا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤]، فلا يظن عاقل أن أحداً يخلص من الألم ألبتة، وإنما يتفاوت أهل الآلام في العقول فأوسطهم من باع ألماً مستمراً عظيماً بألم منقطع يسير ثم تعقبه لذة في الدنيا والآخرة.

وكما أن الابتلاء سنة جارية كذٰلك التمكين والاستخلاف؛ كما قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللهُ الذينَ امَنُوا مِنكُم وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَستَخلِفَنَّهُم فِي الأرضِ كَمَا استَخلَفَ الذينَ مِن قَبلِهِم وَلَيُمَكِّنَنَّ لهم دِينَهُمُ الذي ارتَضَى لهم وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعدِ خَوفِهِم أَمناً يَعبُدُونَنِي لاَ يُشرِكُونَ بِي شَيئاً وَمَن كَفَرَ بَعدَ ذلِكَ فَأُولَـئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

٤-عدم استعجال التمكين واستدعاء البلاء؛ فالمؤمن يتأنى في الأمور، وينظر في عواقبها؛ لأن الفقيه من نظر في العواقب، ولم تستفزه البداءات، ولذٰلك فهو لا يستعجل التمكين وإن جاشت عاطفته، وغلت حماسته؛ لأنه يعلم أنه لا بد من الابتلاء ابتداء وهو لا يتمنى الابتلاء ولا يستدعيه؛ لأن في طياته فتنة مجهولة العواقب لا يدري الإنسان أيثبت أم ينكص على عقبيه؟ عياذاً بالله.

ويدل على ذلك الأدعية المأثورة عن رسول الله ﷺ التي يسأل الله فيها العفو والعافية والمعافاة من البلاء والابتلاء.

وكذلك الأحاديث التي فيها النهي عن تمني لقاء العدو، أو المرض، أو غير ذلك من البلاء.

عن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه**».

قالوا: وكيف يذل نفسه؟

قال: «**يتعرض من البلاء ما لا يطيق**»[1].

وما تقدم من فقه هذه المسألة مداره على حديث خباب بن الأرت

---

(١) حسن لغيره - أخرجه الترمذي (٢٢٥٤)، وابن ماجه (٤٠١٦)، وأحمد(٥/ ٤٠٥)، والبغوي في «شرح السنة» (٣٦٠١)، وأبو الشيخ في «الأمثال» (١٥١)، والقضاعي في «الشهاب» (٨٦٦) بإسناد ضعيف؛ لأن علي بن زيد بن جدعان ضعيف، والحسن البصري مدلس وقد عنعنه.

وله شاهد من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٣٥٠٧)، و«الأوسط» (٤٤٠٣- مجمع البحرين)، والبزار (٣٣٢٣- كشف الأستار)، وأبو الشيخ في «الأمثال» (١٥٣) من طريق زكريا بن يحيى الضرير عن شبابة بن سوار - ثم وقع اضطراب في «السند»؛ فعند الطبراني في «الكبير» عن ورقاء بن عمر عن ابن أبي نجيح، وفي «الأوسط» عبد الكريم بدل ابن أبي نجيح، وعند البزار عن العلاء بن عبد الكريم - عن مجاهد عن ابن عمر.

ومع ذلك جَوّده الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٢٧٤- ٢٧٥)، والعراقي في «المغني عن حمل الأسفار» (١/ ٤٦)، والزبيدي في «إتحاف السادة المتقين» (١/ ٤٦٩).

قلت: فالحديث حسن لغيره، والله أعلم.

وله شواهد أخر ذكرها الزبيدي في «إتحاف السادة المتقين»؛ فلتنظر.

رضي الله عنه قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ -وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة- قلنا له: ألا تستنصر لنا، ألا تدعو الله لنا؟ قال: «**كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له في الأرض؛ فيجعل فيه؛ فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيشق بإثنتين وما يصده ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب، وما يصده ذلك عن دينه.**

والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله أو الذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون»[(١)].

وبيان ذلك:

أ- إخباره عن ابتلاء مؤمني الأمم الماضية يشير إلى أن الابتلاء ضرورة إيمانية، وأنه سنة جارية في المؤمنين على مر العصور.

ب- إخباره بانتشار الدين وانتصاره يدل على أن الابتلاء مقدمة التمكين، وأن المؤمن لا يُمَكَّن حتى يبتلى.

ت- قوله: «**ولكنكم تستعجلون**» تحذير من استعجال التمكين قبل النضوج واستدعاء البلاء. والله أعلم.

الفائدة الحادية والثلاثون: زمن العبادات ينبغي فيه تجنب النساء.

قال ابن قيم الجوزية رحمه الله: «في أمر رسول الله ﷺ لهؤلاء الثلاثة أن يعتزلوا نساءهم لما مضى لهم أربعون ليلة؛ كالبشارة بمقدمات الفرج والفتح من وجهين:

أحدهما: كلامه لهم، وإرساله إليهم بعد أن كان لا يكلمهم بنفسه ولا برسوله.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦١٢).

الثاني: من خصوصية أمرهم باعتزال النساء، وفيه تنبيه وإرشاد لهم إلى الجد والاجتهاد في العبادة، وشد المئزر، واعتزال محل اللهو واللذة، والتعوض عنه بالإقبال على العبادة، وفي هذا إيذان بقرب الفرج، وأنه قد بقي من العتب أمر يسير.

وفقه هذه القصة: أن زمن العبادات ينبغي فيه تجنب النساء، كزمن الإحرام، وزمن الاعتكاف، وزمن الصيام، فأراد النبي ﷺ أن يكون آخر هذه المدة في حق هؤلاء بمنزلة أيام الإحرام والصيام في توفرها على العبادة، ولم يأمرهم بذٰلك من أول المدة رحمة بهم، وشفقة عليهم، إذ لعلهم يضعف صبرهم عن نساءهم في جميعها، فكان من اللطف بهم والرحمة أن أمروا بذٰلك في آخر المدة؛ كما يؤمر به الحاج من حين يحرم، لا من حين يعزم على الحج»[١].

الفائدة الثانية والثلاثون: ألفاظ الكنايات مدارها على قصد القائل.

قال ابن قيم الجوزية: «وقول كعب لامرأته: «إلحقي بأهلك»، دليل على أنه لم يقطع بهذه اللفظة وأمثالها طلاق ما لم ينوه.

والصحيح: أن لفظ الطلاق، والعتاق، والحرية كذٰلك إذا أراد به غير تسييب الزوجة، وإخراج الرقيق عن ملكه، لا يقع به طلاق ولا عتاق، هذا هو الصواب الذي ندين الله به، ولا نرتاب فيه ألبتة.

فإذا قيل له: إن غلامك فاجر أو جاريتك تزني، فقال: ليس كذٰلك، بل هو غلام عفيف حر، وجارية عفيفة حرة، ولم يرد بذٰلك حرية العتق، وإنما أراد حرية العفة؛ فإن جاريته وعبده لا يعتقان بهذا أبداً.

وكذا إذا قيل له: كم لغلامك عندك سنة؟ فقال: هو عتيق عندي،

---

(١) «زاد المعاد»؛ (٣/ ٥٨٣).

وأراد قدم ملكه له، لم يعتق بذلك.

وكذلك إذا ضرب امرأته الطَّلْقُ، فسئل عنها، فقال: هي طالق، ولم يخطر بقلبه إيقاع الطلاق، وإنما أراد أنها في طلق الولادة، لم تطلق بهذا.

وليست هذه الألفاظ مع هذه القرائن صريحة إلا فيما أريد بها، ودل السياق عليها، فدعوى أنها صريحة في العتاق والطلاق مع هذه القرائن مكابرة، ودعوى باطلة قطعاً»(١).

الفائدة الثالثة والثلاثون: تنافس المسلمين في مسرة بعضهم بعضاً، وتسابقهم في الخير.

قال ابن قيم الجوزية: «وفي استباق صاحب الفرس والراقي على سلع ليبشرا كعباً دليل على حرص القوم على الخير، واستباقهم إليه، وتنافسهم في مسرة بعضهم بعضاً»(٢).

وكذلك قيام طلحة بن عبيد الله؛ ليهنئ كعباً عندما أقبل، وإقبال الناس عليه فوجاً فوجاً يهنئونه بالتوبة معيار على حب القوم الخير لأنفسهم وإخوانهم.

ويدل على ذلك كله قول الرسول ﷺ: **«لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه [من الخير]»**(٣).

قال شيخنا حفظه الله: «واعلم أن هذه الزيادة: «من الخير» زيادة هامة تحدد المعنى المراد من الحديث بدقة، إذ أن كلمة: «الخير» كلمة

(١) «زاد المعاد»؛ (٣/ ٥٨٣- ٥٨٤).

(٢) «زاد المعاد»؛ (٣/ ٥٨٥).

(٣) متفق عليه من حديث أنس رضي الله عنه، والزيادة للنسائي، وأحمد، وأبي عوانة، وأبي يعلى؛ كما في «الصحيحة» (٣٧).

جامعة تعم الطاعات والمباحات الدنيوية والآخروية وتَخرج المنهيات؛ لأن اسم الخير لا يتناولها كما هو واضح فمن كمال خلق المسلم أن يحب لأخيه المسلم من الخير مثلما يحب لنفسه، وكذلك أن يبغض لأخيه ما يبغض لنفسه من الشر، وهذا وإن لم يذكره في الحديث؛ فهو من مضمومه؛ لأن حب الشيء مستلزم لبغض نقيضه، فترك التنصيص عليه اكتفاء؛ كما قال الكرماني، ونقله الحافظ في «فتح الباري» وأقره»(١).

وقد أمر النبي ﷺ بهذا الخلق الكريم؛ فقال: «**أحب للناس ما تحب لنفسك**»(٢).

وجعله من علامات الإيمان ودرجات الإحسان؛ فقال ﷺ: «**وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مؤمناً**»(٣).

الفائدة الرابعة والثلاثون: مشروعية سجود الشكر.

قال ابن قيم الجوزية رحمه الله: «وفي سجود كعب حين سمع صوت المبشر دليل ظاهر أن تلك كانت عادة الصحابة، وهي سجود الشكر عند النعم المتجددة، والنقم المندفعة.

وقد سجد أبو بكر الصديق لما جاءه قتل مسيلمة الكذاب(٤).

---

(١) «الصحيحة» (١/ ١٥٥- ١٥٦).

(٢) «الصحيحة» (٧٢).

(٣) حسن؛ كما بينته في «إيقاظ الهمم المنتقى من جامع العلوم والحكم» (ص١٤٧- ١٤٨).

(٤) ضعيف - أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (١٢/ ٢٩٥)، والبيهقي (٢/ ٣٧١) من طريق محمد بن عبيد الله أبي عون عن رجل أن أبا بكر (وذكره).

قلت: إسناده ضعيف؛ لأن فيه رجلاً لم يسم، وباقي رجاله ثقات.

وسجد علي بن أبي طالب لما وجد ذا الثدية مقتولاً في الخوارج(١).

وسجد رسول الله ﷺ حين بشره جبريل أنه من صلى عليه مرة صلى الله عليه بها عشراً(٢).

---

(١) **حسن إن شاء الله**- أخرجه أحمد (١/ ١٠٧- ١٠٨ و١٤٧) بإسناد ضعيف؛ لأن طارق بن زياد مجهول.

وتابعه مالك بن الحارث عند ابن أبي شيبة (١٢/ ٢٩٥)، والبيهقي (٢/ ٣٧١) وعبد الرزاق (٣/ ٣٥٨).

ومالك بن الحارث مجهول.

وتابعه زياد بن صبرة الحنفي عند ابن أبي شيبة (١٢/ ٣٩٧).

وهذه الطرق تدل على أن له أصلاً ثابتاً، والله أعلم.

(٢) **حسن لغيره** - أخرجه أحمد (١/ ١٩١)، والحاكم (١/ ٥٥٠)، والبيهقي (٢/ ٣٧١)، وابن أبي الدنيا في «الشكر» (١٣٨)، والضياء في «المختارة» (٩٢٦)، والمروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (٢٣٧)، وابن أبي عاصم في «فضل الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم» (٤٧)، وعبد بن حميد في «المنتخب» (١٧٧) وغيرهم.

من طريق عمرو بن أبي عمر عن عاصم بن عمر بن قتادة عن عبد الواحد بن محمد بن عبد الرحمن بن عوف به.

قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢/ ٧٨٢): «رجاله ثقات».

قلت: إسناده ضعيف؛ لأن محمد بن عبد الواحد مجهول ولم يوثقه غير ابن حبان، وقد اختلف فيه على عمرو بن أبي عمر.

وله طريق آخر أخرجه أحمد (١/ ١٩١)، والبيهقي (٢/ ٣٧٠)، وأبو يعلى (٨٦٩).

من طريق يزيد بن الهاد عن عمرو بن أبي عمرو عن عبد الرحمن بن الحويرث عن محمد بن جبر عن عبد الرحمن بن عوف به.

قلت: إسناده ضعيف؛ فيه عبد الرحمن بن الحويرث صدوق سيّئ الحفظ، لكنه يعتبر به في الشواهد.

وله طريق آخر عن أبي سندر الأسلمي عن مولى لعبد الرحمن بن عوف وذكره. =

وسجد حين شفع لأمته؛ فشفعه الله فيهم ثلاث مرات[(١)].

وأتاه بشير؛ فبشره بظفر جند له على عدوهم ورأسه في حجر عائشة؛ فقام فَخَرَّ ساجداً.

وقال أبو بكرة: «كان رسول الله ﷺ إذا أتاه أمر يسره خَرَّ لله ساجداً»[(٢)].

وهي آثار صحيحة لا مطعن فيها[(٣)]»[(٤)].

= أخرجه أبو يعلى (٨٤٧)، وابن أبي عاصم في «فضل الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم» (٥٧)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٥٥٥).

قلت: فيه مجهولان.

وله طريق آخر عند أبي يعلى (٨٥٨) ضعيف؛ لضعف مولى بن عبيد وشيخه قيس بن عيد الرحمن بن أبي صعصعة.

وبالجملة؛ فالحديث بمجموع ذلك لا ينحط عن درجه الحسن، والله أعلم.

(١) **ضعيف** - أخرجه أبو داود (٢٧٧٥)، وعنه البيهقي (٢/ ٣٧٠) من طريق يحيى بن الحسن عن الأشعث بن إسحاق عن عامر بن سعد عن أبيه مرفوعاً.

قلت: إسناده ضعيف؛ لأن يحيى بن الحسن وشيخه مجهولان.

(٢) **حسن لغيره** - أخرجه أبو داود (٢٧٧٤)، والترمذي (١٥٥٨)، وابن ماجه (١٣٩٤)، والدارقطني (١/ ٤١٠ و ٤/ ١٤٨)، والحاكم (١/ ٢٧٦)، والبيهقي (٢/ ٣٧٠) وغيرهم.

من طريق أبي عاصم عن بكار بن عبدالعزيز بن أبي بكرة عن أبيه عن أبي بكرة (وذكره).

قلت: إسناده ضعيف؛ لأن بكاراً ليِّن.

(٣) هذا الاطلاق ليس صحيحاً بهذا الإطلاق؛ كما تبين منتخريج هذه الآثار والأحاديث، ولكن لا شك أن مجموع ذلك يدل على مشروعية سجود الشكر؛ فلله الحمد والشكر.

(٤) «زاد المعاد» (٣/ ٥٨٤).

وقال الشوكاني: «والحديث يدل على مشروعية سجود الشكر»(١).

قال البغوي: «سجود الشكر سنة عند حدوث نعمة طالما كان ينتظرها، أو اندفاع بلية ينتظر انكشافها، أو رؤية مبتلى بعلة أو معصية، ويخفي سجوده عن المعلول حتى لا يحمله ذٰلك على الكفران، ويظهر للعاصي لعله يتوب»(٢).

الفائدة الخامسة والثلاثون: البذل عند البشائر من مكارم الأخلاق وعادة الكرام.

قال ابن قيم الجوزية: «وفي نزع كعب ثوبه وإعطائهما للبشير، دليل على أن إعطاء المبشرين من مكارم الأخلاق والشيم، وعادة الأشراف، وقد أعتق العباس غلامه لما بشره أن عند الحجاج بن علاط من الخبر عن رَسُول الله ﷺ ما يسره.

وفيه دليل على جواز إعطاء البشير جميع ثيابه»(٣)

وترجم عليه البخاري في كتاب الجهاد من «صحيحه»: باب ما يعطى البشير، وأعطى كعب بن مالك ثوبين حين بشر بالتوبة(٤)

قال القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً﴾ [يوسف: ٩٦]: ؛وقال الحسن: لما ورد البشير على يعقوب لم يجد عنده شيئا يثيبه به، فقال: والله ما أصبت عندنا شيئاً، وما خبزنا منذ سبع ليال، ولكن هوَّن الله عليك سكرات الموت.

(١) «نيل الأوطار» (٣/ ٣١٠).

(٢) «شرح السنة» (٣/ ٣١٦).

(٣) «زاد المعاد» (٣/ ٥٨٥).

(٤) «فتح الباري» (٦/ ١٨٩).

قلـت (أي القرطبي): وهذا الدعاء أعظم ما يكون من الجوائز، وأفضل العطايا والذخائر، ودلت هذه الآية على جواز البذل والهبات عند البشائر.

وفي البـاب حديـث كعب بن مالك الطويل وفيه: «فلما جاءني الذي سـمعت صوتـه يبشـرني نزعت ثوبي فكسوتهما إياه ببشارته»، وكسوة كعب ثوبيـه للبشـير مـع كونـه ليـس غيرهمـا دليـل على جواز مثل ذٰلك إذا أتى حصـول مـا يستبشـر بـه، وهـو دليل على جواز إظهار الفرح بعد زوال الغم والـترح، ومـن هـذا البـاب جواز حذاقه الصبيان، وإطعام الطعام فيها، وقد نحر عمر بعد حفظه سورة البقرة جزوراً، والله أعلم»(١)

الفائدة السادسة والثلاثون: استحباب المصافحة عند التلاقي.

في قـول كعـب: «فقــام طلحـة بـن عبيـدالله يهـرول حتـى صـافحني وهنأني» دليل على المصافحة.

والمصافحـة سـنة بـلا خـلاف؛ لقولـه ﷺ: **«مـا من مسلمين يلتقيان؛ فيتصافحان إلا غفر لهما قبل أن يتفرقا»**(٢)

وقولــه ﷺ: **«إن المؤمـن إذا لقـي المؤمـن فسـلم عليـه، وأخـذ بيـده فصافحه تناثرت خطاياهما؛ كما يتناثر ورق الشجر»**(٣).

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ٢٦١- ٢٦٢).

(٢) **صحيـح لغـيره** -أخرجـه أبـو داود (٥٢١٢)، والترمذي (٢٧٢٧)، وابن ماجه (٣٧٠٣)، وأحمد (٤/ ٢٨٩و ٣٠٣) وغيرهم من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

قلت: إسناده ضعيف؛ لأن أبا اسحاق السبيعي مدلس مختلط.

وله شاهد من حديث أنس رضي الله عنه.

أخرجه أحمد (٣/ ١٤٢) بإسناد حسن.

وبالجملة؛ فالحديث صحيح لغيره، والله أعلم.

(٣) **حسـن لغـيره** -أخرجـه الطـبراني في «الأوسـط» (٢٤٥) من حديث حذيفة=

وأول من جاء بالمصافحة الأشعريون قوم أبي موسى الأشعري.

عن أنس بن مالك قال: «قال رسول الله ﷺ: «**يقدم عليكم غداً أقوام أرق قلوباً للإسلام منكم**».

قال: فقدم الأشعريون -فيهم أبو موسى الأشعري- فلما دنوا من المدينة جعلوا يرتجزون يقولون:

غدا نلقى الأحبة محمداً وحزبه

فلما أن قدموا تصافحوا، فكانوا هم أول من أحدث المصافحة[1].

الفائدة السابعة والثلاثون: استحباب التهنئة.

في قول كعب: «فتلقاني الناس فوجاً فوجاً يهنؤنني بالتوبة يقولون: ليهنك توبة الله عليك حتى دخلت المسجد، فإذا رسول الله ﷺ جالس حوله الناس؛ فقام إلي طلحة بن عبيدالله يهرول حتى صافحني وهنأني» دليل على مشروعية التهنئة واستحبابها.

قال ابن قيم الجوزية: «فيه دليل على استحباب تهنئة من تجددت له نعمة دينية، وهو جائز لمن له نعمة دنيوية، وأن الأولى أن يقال له: ليهنك ما أعطاك الله، وما مَنَّ الله به عليك، ونحو هذا الكلام؛ فإن فيه تولية النعمة ربها، والدعاء لمن نالها بالتهني بها»[2].

الفائدة الثامنة والثلاثون: شدة شفقة رسول الله ﷺ على أمته، وكمال رحمته ورأفته بهم، وتمام فرحه لهم.

=وحسنه شيخنا في «الصحيحة» (٥٢٦).

(١) صحيح - أخرجه أحمد (٣/ ١٥٥، ٢٢٣) بإسناد صحيح.

(٢) «زاد المعاد» (٣/ ٥٨٥).

يدل عليه قول كعب: «فلما سلمت على رسول الله ﷺ وهو يبرق وجهه من السرور... وكان إذا سر استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر، وكنا نعرف ذلك منه».

قال ابن قيم الجوزية: «وفي سرور رسول الله ﷺ بذلك، وفرحه به، واستنارة وجهه دليل على ما جعل الله فيه من كمال الشفقة على الأمة، والرحمة بهم والرأفة، حتى لعل فرحه كان أعظم من فرح كعب وصاحبيه»[(١)]

ويدل على ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿لَقَد جَاءَكُم رَسُولٌ مِّن أَنفُسِكُم عَزِيزٌ عَلَيهِ مَا عَنِتُّم حَرِيصٌ عَلَيكُم بِالمُؤمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

الفائدة التاسعة والثلاثون: يوم التوبة أعظم أيام العبد.

قال ابن قيم الجوزية: «وفيه دليل على أن خير أيام العبد على الإطلاق وأفضلها توبته إلى الله، وقبول الله توبته؛ لقول النبي ﷺ: «**أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك**».

فإن قيل: فكيف يكون هذا اليوم خيراً من يوم إسلامه؟

قيل: هو مكمل ليوم إسلامه، ومن تمامه؛ فيوم إسلام بداية سعادته، ويوم توبته كمالها وتمامها، والله المستعان»[(٢)].

«وقوله تعالى: ﴿لَقَد تَابَ الله على النَّبِيِّ وَالمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الذينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ العُسرَةِ مِن بَعدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنهُم ثُمَّ تَابَ عَلَيهِم إِنَّهُ بِهِم رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧].

وهذا من أعظم ما يعرف العبد قدر التوبة وفضلها عند الله، وأنها

---

(١) «زاد المعاد» (٣/ ٥٨٥).

(٢) المصدر نفسه.

غاية كمال المؤمن؛ فإنه سبحانه أعطاهم هذا الكمال بعد آخر الغزوات بعد أن قضوا نحبهم، وبذلوا نفوسهم، وأموالهم، وديارهم لله، وكان غاية أمرهم أن تاب عليهم، ولهذا جعل النبي ﷺ يوم توبة كعب خير يوم مر عليه منذ ولدته أمه إلى ذٰلك اليوم، ولا يعرف هذا الحق معرفته إلا من عرف الله، وعرف حقوقه عليه، وعرف ما ينبغي له من عبودية، وعرف نفسه وصفاتها وأفعالها، وأن الذي قام من العبودية بالنسبة إلى حق ربه عليه، كقطرة في بحر، هذا إذا سلم من الآفات الظاهرة والباطنة، فسبحان من لا يسع عباده غير عفوه ومغفرته، وتغمده لهم بمغفرته ورحمته، وليس إلا ذٰلك أو الهلاك، فإن وضع عليهم عدله، فعذب أهل سماواته وأرضه عذبهم، وهو غير ظالم لهم، وإن رحمهم فرحمته خير لهم من أعمالهم، ولا ينجي أحداً منهم عمله»[(١)].

الفائدة الأربعون: استحباب الصدقة عند التوبة بما يقدر عليه من مال.

قال ابن قيم الجوزية: «وقول كعب: «يا رسول الله إن من توبتي أن أنخلع من مالي» دليل على استحباب الصدقة عند التوبة بما قدر عليه من المال.

وقول رسول الله ﷺ: «**أمسك عليك بعض مالك؛ فهو خير لك**»، دليل على أن من نذر الصدقة بكل ماله، لم يلزمه إخراج جميعه، بل يجوز له أن يبقي له منه بقية.

وقد اختلف الرواية في ذٰلك؛ ففي «الصحيحين» أن النبي ﷺ قال له: «**أمسك عليك بعض مالك**» ولم يعين له قدراً ، بل أطلق ووكله إلى اجتهاده في قدر الكفاية، وهذا هو الصحيح، فإن ما نقص عن كفايته

(١) «المصدر نفسه» (٣/ ٥٩١- ٥٩٢).

وكفاية أهله لا يجوز له التصدق به، فنذره لا يكون طاعة، فلا يجب الوفاء به، وما زاد على قدر كفايته وحاجته، فإخراجه والصدقة به أفضل، فيجب إخراجه إذا نذره، هذا قياس المذهب، ومقتضى قواعد الشريعة، ولهذا تقدم كفاية الرجل، وكفاية أهله على أداء الواجبات المالية، سواء كانت حقاً لله كالكفارات والحج، أو حقاً للآدميين كأداء الديون، فإنا نترك للمفلس ما لابد له منه من مسكن، وخادم، وكسوة، وآلة حرفة، أو ما يتجر به لمؤنته إن فقدت الحرفة، ويكون حق الغرماء فيما بقي.

وقد نص الإمام أحمد على أن من نذر الصدقة بماله كله، أجزأه ثلثه، واحتج له أصحابه بما روي في قصة كعب هذه أنه قال: «يا رسول الله إن من توبتي إلى الله ورسوله أن أخرج من مالي كله إلى الله ورسوله صدقة. قال: «**لا**». قلت: فنصفه؟ قال: «**لا**». قلت: فثلثه؟ قال: «**نعم**». قلت: فإني أمسك سهمي الذي بخيبر». رواه أبو داود[(١)]، وفي ثبوت هذا ما فيه، فإن الصحيح في قصة كعب هذه ما رواه أصحاب الصحيح من حديث

---

(١) **صحيح لغيره** -أخرجه أبو داود (٣٣٤١) من طريق ابن إسحاق حدثني الزهري عن عبدالرحمن بن عبدالله بن كعب عن أبيه عن جده (ذكره).

قلت: إسناده حسن رجاله ثقات غير محمد بن اسحاق وهو حسن الحديث إذا صرح بالتحديث وقد فعل، وقد خفي هذا على الشوكاني (٩/ ١٥٠) فقال: «رواية أبي داود في إسنادها محمد بن إسحاق، وفيه مقال معروف، ويشهد له حديث أبي لبابة الآتي، فهو به صحيح».

وتوهين ابن قيم الجوزية له كما هو ظاهر السياق، وقد بين علة ذلك عنده في «تهذيب السنن» (٤/ ٣٨٤) فقال: «المحفوظ في هذا الحديث ما أخرجه أصحاب الصحيح من قوله: «أمسك عليك بعض مالك»، أما ذكر الثلث فيه، فإنما أتى به ابن إسحاق، ولكن هو في حديث أبي لبابة (وذكره) ولعل بعض الرواة وهم في نقله هذا إلى حديث كعب ابن مالك في قصة توبته». =

الزهري عن ولد كعب بن مالك عنه أنه قال «أمسك عليك بعض مالك» من غير تعيين لقدره، وهم أعلم بالقصة من غيرهم، فإنهم ولده، عنه نقلوها.

فإن قيل: فما تقولون فيما رواه الإمام أحمد في «مسنده» أن أبا لبابة ابن عبد المنذر لما تاب عليه قال: يا رسول الله إن من توبتي أن أهجر دار قومي وأساكنك، وأن أخلع من مالي صدقة لله عز وجل ولرسوله؛ فقال رسول الله ﷺ: «**يجزئ عنك الثلث**»[1].

قيل: هذا هو الذي احتج به أحمد، لا بحديث كعب[2]؛ فإنه قال في رواية ابنه عبد الله: «إذا نذر أن يتصدق بماله كله أو ببعضه، وعليه دين أكثر مما يملكه، فالذي أذهب إليه أنه يجزئه من ذلك الثلث، لأن النبي

=قلت: ابن إسحاق حجة إذا صرح بالتحديث، وأوهام الثقات أو توهيمهم لا يثبت إلا بنقل صريح صحيح، وكيف نقول: إن بعض الرواة وهم وهو متابع على معناه؛ كما في حديث أبي لبابة.

ولذلك فلا وجه لقول ابن قيم الجوزية رحمه الله لا رواية ولا دراية ولا رعاية، وفوق كل ذي علم عليم.

(١) **صحيح** -أخرجه أحمد (٣/ ٤٥٢- ٤٥٣، ٥٠٢)، والدارمي (١/ ٣٩٠-٣٩١) من طريقين عن أبي لبابة.

وأخرجه أبو داود (٣٣١٩) عن كعب بن مالك أنه قال للنبي أو أبو لبابة أو من شاء الله وذكره.

قلت: إسناده صحيح.

وأخرجه أبو داود (٣٣٢٠) وفي إسناده ضعف ثم ذكر أبو داود الطريقين الأولين.

وبالجملة؛ فالحديث صحيح، والله أعلم.

(٢) ولا تعارض بينهما.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

ﷺ أمر أبا لبابة بالثلث».

وأحمد أعلم بالحديث أن يحتج بحديث كعب هذا الذي فيه ذكر الثلث، إذ المحفوظ في هذا الحديث «**أمسك عليك بعض مالك**»، وكأن أحمد رأى تقييد إطلاق حديث كعب بحديث أبي لبابة[(١)].

وقوله فيمن نذر أن يتصدق بماله كله أو ببعضه وعليه دين يستغرقه: إنه يجزئه من ذٰلك الثلث، دليل على انعقاد نذره، وعليه دين يستغرق ماله، ثم إذا قضى الدين، أخرج مقدار ثلث ماله يوم النذر، وهكذا قال في رواية ابنه عبد الله: «إذا وهب ماله، وقضى دينه، واستفاد غيره، فإنما يجب عليه إخراج ثلث ماله يوم حنثه» يريد بيوم حنثه يوم نذره، فينظر قدر الثلث ذلك اليوم، فيخرجه بعد قضاء دينه.

وقوله: «أو ببعضه» يريد: أنه إذا نذر الصدقة بمعين من مال، أو بمقدار كألف ونحوها، فيجزئه ثلثه كنذر الصدقة بجميع ماله، والصحيح من مذهبه لزوم الصدقة بجميع المعين، وفيه رواية أخرى: أن المعين إن كان ثلث ماله فما دونه، لزمه الصدقة بجميعه، وإن زاد الثلث، لزمه منه بقدر الثلث، وهي أصح عند أبي البركات[(٢)].

وبعد؛ فإن الحديث ليس فيه دليل على أن كعباً وأبا لبابة نذرا نذراً منجزاً، وإنما قالا: «إن من توبتنا أن نخلع من أموالنا»، وهذا ليس بصريح في النذر، وإنما فيه العزم على الصدقة بأموالهما شكراً لله على قبول توبتهما؛ فأخبر النبي ﷺ أن بعض المال يجزئ من ذٰلك، ولا يحتاجان

---

(١) هذا هو الصواب؛ فالمطلق يحمل على المقيد.

(٢) هو عبدالسلام بن عبدالله الحراني جد شيخ الإسلام توفي سنة ٦٥٢ هـ.
وانظر المسألة في «نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار» (٩/ ١٥٠- ١٥١).

إلى إخراجه كله، وهذا كما قال لسعد وقد استأذنه أن يوصي بماله كله، فأذن له في قدر الثلث.

فإن قيل: هذا يدفعه أمران:

أحدهما: قوله: «**يجزئك**»، والإجزاء إنما يستعمل في الواجب.

الثاني: أن منعه من الصدقة بما زاد على الثلث دليل على أنه ليس بقربة، إذ الشارع لا يمنع من القُرَب، ونذر ما ليس بقربة لا يلزم الوفاء به.

قيل: أما قوله: «**يجزئك**»، فهو بمعنى يكفي، فهو من الرباعي، وليس من «جزى عنه» إذا قضى عنه، يقال: أجزأني: إذ كفاني، وجزى عني: إذا قضى عني، وهذا هو الذي يستعمل في الواجب، ومنه قوله ﷺ لأبي بردة في الأضحية: «**تجزي عنك، ولن تجزي عن أحد بعدك**»[(١)].

والكفاية تستعمل في الواجب والمستحب.

وأما منعه من الصدقة بما زاد على الثلث، فهو إشارة منه عليه بالأرفق به، وما يحصل به منفعة دينه ودنياه، فإنه لو مكنه من إخراج ماله كله لم يصبر على الفقر والعدم، كما فعل بالذي جاءه بالصرة ليتصدق بها، فضربه بها[(٢)]، ولم يقبلها منه خوفاً عليه من الفقر، وعدم الصبر.

وقد يقال -وهو أرجح إن شاء الله تعالى-: إن النبي ﷺ عامل كل واحد ممن أراد الصدقة بماله بما يعلم من حاله، فمكَّن أبا بكر الصديق

---

(١) أخرجه البخاري (٩٥٥)، ومسلم(١٩٦١) (٧) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

(٢) ضعيف - أخرجه أبو داود (١٦٧٣) بإسناد ضعيف.

ويغني عنه حديث أبي هريرة أخرجه البخاري مرفوعاً: «**خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى، وأبدأ بمن تعول**».

من إخراج ماله كله، وقال: «**ما أبقيت لأهلك؟**» فقال: أبقيت لهم الله ورسوله[(١)]، فلم ينكر عليه، وأقر عمر على الصدقة بشطر ماله، ومنع صاحب الصرة من التصدق بها، وقال لكعب: «**أمسك عليك بعض مالك**»، وهذا ليس فيه تعيين المخرج بأنه الثلث، ويبعد جداً بأن يكون الممسك ضعفي المخرج في هذا اللفظ، وقال لأبي لبابة: «**يجزئك الثّلث**»، ولا تناقض بين هذه الأخبار، وعلى هذا؛ فمن نذر الصدقة بماله كله، أمسك منه ما يحتاج إليه هو وأهله، ولا يحتاجون معه إلى سؤال الناس مدة حياتهم من رأس مال أو عقار، أو أرض يقوم مَغَلُّها بكفايتهم، وتصدق بالباقي، والله أعلم.

وقال ربيعة بن أبي عبد الرحمن: يتصدق منه بقدر الزكاة، ويمسك الباقي.

وقال جابر بن زيد: إن كان ألفين فأكثر، أخرج عُشّرَه، وإن كان ألفا فما دون فسُبْعَه، وإن كان خمسمائة فما دون فَخُمْسَه.

وقال أبو حنيفة رحمه الله: يتصدق بكل ماله الذي فيه الزكاة.

وما لا تجب فيه الزكاة، ففيه روايتان:

أحدهما: يخرجه.

والثانية: لا يلزمه منه شيء.

وقال الشافعي: تلزمه الصدقة بماله كله.

---

(١) حسن - أخرجه أبو داود (١٦٧٨)، والترمذي (٣٦٧٦) والدارمي (١/ ٣٩١- ٣٩٢) وغيرهم بإسناد حسن.

وقال مالك، والزهري، وأحمد: يتصدق بثلثه.

وقالت طائفة: يلزمه كفارة يمين فقط»[١].

الفائدة الحادية والأربعون: الصدق في التوبة

إذا عزم التائب على توبة نصوح وصدق الله؛ فسيجد الله جواداً كريماً لن يرده خائباً ولو بلغت ذنوبه عنان السماء، فمن صدق الله صدقه، وتقبل توبته، وغسل حوبته.

والصدق في التوبة تجده في كل ركن من أركان قصة المخلفين من بدايتها إلى نهايتها:

فاخباره عن سبب تخلفه عن رسول الله ﷺ في غزوة بدر صدق.

وإخباره عن تقصيره في غزوة تبوك صدق.

واعترافه بذلك بين يدي رسول الله ﷺ صدق.

ولذلك قال رسول الله ﷺ: «**أما هذا؛ فقد صدق؛ فقم حتى يقضي الله فيك**».

وإعراضه عن كتاب ملك غسان صدق.

وتأمل كلام كعب في خاتمتها: «والله ما أنعم الله على من نعمة قط بعد إذ هداني الله للإسلام أعظم في نفسي من صدقي رسول الله ﷺ أن لا أكن كذبته؛ فأهلك كما هلك الذين كذبوا إن الله قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد، وقال الله: ﴿**سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم إنهم رجس ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون يحلفون لكم لترضوا عنهم فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين**﴾ [التوبة: ٩٥، ٩٦]».

---

(١) «زاد المعاد» (٣/ ٥٨٥- ٥٩٠).

أقول: تأمل هذا الكلام تجد الصدق يهدي إلى البر والجنة، وأنه المعيار الشرعي والميزان الآخروي الذي تضبط به الأمور وينظر في المواقف... والصدق دائماً في انتصار وعلو وازدياد والكذب في انخفاض وسفال ونفاد، والله بصير بالعباد.

الفائدة الثانية والأربعون: الاعتراف بالذنب واستغفار الله مدعاة لقبول التوبة

الجهل بالذنوب ينافي الهدى، فلذلك لا تصح التوبة إلا بعد معرفة الذنب، والاعتراف به، وطلب التخلص من سوء عواقبه أولاً وآخراً.

قال ﷺ لعائشة في قصة الإفك: «**أما بعد: يا عائشة إنه قد بلغني عنك كذا وكذا؛ فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه؛ فإن العبد إذا اعترف ثم تاب، تاب الله عليه**»[(١)].

وتأمل هذا الحوار الإيماني تجد هذا الأمر جلياً في قصة المخلفين قال رسول الله ﷺ لكعب: «**ما خلفك؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك؟**»؛ فيجيب كعب: «يا رسول الله إني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر، وقد أعطيت جدلاً، ولكني والله علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني؛ ليوشكن الله أن يسخطك علي، ولئن حدثتك حديث صدق تجد علي فيه إني لأرجو فيه عقبى الله، والله ما كان لي عذر، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك».

الفائدة الثالثة والأربعون: الندم على ما فرط في جنب الله.

---

(١) جزء من حديث الإفك، أخرجه البخاري (٤١٤١)، ومسلم(٢٧٧٠).

التوبة بدايتها ندم يورث عزماً وقصداً وعلماً بأن المعاصي تكون حائلاً بين العبد وربه؛ فيهرع الإنسان إلى النجاة والسلامة ولا منجا من الله إلا إليه، ويخرج من بين الخوف والرجاء توبة نصوحاً، وهذا سبيل التوابين.

وهو ظاهر جلي في قصة تخلف كعب وأصحابه؛ فقول كعب: «فلم يزل ذٰلك يتمادى بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو؛ فهممت أن أرتحل فأدركهم فياليتني فعلت» ندم أورث قصداً وعزماً وعلماً وهو قوله: «فلما بلغني أن رسول الله ﷺ قد توجه قافلاً من تبوك حضر بثي؛ فطفقت أتذكر الكذب، وأقول بم أخرج من سخطه غداً، واستعين على ذٰلك كل ذي رأي من أهلي، فلما قيل لي: إن رسول الله ﷺ قد أظل قادماً زاح عني الباطل حتى عرفت أني لن أنجو منه بشيء أبداً فأجمعت صدقه»؛ فهرعوا فارين إلى الله ظانين أن لا ملجأ من الله إلا إليه ﴿**حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ**﴾ [التوبة: ١١٨].

ويؤكد هذا كله قول رسول الله ﷺ: «**الندم توبة**»(١).

الفائدة الرابعة والأربعون: التوبة تَجِبُّ ما قبلها(٢).

---

(١) صحيح- أخرجه ابن ماجه (٤٢٥٢)، وأحمد (٣٥٦٨و ٤٠١٢و ٤٠١٤و ٤٠١٦- شاكر)، والبغوي في «شرح السنة» (١٣٠٧)، والحاكم (٤/ ٢٤٣) من حديث أنس.

قلت: وهو صحيح؛ صححه الحاكم، والذهبي، وشيخنا.

(٢) اشتهر على ألسنة العامة ووقع في مصنفات بعض أهل العلم أن: «التوبة تجب ما قبلها» حديث مرفوع من قول النبي ﷺ، وبعد طول بحث وتأني تبين أنه لا أصل له، وإن كان معناه صواباً، ولكن ليس كل صواب قولاً للرسول ﷺ.

وبسطت بيان ذلك في كتابي: «سلسلة الأحاديث التي لا أصل لها» (١٠).

من تاب توبة نصوحاً التحق بمن لم يرتكب ذنباً، لأن الثوب المغسول كالذي لم يتسخ، وحديث كعب كله شاهد على ذٰلك.

ويشهد لهذا المعنى قوله ﷺ: «**التائب من الذنب كمن لا ذنب له**»(١).

الفائدة الخامسة والأربعون: من تاب بسبب من الخير ينبغي أن يحافظ عليه.

المحافظة على أسباب الخير أبلغ في تعظيم حرمات الله وطريق الثبات؛ كما فعل كعب رضي الله عنه في الصدق؛ فقال: «يا رسول الله إن الله تعالى إنما أنجاني بالصدق، وإن من توبتي أن لا أحدث إلاصدقاً ما بقيت، فوالله ما علمت أحداً من المسلمين أبلاه الله تعالى في صدق الحديث منذ ذكرت ذٰلك لرسول الله ﷺ أحسن مما أبلاني الله تعالى، والله ما تعمدت كذبه منذ قلت ذٰلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقي».

وهذا من باب الاستقامة بعد التوبة؛ لقوله تعالى: ﴿**فَاستَقِم كَمَا أُمِرتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلاَ تَطغَوا إِنَّهُ بِمَا تَعمَلُونَ بَصِيرٌ**﴾ [هود: ١١٢].

قال ابن رجب رحمه الله: «والاستقامة هي سلوك الصراط المستقيم، وهو الدين القويم، من غير تعويج عنه، يمنة ولا يسرة، ويشمل ذٰلك فعل الطاعات كلها الظاهرة والباطنة، وترك المنهيات كلها كذٰلك.

وفي قوله عز وجل ﴿**فَاستَقِيمُوا له واستَغفِرُوه**﴾ [فصلت: ٦] إشارة إلى أنه لا بد من تقصير في الاستقامة المأمور بها؛ فيجبر ذٰلك الاستغفار

---

(٣) حسن - أخرجه ابن ماجه (٤٢٥٠) وغيره من حديث عبدالله ابن مسعود رضي الله عنه.

المقتضي للتوبة والرجوع إلى الاستقامة.

وقد أخبر النبي ﷺ: أن الناس لن يستطيعوا الاستقامة حق الاستقامة؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: **«سددوا وقاربوا»**[١].

فالسداد هو: حقيقة الاستقامة، وهو الإصابة في جميع الأقوال والأعمال والمقاصد، كالذي يرمي إلى غرض؛ فيصيبه.

والمقاربة: أن يصيب ما قرب من الغرض إذا لم يصب الغرض نفسه، ولكن بشرط أن يكون مصمماً على قصد السداد وإصابة الغرض، فتكون مقاربته عن غير عمد»[٢].

ولذٰلك؛ فالاستمرار في التوبة شرط في كمالها ونفعها وليس شرطاً في صحتها؛ لأن العصمة إلى الممات غير مقدورة، ولكنها مرجوة.

وأهل السنة على ذٰلك، وإنما صحة التوبة تتوقف على الإقلاع من الذنب، والندم عليه، والعزم الجازم على ترك معاودته، فإذا عاوده -مع عزمه حال التوبة على أن لا يعاوده- صار كمن ابتدأ المعصية ولم تبطل توبته المتقدمة.

ولذٰلك؛ فإن إثم الذنب الذي تاب منه لا يعود إليه بنقض التوبة؛ لأنه ارتفع بالتوبة، وصار بمنزلة من لم يعمله، وكأنه لم يكن، فلا يعود إليه بعد ذٰلك، وإنما العائد إثم المستأنف لا الماضي.

قلت: وهذا القول ندين لله به، وتلكم حجتنا:

---

(١) أخرجه البخاري (٥٦٧٣)، ومسلم (٢٨١٦).

(٢) «إيقاظ الهمم المنتقى من جامع العلوم والحكم» (ص ٣١١- ٣١٢) بتصرف.

١- إن هذه المسألة فيها حديث نص؛ فلا عبرة بعد قول رسول الله ﷺ بقول أحد.

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما يحكى عن ربه عز وجل؛ قال: «أذنب عبد ذنباً؛ فقال: اللهم اغفر لي ذنبي، فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي، فعلم أن له رباً يغفر الذنوب، ويأخذ بالذنب، ثم عاد؛ فأذنب، فقال: أي رب اغفر لي ذنبي، فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنباً فعلم أن له رباً يغفر الذنوب ويأخذ بالذنب، ثم عاد فأذنب فقال: أي رب اغفر لي ذنبي، فقال: تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنباً فعلم أن له رباً يغفر الذنوب ويأخذ بالذنب، اعمل ما شئت؛ فقد غفرت لك»(١).

وقال رسول الله ﷺ قال: «من شرب الخمر؛ لم تقبل له صلاة أربعين صباحاً، فإن تاب، تاب الله عليه، فإن عاد لم تقبل له صلاة أربعين صباحاً، فإن تاب؛ تاب الله عليه، فإن عاد؛ لم تقبل له صلاة أربعين صباحاً؛ فإن تاب تاب الله عليه، فإن عاد في الرابعة؛ لم تقبل له صلاة أربعين صباحاً، فإن تاب لم يتب الله عليه، وسقاه من نهر الخبال»(٢).

فهذان الحديثان حجة لمن قال: إن التوبة لا تنقض بمعاودة الذنب، ولو كررت التوبة وكرر الذنب.

قال النووي رحمه الله: «باب قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت الذنوب والتوبة: «هذه المسألة تقدمت في أول كتاب التوبة، وهذه

---

(١) أخرجه البخاري (٧٥٠٧)، ومسلم (٢٧٥٨).

(٢) صحيح- أخرجه الترمذي (١٨٦٢)، وأحمد (٢/ ١٨٩) وهو صحيح.

ونهر الخبال: هو عصارة أهل النار وصديدهم، كما جاء مفسراً عند أحمد (٢/ ٣٥ و١٨٩)، والحاكم (٤/ ١٤٦) بإسناد صحيح.

الأحاديث ظاهرة في الدلالة لها، وأنه لو تكرر مئة مرة أو ألف مرة أو أكثر تاب في كل مرة؛ قبلت توبته، وسقطت ذنوبه، ولو تاب عن الجميع توبة واحدة بعد جميعها؛ صحت توبته.

قوله عز وجل للذي تكرر ذنبه: «**اعمل ما شئت؛ فقد غفرت لك**»؛ معناه: ما دمت تذنب ثم تتوب؛ غفرت لك، وهذا جار على القاعدة التي ذكرناها»(١).

قلت: الذي تقدم في أول كتاب التوبة: «وإذا تاب توبة صحيحة بشروطها، ثم عاود الذنب؛ كتب عليه ذٰلك الذنب الثاني، ولم تبطل توبته، هذا مذهب أهل السنة في المسألتين، وخالفت المعتزلة فيهما.

قال أصحابنا: ولو تكررت التوبة ومعاودة الذنب؛ صحت»(٢).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وإذا تاب توبة صحيحة غفرت ذنوبه، فإن عاد إلى الذنب فعليه أن يتوب أيضاً، وإذا تاب قبل الله توبته أيضاً»(٣).

وأشار الحافظ ابن حجر إلى كلام النووي المتقدم مستشهداً به(٤)، قال: «وزاد بعض من أدركناه في شروط التوبة أموراً أخرى منها: أن يفارق موضع المعصية، وأن لا يصل في آخر عمره إلى الغرغرة، وأن لا تطلع الشمس من مغربها، وأن لا يعود إلى ذٰلك الذنب، فإن عاد إليه؛ بان أن توبته باطلة.

قلت: والأول مستحب، والثاني والثالث داخلان في حق التكليف،

---

(١) «شرح صحيح مسلم»، (١٧/ ٧٥).

(٢) «شرح صحيح مسلم»، (١٧/ ٥٩ - ٦٠).

(٣) «مجموع الفتاوى» (١١/ ٧٠١).

(٤) «فتح الباري» (١٣/ ٤٧٢).

والرابـع الأخـير عـزي للقاضي أبي بكر الباقلاني، ويرده الحديث الآتي بعد عشرين باباً، وقد أشرت إليه في باب فضل الاستغفار[(١)]»[(٢)].

٢- من أسماء الله الحسنى: التواب.

قـال الحليمـي: «وهـو المعيـد علـى عبده فضل رحمته إذا هو رجع إلى طاعتـه، ونـدم على معصيته، ولا يحبط بما تقدم من خير، ولا يمنعه ما وعد المطيعين من الإحسان»[(٣)].

وقـال الخطـابي: «هـو الـذي يتـوب علـى عبـده، ويقبـل توبتـه كلما تكررت التوبة؛ تكرر القبول»[(٤)].

وذكر ذٰلك الحافظ ابن حجر محتجاً بهما على ما تقدم[(٥)].

٣- زعـم المخـالفون: أن التوبـة من الذنب بمنزلة الإسلام من الكفر، والكـافر إذا أسـلم؛ هـدم إسـلامه ما قبله من إثم الكفر وتوابعه، فإذا ارتد؛ حبط عمله، ورجع إليه الإثم الأول مع إثم الردة.

وفي ذٰلـك يقول رَسُول الله ﷺ: **«من أحسن في الإسلام؛ لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية، ومن أساء في الإسلام، أخذ بالأول والآخر»**[(٦)].

فهـذا حـال مـن أسلم وأساء في إسلامه، ومعلوم أن الردة من الإساءة

---

(١) ومراده حديث أبي هريرة المتقدم، وقد أشار إليه (١١/ ٩٩).

(٢) المصدر نفسه (١١/ ١٠٤).

(٣) «المنهاج في شعب الإيمان» (١/ ٢٠٦)

(٤) «شأن الدعاء» (ص٩٠).

(٥) «فتح الباري» (١١/ ١٠٤).

(٦) أخرجـه البخـاري (٦٩٢١)، ومسـلم (١٢٠) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

في الإسلام، فإذا أخذ بعدها بما كان منه في حال كفره، ولم يسقطه الإسلام المتخلل بينهما؛ فهكذا التوبة المتخللة بين الذنبين؛ لا تسقط الإثم السابق؛ كما لا تمنع الإثم اللاحق.

قلت: ليس هذا كالكفر الذي يحبط الأعمال؛ فإن الكفر له شأن آخر من وجوه متعددة:

الأول: أن الكفر يحبط جميع الحسنات، ومعاودة الذنب لا تحبط ما تقدمه من الحسنات.

الثاني: المعصية غير الكفر، فلا يكفر مرتكبها، ولا يخلد في جهنم.

ولو قلنا بأن معاودة الذنب تحبط الحسنات؛ لدخلنا إلى مذهب أهل الأهواء والبدع من الخوارج والمعتزلة المخلدين في النار بالكبيرة التي تقدمها ألوف من الحسنات؛ فإن الفريقين متفقان على خلود أرباب الكبائر في النار، ولكن الخوارج كفَّروهم، والمعتزلة فسَّقوهم، واختلف المسميات والخاتمة واحدة، وكلا المذهبين باطل في دين الإسلام؛ بالكتاب والسنة والإجماع والنظر والقياس ومخالف للمعقول والمنقول وموجب العدل؛ كما قال تعالى: **﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً﴾** [النساء: ٤٠].

الثالث: ما قاله شيخ الإسلام في شرح حديث عبدالله بن مسعود والذي يحتج به المخالف: «وحسن الإسلام: أن يلتزم فعل ما أمر الله به، وترك ما نهى عنه، وهذا معنى التوبة العامة؛ فمن أسلم هذا الإسلام غفرت ذنوبه كلها.

وهكذا كان إسلام السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين

اتبعوهم بإحسان؛ ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح لعمرو بن العاص: «**أما علمت أن الإسلام يهدم ما قبله**»(١)؛ فإن اللام لتعريف العهد، والإسلام المعهود بينهم كان الإسلام الحسن.

قوله: «**ومن أساء في الإسلام أخذ بالأول والآخر**»؛ أي: إذا أصر على ما كان يعمله من الذنوب؛ فإنه يؤاخذ بالأول والآخر.

وهذا موجب النصوص والعدل؛ فإن من تاب من الذنب غفر له ذلك الذنب، ولم يجب أن يغفر له غيره»(٢).

٤- زعم المخالفون: أن صحة التوبة مشروطة باستمرارها والموافاة عليها، والمعلق على الشرط يعدم عند انعدام الشرط؛ كما أن صحة الإسلام مشروطة باستمراره والموافاة عليه؛ كما قال تعالى: ﴿**فَلا تموتنَّ إلا وأنتُم مُسلِمُون**﴾ [البقرة: ١٣٢].

قلت: لا يشترط في صحة التوبة العصمة إلى الممات؛ لأن ذلك غير مقدور عليه، فكل ابن آدم خطاء.

ولذلك؛ فإذا ندم العبد وأقلع وعزم على الترك؛ محي عنه إثم الذنب بمجرد ذلك، فإذا استأنفه؛ استأنف إثمه.

٥- قال المخالفون: إن التوبة واجبة وجوباً مضيَّقاً مدى العمر، فوقتها مدة العمر، إذ يجب على التائب استصحاب حكمها مدة عمره، فهي بالنسبة إلى العمر كالإمساك عن المفطرات في صوم اليوم، فإذا أمسك معظم النهار، ثم نقض إمساكه بالمفطرات؛ بطل ما تقدَّم من صيامه، ولم يعتد به، وكان بمنزلة من لم يمسك شيئاً في يومه.

---

(١) أخرجه مسلم (١٢١).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١١/ ٧٠١- ٧٠٢).

ويدل على هذا قول رسول الله ﷺ: «**فوالذي لا إله غيره؛ إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع؛ فيسبق عليه الكتاب؛ فيعمل بعمل أهل النار؛ فيدخلها**»(١).

وهذا أعم من أن يكون هذا العمل الثاني كفراً موجباً للخلود، أو معصية موجبة للدخول؛ لأن الرسول ﷺ أخبر أنه يعمل بعمل يوجب النار، فالخاتمة السيئة أعم من أن تكون خاتمة بكفر أو معصية، والأعمال بالخواتيم.

قلت: قياس التوبة على الصيام اليوم، وعدد ركعات الصلاة؛ قياس مع الفارق؛ فإن تلك عبادة واحدة، لا تكون مقبولة إلا بالإتيان بجميع أركانها وأجزائها، وأما التوبة؛ فهي عبادة متعدِّدة بتعدّد الذنوب، فكل ذنب له توبة تخصُّه؛ فإذا أتى العبد واحدة وترك أخرى؛ لم يكن ما ترك موجباً لبطلان ما فعل؛ كما تقدّم تقريره.

ونظير هذا: من صلى ولم يصم، أو زكى ولم يحجّ.

وهذا جار على أصول أهل السنة والجماعة؛ فإنهم متّفقون على أن الشخص الواحد يكون فيه ولاية لله وعداوة من وجهين مختلفين، ويكون محبوباً لله مبغوضاً له من وجهين أيضاً، بل يكون فيه نفاق وإيمان، وإيمان وكفر، ويكون إلى أحدهما أقرب منه إلى الآخر، فيكون من أهله؛ كما قال تعالى: ﴿**هم للكفر أقرب منهم للإيمان**﴾ [آل عمران: ١٦٧].

وقال تعالى: ﴿**وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون**﴾ [يوسف: ١٠٦].

أثبت لهم الإيمان به مع مقارنة الشرك، فإن كان هذا الشرك الأكبر؛

(١) أخرجه البخاري (٣٢٠٢)، ومسلم (٢٦٤٣).

لم ينفعهم ما معهم من الإيمان بالله، وإن كان من الشرك الخفي؛ فهؤلاء مستحقون للوعيد أعظم من استحقاق الكبائر، والخفي قد يغفر، وأما الجلي؛ فلا يغفره الله إلا بالتوبة منه؛ فإن الله لا يغفر أن يشرك به.

وبهذا الأصل أثبت أهل السنة دخول أهل الكبائر النار، ثم خروجهم منها ودخولهم الجنة، لما قام بهم من السببين.

فإذا ثبت هذا؛ فمعاودة الذنب لا تنقض التوبة الأولى، ولكن معاوده مبغوض إلى الله، فإن تاب؛ كان محبوباً له، فيرتب الله عز وجل على كل سبب أثره ومسببه بالعدل والحكمة، ولا يظلم مثقال ذرة.

وينبغي أن تعلم أيها العبد المفتنُّ التواب أموراً، منها:

أن استمرار التوبة؛ إن لم يكن شرطاً في صحة ما مضى منها؛ فهو شرط في صحة كمالها ونفعها؛ لأنه ضرب من الاستقامة التي حث الله عليها بعد التوبة؛ كما تقدم.

وأن قوله صلى الله عليه وسلم في حديث أبي هريرة القدسي المتقدم: «**اعمل ما شئت، فقد غفرت لك**»؛ «ليس فيه إطلاق وإذن منه سبحانه له في المحرمات والجرائم، وإنما يدل على أنه يغفر له ما دام كذلك: إذا أذنب تاب.

واختصاص هذا العبد بهذا؛ لأنه قد علم أنه لا يصر على ذنب، وأنه كلما أذنب تاب حكم يعم كل من كانت حاله لكن ذلك العبد مقطوع له بذلك كما قطع به لأهل بدر، وكذلك كل من بشره رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة أو أخبره بأنه مغفور له؛ لم يفهم منه هو ولا غيره من الصحابة بإطلاق الذنوب والمعاصي له، ومسامحته بترك الواجبات، بل كان هؤلاء أشد اجتهاداً وحذراً وخوفاً بعد البشارة منهم قبلها كالعشرة

المشهود لهم بالجنة، وقد كان الصديق شديد الحذر والمخافة، وكذلك عمر؛ فإنهم علموا أن البشارة المطلقة مقيدة بشروطها والاستمرار عليها إلى الموت، ومقيدة بانتفاء موانعها، ولم يفهم أحد منهم من ذلك الاطلاق الإذن فيما شاؤوا من الأعمال»[(١)].

الفائدة لسادسة والأربعون: عظم ضرر المعاصي والذنوب وخطورتها.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «ومنها عظم أمر المعصية، وقد نبه الحسن البصري على ذلك وقد أخرجه ابن أبي حاتم عنه قال: «يا سبحان الله ما أكل هؤلاء الثلاثة مالاً حراماً، ولا سفكوا دماً حراماً، ولا أفسدوا في الأرض أصابهم ما سمعتم، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت، فكيف بمن يواقع الفواحش والكبائر؟»[(٢)].

قال ابن قيم الجوزية رحمه الله مبيناً ضرر المعاصي وخطرها: «فمما ينبغي أن يعلم أن الذنوب والمعاصي تضر ولا بد، وأن ضررها في القلوب كضرر السموم في الأبدان على اختلاف درجاتها في الضرر، وهل في الدنيا والآخرة شر وداء إلا وسببه الذنوب والمعاصي.

فما الذي أخرج الأبوين من الجنة، دار اللذه والنعيم والبهجة والسرور إلى دار الآلام والاحزان والمصائب؟

وما الذي أخرج إبليس من ملكوت السماء وطرده ولعنه، ومسخ ظاهره وباطنه؛ فجعل صورته اقبح صورة وأشنعها ،وباطنه أقبح من صورته وأشنع ،وبدل بالقرب بعداً ،وبالرحمة لعنة، وبالجمال قبحاً، وبالجنة ناراً تلظى، وبالايمان كفراً، وبموالاة الولي الحميد أعظم عداوة ومشاقة،

---

(١) «الفوائد» (ص ١٦- ١٧).

(٢) «فتح الباري» (٨/ ١٢٣)، وانظر «الدر المنثور» (٤/ ٣١٥).

وبزجل التسبيح والتهليل زجل الكفر والشرك والكذب والزور والفحش، وبلباس الايمان لبس الكفر والفسوق والعصيان؛ فهان على الله غاية الهوان، وسقط من عينه غاية السقوط ،وحل عليه غضب الرب تعالى فأهواه، ومقته أكبر المقت فأرداه، فصار قواداً لكل فاسق ومجرم، رضي لنفسه بالقيادة بعد تلك العبادة والسيادة؟

فعياذاً بك اللهم من مخالفة أمرك، وارتكاب نهيك.

وما الذي أغرق أهل الأرض كلهم حتى علا الماء فوق رؤوس الجبال؟

وما الذي سلط الريح على قوم عاد حتى ألقتهم موتى على وجه الأرض كأنهم أعجاز نخل خاوية، ودمرت ما دمرت عليه من ديارهم وحروثهم وزرعوهم ودوابهم، حتى صاروا عبرةً للأمم إلى يوم القيامة؟

وما الذي أرسل على قوم ثمود الصيحة حتى قطعت قلوبهم في أجوافهم، وماتوا على آخرهم؟

وما الذي رفع قرى اللوطية حتى سمعت الملائكة نبيح كلابهم، ثم قلبها عليهم، فجعل عاليها سافلها، فأهلكهم جميعاً؛ ثم أتبعهم حجارة من السماء أمطرها عليهم من العقوبات ما لم يجمعه على أمة غيرهم، ولإخوانهم أمثالها، وما هي من الظالمين ببعيد؟

وما الذي أرسل على قوم شعيب سحاب العذاب كالظل، فلما صار فوق رؤوسهم أمطر عليهم ناراً تلظى؟

وما الذي أغرق فرعون وقومه في البحر، ثم نقل أرواحهم إلى جهنم؛ فالأجساد للغرق، والأرواح للحرق؟

وما الذي خسف بقارون وداره وماله وأهله؟

وما الذي أهلك القرون من بعد نوح بأنواع العقوبات ودمّرها تدميراً؟

وما الذي أهلك قوم صاحب يس بالصيحة حتى خمدوا عن آخرهم؟

وما الذي بعث على بني إسرائيل قوماً أولي بأس شديد، فجاسوا خلال الديار، وقتلوا الرجال، وسبوا النساء، وأحرقوا الديار ونهبوا الأموال، ثم بعثهم عليهم مرة ثانية فأهلكوا ما قدروا عليه وتبروا ما علو تتبيراً؟

وما الذي سلط عليهم أنواع العقوبات، مرة بالقتل والسبي وخراب البلاد، ومرة بجور الملوك ومرة بمسخهم، وآخر ذلك أقسم الرب تبارك وتعالى: ﴿**ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب**﴾ [الأعراف: ١٦٧]؟

وههنا نكتة دقيقة يغلط فيها الناس في أمر الذنب، وهي أنهم لا يرون تأثيره في الحال، وقد يتأخر تأثيره فينسى، فيظن العبد أنه لا يغبر بعد ذلك، وأن الأمر؛ كما قال القائل:

إذا لم يغبر حائط في وقوعه فليس له بعد الوقوع غبار

وسبحان الله كم أهلكت هذه البلية من الخلق؟ وكم أزالت من نعمة؟ وكم جلبت من نقمة؟

وما أكثر المغترين بها من العلماء والفضلاء فضلاً عن الجهال! ولم يعلم المغتر: أن الذنب ينقض ولو بعد حين كما ينقض السم، وكما ينقض الجرح المندمل على الغش والدغل.

وللمعاصي من الآثار القبيحة المذمومة، والمضرة بالقلب والبدن في الدنيا والآخرة ما لا يعلمه إلا الله.

١- فمنهـا: حرمـان العلـم؛ فـإن العلـم نـور يقذفـه الله في القلـب، والمعصية تطفئ ذلك النور.

قال الشافعي رحمه الله:

شـكوت إلى وكيع سوء حفظي   فأرشـدني إلى تـرك المعـاصي
وقـال اعلـم بـأن العلم فضل   وفضـل الله لا يأتـاه عـاص

٢- ومنهـا: حرمـان الـرزق؛ وكمـا أن تقـوى الله مجلبـة لـلرزق، فـترك التقوى مجلبة للفقر، فما استجلب رزق الله بمثل ترك المعاصي.

٣- ومنها: وحشة يجدها العاصي في قلبه بينه وبين الله؛ لا توازنها ولا تقاربهـا لـذة أصـلاً، ولـو اجتمعـت لـه لـذات الدنيـا بأسرها لم تف بتلك الوحشة.

فلـو لم تـترك الذنـوب إلا حـذراً من وقوع تلك الوحشة، لكان العاقل حرياً بتركها.

وليس على القلب أَمَرُّ من وحشة الذنب على الذنب؛ فالله المستعان.

٤- ومنهـا: الوحشة التي تحصل بينه وبين الناس، ولا سيما أهل الخير منهـم؛ فإنـه يجـد وحشـة بينه وبينهم، وكلما قويت تلك الوحشة بعد منهم ومـن مجالسـتهم، وحـرم بركة الانتفاع بهم، وقرب من حزب الشيطان، بقدر مـا بعـد مـن حـزب الرحمن، وتقوى هذه الوحشة حتى تستحكم، فتقع بينه وبين امرأته وولده وأقاربه، وبينه وبين نفسه، فتراه مستوحشاً بنفسه.

٥- ومنهـا: تعسـير أموره عليه؛ فلا يتوجه لأمر إلا يجده مغلقاً دونه أو متعسـراً عليـه؛ وهـذا كمـا أن مـن اتقـى الله جعـل له من أمره يسراً، فمن عطل التقوى جعل له من أمره عسراً.

ويالله العجب كيف يجد العبد أبواب الخير وأبواب المصالح مسدودة عنه وطرقها معسرة عليه، وهو لا يعلم من أين أتى؟

٦- ومنها: ظلمة يجدها في قلبه حقيقة، يحس بها كما يحس بظلمة الليل البهيم إذا ادلهم، فتصير ظلمة المعصية لقلبه كالظلمة الحسية لبصره، فإن الطاعة نور والمعصية ظلمة، وكلما قويت الظلمة ازدادت حيرته؛ حتى يقع في البدع والضلالات والأمور المهلكة وهو لا يشعر، كأعمى خرج في ظلمة الليل يمشي وحده، وتقوى هذه الظلمة حتى تظهر في العين، ثم تقوى حتى تعلو الوجه، وتصير سواداً فيه يراه كل أحد.

٧- ومنها: أن المعاصي توهن القلب والبدن، أما وهنها للقلب فأمر ظاهر، بل لا تزال توهنه حتى تزيل حياته بالكلية.

وأما وهنها للبدن، فإن المؤمن قوته من قلبه، وكلما قوي قلبه قوي بدنه، وأما الفاجر فإنه -وإن كان قوي البدن-؛ فهو أضعف شيء عند الحاجة، فتخونه قوته أحوج ما يكون إلى نفسه.

وتأمل قوة أبدان فارس والروم كيف خانتهم أحوج ما كانوا إليها، وقهرهم أهل الإيمان بقوة أبدانهم وقلوبهم؟

٨- ومنها: حرمان الطاعة؛ فلو لم يكن للذنب عقوبة إلا أنه يصد عن طاعة تكون بدله، ويقطع طريق طاعة أخرى، فينقطع عليه بالذنب طريق أخرى ثالثة، ثم رابعة وهلم جرا، فتنقطع عنه بالذنب طاعات كثيرة، كل واحد منها خير له من الدنيا وما عليها، وهذا كرجل أكل أكلة أوجبت له مرضةً طويلةً منعته من عدة أكلات أطيب منها، والله المستعان.

٩- ومنها: أنَّ المعاصي تُقَصِّرُ العمر، وتمحق بركتَهُ ولا بدَّ، فإنَّ البِرَّ كما يزيدُ العمر، فالفجورُ يُقَصِّرُ العمرَ.

وبالجملـة؛ فـالعبد إذا أعرض عن الله واشتغل بالمعاصي ضاعت عليه أيــام حياتِـه الحقيقيـةُ التـي يجـدُ غِـبَّ إضاعتهـا يـوم يقـول: ﴿يَـا ليتَنِـي قدَّمـتُ لِحَيـاتِي﴾ [الفجـر: ٢٤]؛ فـلا يخلو إما أن يكون له مع ذلك تطَّلعُ إلى مصالِحِـهِ الدنيوية والآخروية أو لا ؟ فإن لم يكن له تطلُّعٌ إلى ذلك فقد ضـاع عليـه عمـرُه كلُّـه، وذهبـت حياتُه باطلاً، وإن كان له تطلعٌ إلى ذلك طـالت عليـه الطريـق بسـبب العوائـق، وتعسرت عليه أسبابُ الخيرِ بحسبِ اشتعالِه بأضدادها، وذلك نقصانٌ حقيقيٌّ من عمره.

وسـرُّ المسألة: أن عمر الإنسانِ مدة حياته، ولا حياة له إلا بإقباله على ربِّه، والتنعم بحبه وذكره، وإيثار مرضاته.

١٠- ومنهـا: أنَّ المعاصِي تزرعُ أمثالها، ويولدُ بعضها بعضاً، حتى يَعُزَّ علـى العبـد مفارقتُها والخروجُ منها، فالعبد إذا عمل حسنة قالت أخرى إلى جنبهـا: اعملنـي أيضاً، فإذا عملها قالت ثالثة كذلك وهلمَّ جرا؛ فتضاعف الربـح، وتزايـدت الحسـنات؛ وكذلـك جـانب السـيئات أيضاً، حتى تصير الطاعـات والمعـاصي هيئـات راسـخةً، وصفـات لازمةً، وملكاتٍ ثابتةً، فلو عطـل المحسـن الطاعـات لضـاقت عليـه نفسـه، وضاقت عليه الأرض بما رحبـت، وأحس من نفسه كأنه الحوت إذا فارق الماء حتى يعاودها؛ فتسكن نفسه، وتقرُّ عينُهُ .

ولـو عطـل المجـرم المعصيـة وأقبـل علـى الطاعة لضاقت عليه نفسه، وضـاق صـدره، وأعيـت عليـه مذاهبـه، حتـى يعاودهـا، حتى إنَّ كثيراً من الفسـاق ليواقع المعصية من غير لذَّةٍ يجدها، ولا داعيةٍ إليها، إلا لِما يجدُ من الألمِ بمفارقتها؛ كما صرح بذلك شيخُ القوم الحسنُ بنُ هانئ؛ حيث يقولُ:

وكأسٍ شَرِبتُ عَلَى لذَّةٍ وأُخرى تداَوَيتُ مِنهَا بِهَا

و قال آخر:

فَكَانَت دَوَائِي وهي دَائِي بِعَينِها كَمَا يَتَداوى شَارِبُ الخَمرِ بالخَمرِ

و لا يـزال العبـد يعاني الطاعة ويألفها ويحبها ويؤثرها حتى يرسل الله سبحانه وتعالى برحمته إليه الملائكة تؤزه إليها أزاً، وتحرضه عليه، وتزعجه عن فراشه ومجلسه إليها.

و لا يزال يألف المعاصي ويحبها ويؤثرها حتى يرسل الله عليه الشياطين؛ فتؤزه إليها أزاً.

فالأول قَوّى جند الطاعة بالمدد، فصاروا من أكبر أعوانه، وهذا قوى جند المعصية بالمدد؛ فكانوا أعواناً عليه.

١١- ومنها: وهو من أخوفها على العبد أنها تضعف القلب عن إرادته، فتقوى إرادة المعصية، وتضعف إرادة التوبة شيئاً فشيئاً، إلى أن تنسلخ من قلبه إرادة التوبة بالكلية، فلو مات نصفُه لما تاب إلى الله، فيأتي من الاستغفار وتوبة الكذابين باللسان بالشيء كثير، وقلبه معقودٌ بالمعصية، مصرٌ عليها، عازم على مواقعتِها متى أمكنه.

وهذا من أعظم الأمراضِ وأقربها إلى الهلاك.

١٢- ومنها: أنَّه ينسلخ من القلب استقباحها، فتصير له عادةً، فلا يستقبحُ من نفسهِ رؤيةَ الناس له كلِّهم، ولا كلامَهُم فيه.

وهذا عند أرباب الفسوق هو غايةُ التَّهتُّك وتمامُ اللّذةِ، حتى يفتخر أحدُهم بالمعصيةِ، ويحدث بها مَن لم يعلم أنَّهُ عملها، فيقول: يا فلانُ عملتُ كذا وكذا.

وهذا الضربُ من الناس لا يُعافونَ، ويُسدُّ عليهم طريق التوبة،

وتُغلقُ عليهم أبوابُها في الغالب؛ كما قال النبي ﷺ: «كُلُّ أمَّتِي مُعافى إلا المجاهِرينَ، وإنَّ مِنَ الإجهَارِ: أن يَستُرَ اللهُ على العبدِ ثمَّ يُصبحُ يَفضَحُ نفسهُ ويقولُ: يا فُلانُ عمِلتُ يومَ كذا وكذا كذا وكذا، فيهتكُ نَفْسَهُ، وقد باتَ يَستُرُهُ رَبُّهُ»(١).

١٣- ومنها: أنَّ كلَّ معصيةٍ مِنَ المعاصي فهي ميراثٌ عن أمة من الأممِ التي أهلكها اللهُ عزَّ وجلَّ:

فاللوطية: ميراث عن قوم لوط.

وأخذ الحق بالزائد ودفعه بالناقص: ميراث من قوم شعيب.

والعلو في الأرض والفساد: ميراث عن قوم فرعون.

والتكبر والتجبُّر: ميراث عن قوم هود.

فالعاصي لابسٌ ثياب بعض هذه الأمم، وهم أعداء الله.

١٤- ومنها: أن المعصية سبب لهوان العبد على ربه وسقوطه من عينه.

قال الحسن البصري: «هانوا عليه فعصوه، ولو عزوا عليه لعصمهم».

و إذا هان العبد على الله لم يكرمه أحد؛ كما قال الله تعالى: ﴿ومن يهِنِ اللهُ فمَا لهُ مِن مكرمٍ﴾، [الحج: ١٨]، وإن عظمهم الناس في الظاهر لحاجتهم إليهم أو خوفاً من شرِّهم؛ فهم في قلوبهم أحقر شيء وأهونه.

١٥- ومنها: أن المعصية تورِث الذُّل ولا بُدَّ؛ فإن العز كل العز في طاعة الله.

قال تعالى: ﴿مَن كانَ يُريد العِزَّة فَلله العِزّةُ جميعاً﴾، [فاطر: ١٠]؛

---

(١) البخاري (٥٧٢١)، ومسلم (٢٩٩٠).

أي: فليطلبها بطاعة الله، فإنه لا يجدها إلا في طاعته.

١٦- ومنها: حرمان دعوة رسول الله ﷺ ودعوة الملائكة؛ فإن الله سبحانه أمر نبيه أن يستغفر للمؤمنين والمؤمنات، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحمِلُونَ العَرشَ وَمَن حَولَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمدِ رَبِّهِم وَيُؤمِنُونَ بِهِ وَيَستَغفِرُونَ لِلَّذِينَ امَنُوا رَبَّنَا وَسِعتَ كُلَّ شَيءٍ رَّحمَةً وَعِلماً فَاغفِر لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِم عَذَابَ الجَحِيمِ. رَبَّنَا وَأَدخِلهُم جَنَّاتِ عَدنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُم وَمَن صَلَحَ مِن ابَائِهِم وَأَزوَاجِهِم وَذُرِّيَّاتِهِم إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ. وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَومَئِذٍ فَقَد رَحِمتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الفَوزُ العَظِيمُ﴾ [غافر: ٧-٩].

فهذا دعاء الملائكة للمؤمنين التائبين المتبعين لكتابه وسنة رسوله الذين لا سبيل لهم غيرهما، فلا يطمع غير هؤلاء بإجابة هذه الدعوة إذ لا يتصف بصفات المدعو له بها، والله المستعان.

١٧- ومن آثار الذنوب والمعاصي: أنها تحدث في الأرض أنواعاً من الفساد في المياه والهواء، والزروع والثمار، والمساكن، قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الفَسَادُ فِي البَرِّ وَالبَحرِ بِمَا كَسَبَت أَيدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُم يَرجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

١٨- و من عقوبات الذنوب: أنها تطفئ من القلب نار الغيرة التي هي لحياته وصلاحه كالحرارة الغريزية لحياة جميع البدن؛ فالغيرة حرارته وناره التي تخرج ما فيه من الخبث والصفات المذمومة، كما يخرج الكير خبث الذهب والفضة والحديد، وأشرف الناس وأجدهم وأعلاهم همة أشدهم غيرة على نفسه وخاصته وعموم الناس، ولهذا كان النبي ﷺ أغير

علـى الأمـة، والله سـبحانه أشـد غـيرة منه؛ كما ثبت في «الصحيح»[(١)] عنه ﷺ أنـه قـال: «**لا أحد أغير من الله، من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منهـا ومـا بطـن، ولا أحـد أحـب إليـه العذر من الله، من أجل ذلك أرسل الرسـل مبشـرين ومنذرين، ولا أحد أحب إليه المدح من الله من أجل ذلك أثنى على نفسه**».

فجمـع في هذا الحديث بين الغيرة التي أصلها كراهة القبائح وبغضها وبـين محبـة العذر الذي يوجب كمال العدل والرحمة والإحسان، وأنه سبحانه مـع شـدة غيرته يحب أن يعتذر إليه عبده، ويقبل عذر من اعتذر إليه، وإنه لا يؤاخـذ عبيـده بارتكـاب مـا يغـار مـن ارتكابـه حتى يعذر إليهم، ولأجل ذلك أرسل رسله وأنزل كتبه إعذاراً وإنذاراً.

وهـذا غاية المجد والإحسان ونهاية الكمال؛ فإن كثيراً ممن تشتد غيرته مـن المخلوقين تحمله شدة الغيرة على سرعة الإيقاع والعقوبة من غير إعذارٍ منـه ومـن غير قبولٍ لعذرِ من اعتذر إليه، وكثير ممن يقبل المعاذير يحمله على قبولهـا قلـة الغـيرة حتـى يتوسع في طرق المعاذير، ويرى عذراً ما ليس بعذرٍ حتى يعتذر كثير منهم بالقدر، وكل منهما غير ممدوح على الإطلاق.

وإنمـا الممـدوح اقـتران الغـيرة بالعذر؛ فيغار في محل الغيرة، ويعذر في موضع العذر، ومن كان هكذا؛ فهو الممدوح حقاً.

ولمـا جمـع الله سـبحانه صفات الكمال كلها كان أحق بالمدح من كل أحـد، ولا يبلغ أحد أن يمدحه كما ينبغي له، بل هو كما مدح نفسه وأثنى علـى نفسـه؛ فـالغيور قـد وافق ربه سبحانه في صفة من صفاته، ومن وافق الله في صفـة مـن صفاته قادته تلك الصفة إليه بزمامها، وأدخلته على ربه،

---

(١) البخاري (٤٦٢٢)، ومسلم (٢٧٦٠).

وأدنته منه، وقربته من رحمته، وصيرته محبوباً له، فإنه سبحانه رحيم يحب الرحماء، كريم يحب الكرماء، عليم يحب العلماء، قوي يحب المؤمن القوي، وهو أحب إليه من المؤمن الضعيف، حيي يحب أهل الحياء، جميل يحب أهل الجمال، وتر يحب الوتر.

ولو لم يكن في الذنوب والمعاصي إلا أنها توجب لصاحبها ضد هذه الصفات وتمنعه من الاتصاف بها لكفى بها عقوبة؛ فإن الخطرة تنقلب وسوسة، والوسوسة تصير إرادة، والإرادة تقوى فتصير عزيمة، ثم تصير فعلاً، ثم تصير صفةً لازمةً وهيئةً ثابتةً راسخة، وحينئذٍ يتعذر الخروج منها، كما يتعذر عليه الخروج من صفاته القائمة به.

والمقصود: أنه كلما اشتدت ملابسته للذنوب أخرجت من قلبه الغيرة على نفسه وأهله وعموم الناس، وقد تضعُف في القلب جداً حتى لا يستقبح بعد ذلك القبيح لا من نفسه ولا من غيره، وإذا وصل إلى هذا الحد فقد دخل في باب الهلاك.

وكثير من هؤلاء لا يقتصر على عدم الاستقباح، بل يحسن الفواحش والظلم لغيره، ويزينه له، ويدعوه إليه، ويحثه عليه، ويسعى له في تحصيله؛ ولهذا كان الديوث أخبث خلق الله، والجنة حرام عليه، وكذلك محلل الظلم والبغي لغيره ومزينه له؛ فانظر ما الذي حملت عليه قلة الغيرة.

وهذا يدلك على أن أصل الدين الغيرة، ومن لا غيرة له لا دين له؛ فالغيرة تحمي القلب؛ فتحمي له الجوارح؛ فتدفع السوء والفواحش، وعدم الغيرة تميت القلب؛ فتموت الجوارح؛ فلا يبقى عندها دفع ألبتة.

و مثل الغيرة في القلب مثل القوة التي تدفع المرض وتقاومه، فإذا ذهبت القوة وجد الداء المحل قابلاً، ولم يجد دافعاً؛ فتمكن؛ فكان الهلاك

ومثلها مثل صياصي الجاموس التي تدفع بها عن نفسه وولده، فإذا كسرت طمع فيه عدوّه.

١٩- ومن عقوبات الذنوب: أنها تضعف في القلب تعظيم الرب جل جلاله، وتضعف وقاره في قلب العبد ولا بُدَّ، شاء أم أبى.

ولو تمكن وقار الله وعظمته في قلب العبد لما تجرأ على معاصيه، وربما اغتر المغتر، وقال: إنما يحملني على المعاصي حسن الرجاء، وطمعي في عفوه، لا ضعف عظمته في قلبي.

وهذا من مغالطة النفس؛ فإن عظمة الله تعالى وجلاله في قلب العبد تقتضي تعظيم حرماته، وتعظيم حرماته يحول بينه وبين الذنوب، والمتجرئون على معاصيه ما قدروا الله حق قدره، وكيف يقدره حق قدره، أو يعظمه، أو يكبره، ويرجو وقاره، ويجله، من يهون عليه أمره ونهيه؟!

هذا من أمحل المحال، وأبين الباطل.

وكفى بالعاصي عقوبة أن يضمحل من قلبه تعظيم الله جل جلاله، وتعظيم حرماته، ويهون عليه حقه.

ومن بعض عقوبة هذا: أن يرفع الله عز وجل مهابته من قلوب الخلق، ويهون عليهم، ويستخفون به، كما هان عليه أمره واستخف به، فعلى قدر محبة العبد لله يحبه الناس، وعلى قدر خوفه من الله يخافه الخلق، وعلى قدر تعظيمه لله وحرماته يعظم الناس حرماته.

وكيف ينتهك عبد حرمات الله ويطمع أن لا ينتهك الناس حرماته؟

أم كيف يهون عليه حق الله ولا يهونه الله على الناس؟

أم كيف يستخف بمعاصي الله ولا يستخف به الخلق؟

وقد أشار سبحانه إلى هذا في كتابه عند ذكر عقوبات الذنوب، وأنه أركس أربابها بما كسبوا، وغطى على قلوبهم؛ فطبع عليها بذنوبهم، وأنه نسيهم كما نسوه، وأهانهم كما أهانوا دينه، وضيعهم كما ضيعوا أمره.

ولهذا قال تعالى في آية سجود المخلوقات له: ﴿وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكرِمٍ﴾ [الحج: ١٨]، فلما هان عليهم السجود له واستخفوا به ولم يفعلوه أهانهم الله؛ فلم يكن لهم من مكرم بعد أن أهانهم الله، ومن ذا يكرم من أهانه الله؟ أو يهين من أكرمه الله؟

٢٠- ومن فاته رفقة المؤمنين وحسن دفاع الله عنهم؛ فإن الله يدافع عن الذين آمنوا؛ فاته كل خير رتبه الله في كتابه على الإيمان، وهو نحو مئة خصلة منها خير من الدنيا وما فيها:

فمنها: الأجر العظيم: ﴿وَسَوفَ يُؤتِ اللَّهُ المُؤمِنِينَ أَجراً عَظِيماً﴾ [النساء:١٤٦].

ومنها: الدفع عنهم شرور الدنيا ولآخرة: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ امَنُوا﴾ [الحج:٣٨].

ومنها: استغفار الملائكة وحملة العرش لهم: ﴿الَّذِينَ يَحمِلُونَ العَرشَ وَمَن حَولَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمدِ رَبِّهِم وَيُؤمِنُونَ بِهِ وَيَستَغفِرُونَ لِلَّذِينَ امَنُوا﴾ [غافر: ٧].

ومنها: موالاة الله لهم، ولا يذل من والاه الله: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾، [البقرة: ٢٥٧].

ومنها: أمره ملائكته بتثبيتهم: ﴿إِذ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى المَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُم فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الأنفال: ١٢].

ومنهـا: أن لهـم الدرجـات عنـد ربهـم والمغفرة والرزق الكريم: ﴿لَّهُم دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِم وَمَغفِرَةٌ وَرِزقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤].

ومنهـا: العـزة: ﴿وَلِلَّـهِ العِـزَّةُ وَلِرَسُـولِهِ وَلِلمُؤمِنِـينَ وَلَـكِنَّ المُنَـافِقِينَ لاَ يَعلَمُونَ﴾، [المنافقون: ٨].

ومنهـا: معيـة الله لأهـل الإيمـان: ﴿وَأَنَّ اللَّـهَ مَعَ المُؤمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١٩].

ومنهـا: الرفعـة في الدنيا والآخرة: ﴿يَرفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُم وَالَّذِينَ أُوتُوا العِلمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

ومنهـا: إعطـاؤهم كفلين من رحمته، وإعطاؤهم نوراً يمشون به، ومغفرة ذنوبهم.

ومنهـا: الـود الـذي يجعله الله سبحانه لهم، وهو أنه يحبهم ويحببهم إلى ملائكته وأنبيائه وعباده الصالحين.

ومنهـا: أمـانهم مـن الخـوف يـوم يشـتد الخوف: ﴿وَمُنذِرِينَ فَمَن آمَنَ وَأَصلَحَ فَلاَ خَوفٌ عَلَيهِم وَلاَ هُم يَحزَنُونَ﴾ [الأنعام: ٤٨].

ومنهـا: أنهـم المنعـم عليهم الذين أمرنا أن نسأله أن يهدينا صراطهم في كل يوم وليلة سبع عشرة مرة.

ومنهـا: أن القـرآن إنمـا هـو هـدىً لهـم وشفاء: ﴿قُل هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُـدًى وَشِـفَاءٌ وَالَّذِيـنَ لاَ يُؤمِنُـونَ فِـي آذَانِهِـم وَقرٌ وَهُوَ عَلَيهِم عَمًى أُولَـئِكَ يُنَادَونَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤].

والمقصـود: أن الإيمـان سـبب جـالب لكـل خـير، وكل خير في الدنيا

والآخرة؛ فسببه الإيمان، وكل شر في الدنيا والآخرة؛ فسببه عدم الإيمان، فكيف يهون على العبد أن يرتكب شيئاً يخرجه من دائرة الإيمان، ويحول بينه وبينه، ولكن لا يخرج من دائرة عموم المسلمين؟ فإن استمر على الذنوب وأصر عليها خيف عليه أن يرين على قلبه، فيخرجه عن الإسلام بالكلية، ومن ههنا اشتد خوف السلف، كما قال بعضهم: أنتم تخافون الذنوب، وأنا أخاف الكفر.

٢١- ومن عقوباتها: أنها تضعف سير القلب إلى الله والدار الآخرة، أو تعوقه أو توقفه وتقطعه عن السير، فلا تدعه يخطو إلى الله خطوة، هذا إن لم ترده عن وجهه إلى ورائه، فالذنب يحجب الواصل، ويقطع السائر، وينكس الطالب، فالقلب إنما يسير إلى الله بقوته، فإذا مرض بالذنوب ضعفت تلك القوة التي تسيره، فإن زالت بالكلية انقطع عن الله انقطاعاً يصعب تداركه، والله المستعان.

فالذنب إما يميت القلب، أو يمرضه مرضاً مخوفاً، أو يضعف قوته، ولا بد حتى ينتهي ضعفه إلى الأشياء الثمانية التي استعاذ منها النبي ﷺ وهي: «**الهمّ والحزن، والعجز والكسل، والجبن والبخل، وضلع الدين وغلبة الرجال**»[١]، وكل اثنين منها قرينان.

فالهمُّ والحزن قرينان؛ فإن المكروه الوارد على القلب إن كان من أمر مستقبل يتوقعه؛ أحدث الهَمَّ، وإن كان من أمر ماض قد وقع؛ أحدث الحزن.

والعجز والكسل قرينان: فإن تخلف العبد عن أسباب الخير والفلاح،

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٠٨)، ومسلم (٢٧٠٦).

إن كان لعدم قدرته فهو العجز، وإن كان لعدم إرادته فهو الكسل.

والجبـن والبخـل قرينان، فإن عدم النفع منه إن كان ببدنه فهو الجبن، وإن كان بماله فهو البخل.

وضلـع الديـن وقهـر الرجـال قرينـان، فإن استعلاء الغير عليه إن كان بحق فهو من ضلع الدين، وإن كان بباطل فهو من قهر الرجال.

والمقصـود: أن الذنـوب مـن أقـوى الأسـباب الجالبـة لهـذه الأشـياء الثمانيـة؛ كمـا أنهـا من أقوى الأسباب الجالبة «لجهد البلاء، ودرك الشقاء، وسـوء القضـاء، وشـماتة الأعداء»[1]، ومن أقوى الأسباب الجالبة لزوال نِعَم الله، وتَحَوُّل عافيته، وفجأة نقمته، وجميع سخطه.

٢٢- ومـن عقوباتهـا: مـا يلقيـه الله سـبحانه مـن الرعب والخوف في قلب العاصي؛ فلا تراه إلا خائفاً مرعوباً.

فـإن الطاعـة حصـن الله الأعظم الذي من دخله كان من الآمنين من عقوبـة الدنيـا والآخرة، ومن خرج عنه أحاطت به المخاوف من كل جانب؛ فمـن أطـاع الله انقلبـت المخـاوف في حقـه أماناً، ومن عصاه انقلبت مآمنه مخـاوف؛ فلا تجد العاصي إلا وقلبه كأنه بين جناحي طائرٍ، إن حركت الريح البـاب قـال: جـاء الطلـب، وإن سـمع وقـع قـدم خـاف أن يكـون نذيـراً بـالعطب، يحسـب أن كل صيحة عليه، وكل مكروه قاصداً إليه؛ فمن خاف الله آمنه من كل شيء، ومن لم يخف الله أخافه من كل شيء:

لقد قضى اللهُ بين النّاس مذ خُلِقوا   أن المخاوفَ والإجرامَ في قَرَنِ

٢٣- ومـن عقوباتهـا: أنهـا تجرئ على العبد من لم يكن يتجرأ عليه

---

(١) مما كان يستعيذ رسول الله ﷺ منه؛ كما في صحيح مسلم (٢٧٠٧).

من أصناف المخلوقات؛ فتجترئ عليه الشياطين بالأذي والإغواء والوسوسة والتخويف والتحزين، وإنسائه ما به مصلحته في ذكره ومضرته في نسيانه؛ فتجترئ عليه الشياطين حتى تؤزه إلى معصية الله أزاً.

وتجترئ عليه شياطين الإنس بما تقدر عليه من أذاه في غيبته وحضوره، ويجترئ عليه أهله وخدمه وأولاده وجيرانه حتى الحيوان البهيم.

قال بعض السلف: «إني لأعصي الله؛ فأعرف ذلك في خلق امرأتي ودابتي».

وكذلك يجترئ عليه أولياء الأمر بالعقوبة التي إن عدلوا فيها أقاموا عليه حدود الله، وتجترئ عليه نفسه فتتأسد عليه وتستصعب عليه، فلو أرادها لخيرٍ لم تطاوعه ولم تنقد له، وتسوقه إلى ما فيه هلاكه؛ شاء أم أبى.

وذلك؛ لأن الطاعة حصن الرب تبارك وتعالى الذي من دخله كان من الآمنين.

فإذا فارق الحصن اجترأ عليه قطاع الطريق وغيرهم، وعلى حسب اجترائه على معاصي الله يكون اجتراء هذه الآفات والنفوس عليه، وليس له شيء يرد عنه، فإن ذكر الله وطاعته، والصدقة، وإرشاد الجاهل، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر؛ وقاية ترد عن العبد بمنزلة القوة التي ترد المرض وتقاومه، فإذا سقطت القوة غلب وارد المرض فكان الهلاك، فلا بد للعبد من شيء يرد عنه.

فإن موجب السيئات والحسنات تتدافع، ويكون الحكم للغالب، وكلما قوي جانب الحسنات كان الرد أقوى، فإن الله يدافع عن الذين آمنوا، والإيمان قولٌ وعملٌ، فبحسب قوة الإيمان يكون الدفع، والله المستعان.

٢٤- ومن عقوباتها: أنها تنسي العبد نفسه، وإذا نسي نفسه أهملها وأفسدها وأهلكها.

فإن قيل: كيف ينسى العبد نفسه؟ وإذا نسي نفسه فأي شيء يذكر؟ وما معنى نسيانه نفسه؟

قيل: نعم ينسى نفسه أعظم نسيان، قال الله العظيم: ﴿**وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُم أَنفُسَهُم أُولَـئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ**﴾ [الحشر: ١٩].

فلما نسوا ربهم سبحانه نسيهم وأنساهم أنفسهم؛ كما قال الله تعالى: ﴿**نَسُوا اللَّـهَ فَنَسِيَهُم**﴾ [التوبة: ٦٧]؛ فعاقب سبحانه من نسيه عقوبتين:

إحداهما: أنه سبحانه نسيه.

والثانية: أنه أنساه نفسه.

ونسيانه سبحانه للعبد وإهماله وتركه وتخليه عنه وإضاعته؛ فالهلاك أدنى إليه من اليد للفم، وأما إنساؤه نفسه فهو إنساؤه لحظوظها العالية، وأسباب سعادتها وفلاحها وصلاحها وما تكمل به نفسه، ينسيه ذلك جميعه، فلا يخطره بباله، ولا يجعله على ذكره، ولا يصرف إليه همته فيرغب فيه، فإنه لا يمر بباله حتى يقصده ويؤثره.

وأيضاً؛ فينسيه عيوب نفسه ونقصها وآفاتها؛ فلا يخطر بباله إزالتها وإصلاحها.

وأيضاً؛ ينسيه أمراض نفسه وقلبه وآلامها؛ فلا يخطر بقلبه مداواتها، ولا السعي في إزالة عللها وأمراضها التي تؤول به إلى الفساد والهلاك، فهو مريض مثخن بالمرض، ومرضه مترام به إلى التلف، ولا يشعر بمرضه، ولا

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

يخطر بباله مداواته، وهذا من أعظم العقوبة العامة والخاصة.

فـأي عقوبـةٍ أعظـم مـن عقوبـة مـن أهمـل نفسـه وضيعهـا، ونسـي مصالحهـا وداءهـا ودواءهـا، وأسـباب سـعادتها وفلاحهـا وصلاحها وحياتها الأبدية في النعيم المقيم.

ومـن تـأمل هـذا الموضع تبين له أن أكثر هذا الخلق قد نسوا أنفسهم حقيقـةً وضيعوهـا وأضاعوا حظها من الله، وباعوها رخيصةً بثمن بخس بيع الغبـن، وإنمـا يظهـر لهـم هـذا عنـد المـوت، ويظهـر هـذا كـل الظهور يوم التغـابن، يـوم يظهـر للعبـد أنـه غُبِـنَ في العقـد الذي عقده لنفسه في هذه الـدار، والتجـارة التـي اتَّجـر فيهـا لمعاده، فإن كل أحد يتجر في هذه الدنيا لآخرته»[(١)] أ.هـ مختصراً.

الفـائدة السـابعة الأربعـون: جواز الحلف من غير استحلاف في غير الدعوى عند القاضي.

ويدل على ذلك حلف كعب في عدة مواطن:

منهـا: «والله مـا اجتمعـت عنـدي قبله راحلتان قط حتى جمعتهما في تلك الغزوة».

ومنهـا: «فقلـت: بلى، إني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني ليوشكن الله أن يسخطك علي».

ومنها: «فوالله ما زالوا يؤنبونني حتى أردت أن أرجع فأكذب نفسي».

ومنها: «والله لا أستأذن فيها رسو ل الله ﷺ».

ومنها: «فوالله ما رد علي السلام».

---

(١) «الداء والدواء» (ص ٦٥- وما بعدها).

ومنها: «والله ما قام إلي رجل من المهاجرين غيره».

ومنهـا: «فـو الله مـا أعلـم أحـداً مـن المسـلمين أبـلاه الله في صـدق الحديث».

ومنهـا: «فـوالله مـا أنعـم الله علـي مـن نعمـة قـط بعـد أن هدانـي للإسلام...».

وكذلـك قـول امـرأة هـلال بـن أمية: «إنه والله ما به حركة إلى شيء، والله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا».

كـل هذه المواقف حلف ولم يستحلف الحالف وإنما حلف لتأكيد ما عنده من الحق.

ولذلـك ذكـر الحـافظ ابـن حجـر في فوائـد حديـث كعـب: «الحلـف للتأكيد من غير استحلاف»[(١)].

وعليـه؛ فإن النهي عن الحلف دون استحلاف؛ كما في حديث عمران ابـن حصـين رضـي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ: **«خيركم قرني ثم الذي يلونهـم -قـال عمـران: لا أدري أذكـر النبـي ﷺ بعـد قرنين أو ثلاثة- قال النبـي ﷺ: إن بعدكـم قومـاً يخونون ولا يؤتمنون، ويشهدون ولا يستشهدون، وينذرون ولا يوفون، ويظهر فيهم السِّمن»**[(٢)].

أقـول: يحمـل هـذا النهـي علـى الدعوى عند القاضي قبل استحلافه لأن السـياق يـدل عليها وهو قوله ﷺ: «ويستشهدون»؛ أي: قبل أن تطلب شهادتهم مما يدل على دعوى قائمة، والله أعلم.

---

(١) فتح الباري (٨/ ١٢٣).

(٢) أخرجه البخاري (٢٦٥١)، ومسلم (٢٥٣٥).

ويخـرج مـن هـذا النهي أيضاً من علم شهادة ولم يعلم بها صاحبها كـأن رأى رجلاً يقتـل رجـلاً أو يغصبه ماله فله أن يسارع إلى الشهادة قبل أن يسألها.

وعلـى هـذه الحال حمل بعض أهل العلم حديث زيد بن خالد عن النبـي ﷺ: «**ألا أخـبركم بخـير الشـهداء؟ الـذي يـأتي بالشـهادة قبـل أن يسألها**»[1].

قـال الحـافظ ابن حجر رحمه الله: «المراد بحديث زيد من عنده شهادة لإنسـان بحـق لا يعلـم صاحبهـا بهـا؛ فيـأتي إليـه؛ فيخـبره بها، أو يموت صاحبهـا العـالم بهـا ويخلـف ورثـه؛ فيـأتي الشاهد إليه من يتحدث عنهم؛ فيعلمهم بذلك».

الفائدة الثامنة والأربعون: مسارقة النظر في الصلاة لا يبطلها

إذا لحـظ المصلـي بعينـه يمينـاً أو شـمالاً من غير أن يلوي عنقه جاز، يـدل علـى ذلـك قـول كعـب رضـي الله عنه: «آتي رسول الله ﷺ؛ فأسلم عليـه وهـو في مجلسـه بعـد الصـلاة؛ فـأقول في نفسي: هل حرك شفتيه برد السـلام علـي أم لا ؟ ثم أصلي قريباً منه؛ فأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي، أقبل إلي، وإذا التفت نحوه أعرض عني».

و قـد ثبـت هـذا مـن فعـل رسـول الله ﷺ؛ فعـن عبد الله بن عباس رضـي الله عنهمـا قـال: «**كان رسول الله ﷺ يلحظ في صلاته يميناً وشمالاً ولا يلوي عنقه خلف ظهره**»[2].

---

(١) أخرجه مسلم (١٧١٩).

(٢) **صحيح** - أخرجه الترمذي (٥٨٨)، وابن خزيمة (٤٨٥) وغيرهم.

قلت: إسناده صحيح.

وأما أن يلوي المصلي عنقه من غير ضرورة فهو التفات منهي عنه، واختلاس يختلسه الشيطان في صلاة العبد، ونقص يذهب الخشوع والخضوع.

وقد ورد جملة من الأحاديث المصرحة بتحريم ذلك، منها:

١- حديث عائشة رضي الله عنها قالت: سألت رسول الله ﷺ عن الإلتفات في الصلاة؛ فقال: «**هو اختلاس**[١] **يختلسه الشيطان من صلاة العبد**»[٢].

٢- حديث الحارث الأشعري رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «**إن الله أمر يحيي بن زكريا بخمس كلمات: أن يعمل بها ويأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها، وإنه كاد أن يبطئ بها؛ فقال عيسى: إن الله أمرك بخمس كلمات لتعمل بها وتأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها؛ فإما أن تأمرهم، وإما أنا آمرهم، فقال يحيى: أخشى إن سبقتني بها أن يخسف بي أو أعذب، فجمع الناس في بيت المقدس، فامتلأ المسجد وقعدوا على الشرف، فقال: إن الله أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهن، وآمركم أن تعملوا بهن: أولهن: أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وإن مثل من أشرك بالله كمثل رجل اشترى عبداً من خالص ماله بذهب أو ورق، فقال: هذه داري وهذا عملي فاعمل وأد إلي، فكان يعمل ويؤدي إلى غير سيده، فأيكم يرضي أن يكون عبده كذلك؟ وإن الله أمركم بالصلاة، فإذا صليتم فلا تلتفتوا؛ فإن الله ينصب وجهه لوجه عبده في صلاته مالم يلتفت، وآمركم بالصيام؛ فإن مثل ذلك مثل رجل في عصابة معه صرة فيها مسك، فكلهم يعجب أو يعجبه ريحها، وإن ريح الصائم أطيب عند الله من ريح المسك، وآمركم**

---

(١) هو الاختطاف بسرعة على حين غفلة.

(٢) أخرجه البخاري (٧٥١).

بالصدقة؛ فإن مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو، فأوثقوا يده إلى عنقه وقدموه ليضربوا عنقه، فقال أنا أفدية منكم بالقليل والكثير، ففدى نفسه منهم، وآمركم أن تذكروا الله؛ فإن مثل ذلك كمثل رجل خرج العدو في أثره سراعاً حتى إذا أتى على حصن حصين فأحرز نفسه منهم، كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله.

قال النبي ﷺ: «وأنا آمركم بخمس الله أمرني بهن: السمع، والطاعة، والجهاد، والهجرة، والجماعة؛ فإن من فارق الجماعة قيد شبر؛ فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه إلا أن يرجع[١]، ومن ادعى دعوى الجاهلية فإنه من جثا[٢] جهنم»، فقال رجل: يا رسول الله وإن صلى وصام؟ قال: «وإن صلى وصام، فادعوا بدعوى الله الذي سماكم: المسلمين، المؤمنين؛ عباد الله»[٣].

---

(١) يتوب إلى الله عز وجل.

(٢) الشيء المجموع، والمراد: من أهلها.

(٣) صحيح - أخرجه الترمذي (٢٨٦٣ و ٢٨٦٤)، وأحمد (٤/ ٢٠٢)، والحاكم (١/ ٤٢١) وابن حبان (٦٢٠٠)، والطيالسي (١١٦١).

من طريق يحيى بن أبي كثير عن زيد بن سلام عن جده ممطور عن الحارث الأشعري مرفوعاً.

قلت: هذا إسنادٌ صحيح.

تنبيه:

قال الدكتور العتر في تعليقاته على «النخبة» (ص٣٣): «وهذا إسناد صحيح؛ إلا ما يُخشى من تدليس يحيى بن أبي كثير على ثقته وجلالته؛ وإلا ما يخشى من وهم أبي خلف، فإنه كانت له أوهام، لكن هذا ينجبر هنا».

قلت: كلامه فيه نظر من وجوه:

أ- صرح يحيى بن أبي كثير بالتحديث عند ابن حبان، والحاكم (١/ ١١٨). =

٣- حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: «**نهاني خليلي عن ثلاث، نهاني: أن أنقر نقر الديك، وأن التفت التفات الثعلب، أو أقعي إقعاء السبع**[(١)]»[(٢)].

وقد فرق أهل العلم بين مسارقة النظر والالتفات؛ فقال الحاكم في «المستدرك على الصحيحين» (١/ ٢٣٧): «وهذا الالتفات غير ذلك؛ فإن الالتفات المباح أن يلحظ بعينه يميناً وشمالاً».

الفائدة التاسعة والأربعون: وجوب خدمة المرأة زوجها

يدل على ذلك قول كعب رضي الله عنه: «إذا رسول رسول الله ﷺ

=وتابعه معاوية بن سلام: حدثني أخي زيد بن سلام عن جده ممطور عن الحارث به.

أخرجه البيهقي (٢/ ٢٨٢).

ب- أما أبو خلف؛ فتابعه أبان عند: الترمذي، وابن حبان، والطيالسي، وغيرهم.

ت- اقتصر الدكتور على طريق أحمد، ولم يتتبع طرق الحديث... ولا يجسر على الحكم على الأحاديث دون التتبع والاستقراء؟!

ث- ذكر أن وهم أبي خلف ينجبر، لكنه لم يذكر ما يجبره.

(١) و في رواية: «القرد» وفي رواية أخرى «الكلب».

والإقعاء المنهي عنه هو: أن يلزق الرَّجل إليته بالأرض، وينصب ساقيه، ويضع يديه بالأرض؛ كما يقعي الكلب أو القرد أو السبع على دبره.

وأما وضع المصلي أليتيه على عقبيه بين السجدتين؛ فسنة صحيحة؛ كما دل عليها حديث عبد اله بن عباس رضي الله عنهما عند مسلم، وحديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عند الترمذي، وثبت فعلها عن جمع من الصحابة رضي الله عنهما؛ كابن عباس وابن عمر.

(٢) **حسن لغيره** - أخرجه أحمد (٢/ ٢٦٥و٣١١)، وأبو يعلى (٢٦١٩)، والبيهقي (٢/ ١٢٠) من طرق عنه. =

يـأتيني، فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك، فقلت: أطلقها أم مـاذا؟ قـال: لا ولكـن اعتزلهـا ولا تقربهـا، وأرسـل إلى صـاحبي مثل ذلك، فقلـت لامرأتـي: إلحقـي بـأهلك، فكونـي عندهـم حتى يقضي الله في هذا الأمـر، فجـاءت امرأة هلال بن أمية، فقالت: يا رسول الله إن هلال بن أمية شـيخ ضـائع ليس لـه خـادم فهـل تكـره أن أخدمـه؟ قـال: «**لا، ولكـن لا يقربنـك**»، قـالت: إنه والله ما به حركة إلى شيء، والله ما زال يبكي منذ كـان مـن أمـره ما كان إلى يومه هذا، قال كعب: فقال لي بعض أهلي: لو اسـتأذنت رسـول اللـه ﷺ فـي امرأتـك كمـا أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه».

وقـد دلت سنة رسول الله ﷺ على وجوب خدمة المرأة لزوجها والقيام بحقوق بيتها من ذلك:

١- عـن حصـين بـن محصن قال: حدثتني عمتي قالت: أتيت رسول الله ﷺ في بعض الحاجة؛ فقال: «**أي هذه أذات بعل؟**» قالت: نعم، قال: «**كيـف أنـت لـه؟**» قالت: ما آلوه[(١)] إلا ما عجزت عنه، قال: «**فانظري أي أنت منه؟ فإنما هو جنتك ونارك**»[(٢)].

٢- عـن أسـماء بنـت أبـي بكر رضي الله عنها قالت: تزوجني الزبير

=قلت: وهي وإن كانت لا تخلو من مقال؛ فهو بمجموعها حسن، والله أعلم.

(١) لا أقصر في طاعته وخدمته والقيام على شؤون بيته.

(٢) **صحيـح** - أخرجـه النسـائي في«عشـرة النسـاء» (٧٦ و٧٧ و٧٨ و٧٩ و٨٠ و٨١ و٨٢ و٨٣)، وأحمـد (٤/ ٣٤١)، وابـن أبـي شيبة في «المصنـف» (٤/ ٣٠٤)، وابن سـعد في «الطبقـات الكـبرى» (٨/ ٤٥٩)، والحـاكم (٢/ ١٨٩)، والبيهقـي في «السنن الكـبرى» (٧/ ٢٩١) و«الآداب» (ص٦٣)، وابـن عساكر (١٦/ ٣١/ ١)، بإسناد صححه الحاكم ووافقه الذهبي وشيخنا، وجوّد إسناده المنذري.

وماله في الأرض من مال ولا مملوك وشيء غير فرسه.

قالت: فكنت أعلف فرسه وأكفيه مؤنته، وأسوسه، وأدق النوى لناضحه، وأعلفه، وأستقي الماء، وأخرز غَرْبَه[(١)]، وأعجن، ولم أكن أحسن الخبز، وكان يخبز لي جارات من الأنصار، وكن نسوة صدق، قالت: وكنت أنقل النوى من أرض الزبير التي أقطعه رسول الله ﷺ على رأسي، وهي على ثلثي فرسخ.

قالت: فجئت يوماً والنوى على رأسي، فلقيت رسول الله ﷺ ومعه نفر من أصحابه، فدعاني ثم قال: «إخ إخ»؛ ليحملني خلفه.

قالت: فاستحييت وعرفت غيرتك.

فقال: والله لحملك النوى على رأسك أشد من ركوبك معه.

قالت: حتى أرسل لي أبو بكر بعد ذلك بخادم؛ فكفتني سياسة الفرس، فكأنما اعتقني[(٢)].

٣- عن علي رضي الله عنه: أن فاطمة عليها السلام شكت ما تلقى من أثر الرحى، فأتى النبي ﷺ بسبي، فانطلقت، فلم تجده، فوجدت عائشة فأخبرتها، فلما جاء النبي ﷺ أخبرته عائشة بمجيء فاطمة، فجاء النبي ﷺ إلينا وقد أخذنا مضاجعنا؛ فذهبت لأقوم، فقال: «**على مكانكما**» فقعد بيننا حتى وجدت برد قدميه على صدري وقال: «**ألا أعلمكما خيراً مما سألتماني؟ إذا أخذتما مضاجعكما تكبران أربعاً وثلاثين، وتسبحان ثلاثاً وثلاثين، وتحمدان ثلاثاً وثلاثين، فهو خير لكما من خادم**»[(٣)].

---

(١) هو الدلو الكبير.

(٢) أخرجه البخاري (٥٢٢٤)، ومسلم (٢١٨٢) واللفظ له.

(٣) أخرجه البخاري (٣٧٠٥)، ومسلم (٢٧٢٧).

هذه الأحاديث وغيرها كثير ظاهرة الدلالة على وجوب خدمة المرأة زوجها في حدود قدرتها، ويدخل في ذلك الخدمة المنزلية، وتربية الأولاد ونحوه.

وقد اختلف أهل العلم في هذه المسألة:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في «مجموع الفتاوى»: «وتنازع العلماء هل عليها أن تخدمه في مثل فراش المنزل، ومناولته الطعام والشراب، والخبز والطحين والطعام لمماليكه وبهائمه، مثل علف دابته ونحو ذلك؟.

فمنهم من قال: لا تجب الخدمة، وهذا القول ضعيف؛ كضعف من قال: لا تجب عليه العشرة والوطء، فإن هذا ليس معاشرة له بالمعروف بل الصاحب في السفر الذي هو نظير الانسان وصاحبه في السكن؛ إن لم يعاونه على مصلحته؛ لم يكن قد عاشره بالمعروف.

و قيل -وهو الصواب-: وجوب الخدمة؛ فإن الزوج سيدها في كتاب الله، وهي عانية عنده بسنة رسول الله ﷺ وعلى العاني والعبد الخدمة، لأن ذلك هو المعروف.

ثم من هؤلاء من قال: تجب الخدمة اليسيرة، ومنهم من قال: تجب الخدمة بالمعروف، وهذا هو الصواب، فعليه أن تخدمه الخدمة المعروفة في من مثلها لمثله، ويتنوع ذلك بتنوع الأحوال؛ فخدمة البدوية ليست كخدمة القروية، وخدمة القوية ليست كخدمة الضعيفة».

و قال ابن قيم الجوزية رحمه الله في «زاد المعاد» (٥/ ١٨٦- ١٨٩): «قال ابن حبيب[١] في «الواضحة»: حكم النبي ﷺ بين علي بن أبي

---

(١) هو أبو مروان عبد الملك بن حبيب بن سليمان السلمي العباسي الأندلسي=

طالب رضي الله عنه وبين زوجته فاطمة رضي الله عنها حين اشتكيا إليه الخدمة؛ فحكم على فاطمة بالخدمة الباطنة خدمة البيت، وحكم على علي بالخدمة الظاهرة.

ثم قال ابن حبيب: والخدمة الباطنة: العجين، والطبيخ، والفرش، وكنس البيت، واستقاء الماء، وعمل البيت كله.

وفي «الصحيحين»(١): أن فاطمة رضي الله عنها أتت النبي ﷺ تشكو إليه ما تلقى في يديها من الرحى، وتسأله خادماً فلم تجده، فذكرت ذلك لعائشة رضي الله عنه، فلما جاء رسول الله ﷺ أخبرته، قال علي: فجاءنا وقد أخذنا مضاجعنا، فذهبنا نقوم، فقال: «**مكانكما**»، فجاء فقعد بيننا حتى وجدت برد قدميه على بطني، فقال: «**ألا أدلكما على ما هو خير لكما مما سألتما، إذا أخذتما مضاجعكما فسبحا الله ثلاثاً وثلاثين، واحمدا ثلاثاً وثلاثين، وكبرا أربعاً وثلاثين، فهو خير لكما من خادم**».

قال علي: فما تركتها بعد، قيل: ولا ليلة صفين؟ قال: ولا ليلة صفين.

وصحَّ عن أسماء: أنها قالت: كنت أَخدم الزبير خدمة البيت كله،

=القرطبي المالكي، ولد في حياة الإمام مالك، أحد أئمة الفقه، ولم يكن متقناً للحديث صنف كتباً مثل: «الواضحة»، و«الجامع» و«تفسير الموطأ» و«حروب الإسلام».

توفي سنة (٢٣٨هـ)، وقيل (٢٣٩هـ).

ترجمته في: «ترتيب المدارك» (٣/ ٣٠، ٤٨)، و«الديباج المذهب» (٢/ ٨، ١٥، ١٠٠)، و«نفح الطيب» (١/ ٤٦و٢/ ٥،٨)، و«سير أعلام النبلاء» (١٢/ ١٠٢)، و«شذرات الذهب» (٢/ ٩٠).

(١) تقدم تخريجه (ص ١٧٧).

وكان له فرس، وكنت أسوسه، وكنت أَحتش له، وأقوم عليه[١].

وصحَّ عنها: أنها كانت تعلف فرسه، وتسقي الماء، وتخرز الدلو، وتعجن، وتنقل النوى على رأسها من أرض له على ثلثي فرسخ[٢].

فاختلف الفقهاء في ذلك؛ فأوجب طائفةٌ من السلف والخلف خدمتها له في مصالح البيت، وقال أبو ثور: عليها أن تخدم زوجها في كل شيء.

ومنعت طائفة وجوب خدمته عليه في شيء، وممن ذهب إلى ذلك مالك، والشافعي، وأبو حنيفة، وأهل النظر، قالوا: لأن عقد النكاح إنما اقتضى الاستمتاع، لا الاستخدام وبذل المنافع، قالوا: والأحاديث المذكورة إنما تدل على التطوع ومكارم الأخلاق، فأين الوجوب منها؟

واحتج من أوجب الخدمة، بأن هذا هو المعروف عند من خاطبهم الله سبحانه بكلامه، وأما ترفيه المرأة، وخدمة الزوج، وكنسه وطحنه، وعجنه، وغسيله، وفرشه، وقيامه بخدمة البيت، فمن المنكر، والله تعالى يقول **﴿ولهن مثل الذي عليهم بالمعروف﴾** [البقرة: ٢٢٨]، وإذا لم تخدمه المرأة بل يكون هو الخادم لها فهي القوامة عليه.

وأيضاً؛ فإن المهر في مقابلة البضع، وكل من الزوجين يقضي وطره من صاحبه، فإنما أوجب الله سبحانه نفقتها وكسوتها ومسكنها في مقابلة استمتاعه بها وخدمتها، وما جرت به عادة الأزواج.

وأيضاً؛ فإن العقود المطلقة إنما تنزل على العرف، والعرف خدمة المرأة، وقيامها بمصالح البيت الداخلة وقولهم: إن خدمة فاطمة وأسماء

---

(١) **صحيح** - أخرجه أحمد (٦/ ٣٥٢) وهو صحيح.

(٢) **صحيح** - أخرجه أحمد (٦/ ٣٤٧) وهو صحيح.

كـانت تبرعـاً وإحسـاناً يرده أن فاطمة كانت تشتكي ما تلتقي من الخدمة، فلـم يقـل لعلـي: لا خدمـة عليها، وإنما هي عليك، وهو ﷺ لا يحابي في الحكـم أحـداً، ولما رأى أسماء والعلف على رأسها، والزبير معه، لم يقل له: لا خدمـة عليهـا، وأن هـذا ظلـم لهـا، بل أقره على استخدامها، وأقر سائر أصحابـه علـى استـخدام أزواجهـم مـع علمه بأن منهن الكارهة والراضية، هذا أمر لا ريب فيه.

ولا يصـح التفريـق بـين شريفة ودنيئة، وفقيرة وغنية، هذه أشرف نساء العـالمين كـانت تخدم زوجها، وجاءته ﷺ تشكو إليه الخدمة فلم يشكها، وقد سـمى النبـي ﷺ في الحديـث الصحيـح المـرأة عانيـة؛ فقـال: «**اتقوا الله في النساء؛ فإنهن عندكم عوان**»[(١)].

والعـاني: الأسـير، ومرتبة الأسير خدمة من هو تحت يده، ولا ريب: أن النكـاح نـوع مـن الرق؛ قال بعض السلف: «النكاح رق فلينظر أحدكم من يرق كريمته».

ولا يخفى على المنصف الراجح من المذهبين، والأقوى من الدليلين» أ. هـ

وقـال شـيخنا حفظـه الله في «آداب الزفـاف» (ص٢١٦- ٢١٨): «ولم نجـد لمـن قال بعدم الوجوب دليلاً صالحاً، وقول بعضهم: «إن عقد النكاح إنمـا اقتضـى الاسـتمتاع لا الاسـتخدام» مردود بأن الاستمتاع حاصل للمرأة أيضـاً بزوجهـا، فهمـا متسـاويان في هذه الناحية، ومن المعلوم أن الله تبارك وتعـالى قـد أوجـب علـى الـزوج شـيئاً آخـر لزوجته ألا وهو نفقتها وكسوتها

(١) **صحيـح لغيره**- أخرجه الترمذي (١١٦٣ و٣٠٨٧)، وابن ماجه (١٨٥١) من حديث عمرو بن الأحوص.

وله شاهد من حديث عم أبي صرة الرقاشي أخرجه أحمد (٥/ ٧٢-٧٣).

قلت: فالحديث صحيح بمجموع ذلك.

ومسكنها؛ فالعدل يقتضي أن يجب عليها مقابل ذلك شيء آخر أيضاً لزوجها، وما هو إلا خدمتها إياه، ولا سيما أنه القوام عليها بنص القرآن الكريم، وإذا لم تقم هي بالخدمة فسيضطر هو إلى خدمتها في بيتها، وهذا يجعلها هي القوامة عليه، وهوعكس الآية القرآنية كما لا يخفى، فثبت أنه لا بد لهامن خدمته، وهذا هو المراد.

وأيضاً؛ فإن قيام الرجل بالخدمة يؤدي إلى أمرين متباينين تمام التباين؛ أن ينشغل الرجل بالخدمة عن السعي وراء الرزق وغير ذلك من المصالح، وتبقى المرأة في بيتها عاطلاً عن أي عمل يجب عليها القيام به[١]، ولا يخفى فساد هذا في الشريعة التي سوّت بين الزوجين في الحقوق بل وفضلت الرجل عليها درجة، ولهذا لم يزل الرسول ﷺ شكوى ابنته فاطمة عليها السلام (وذكر الحديث) فأنت ترى أن النبي ﷺ لم يقل لعلي: لا خدمة عليها، وإنما هي عليك، وهو ﷺ لا يحابي في الحكم أحداً.

هذا وليس فيما سبق من وجوب خدمة المرأة لزوجها ما ينافي استحباب مشاركة الرجل لها في ذلك إذا وجد الفراغ والوقت، بل هذا من حسن المعاشرة بين الزوجين، ولذلك قالت السيدة عائشة رضي الله عنها: «**كان ﷺ يكون في مهنة أهله**: **يعني**: **خدمة أهله؛ فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة**» أ.هـ

الفائدة الخمسون: يستحب لمن رأى من يريد أن يتصدق بكل ماله، ويخاف عليه أن لا يصبر أن ينهاه عن ذلك، ويشير عليه ببعضه.

ويدل على ذلك قول رسول الله ﷺ لكعب: «**أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك**».

---

(١) قلت: وقد تخرج حينئذٍ من بيتها؛ لتعمل كما هو حال كثير من نساء عصرنا، ويحدث حالتئذ فتنة وفساد عريض؛ كما هو مشاهد رأى العين، نسأل السلامة من الخزي والندامة.

وقد نهى رسول الله ﷺ سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه عندما أراد أن يتصدق بثلثي ماله.

عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: جاءني رسول الله ﷺ يعودني عام حجة الوداع في وجع اشتد بي؛ فقلت: يا رسول الله قد بلغ بي الوجع ما ترى، وأنا ذو مال ولا يرثني إلا ابنة لي، أفأتصدق بثلثي مال، قال: «**لا**» قال: فالشطر يارسول الله؟ فقال: «**لا**» قال: فالثلث يا رسول الله؟ قال: «**الثلث كثير: إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس**»(١).

الفائدة الواحدة والخمسون: جواز طلب أموال الكفار من ذوي الحرب بعد إباحة الغنيمة.

ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحدَى الطَّائِفَتَينِ أَنَّهَا لَكُم وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيرَ ذَاتِ الشَّوكَةِ تَكُونُ لَكُم وَيُرِيدُ اللَّه أَن يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقطَعَ دَابِرَ الكَافِرِينَ لِيُحِقَ الحَقَّ وَيُبطِلَ البَاطِلَ وَلَو كَرِهَ المجرِمُونَ**﴾ [الأنفال: ٧، ٨].

لما سمع رسول الله ﷺ بأبي سفيان مقبلاً من الشام ندب المسلمين إليهم قائلا: «**هذه عير قريش فيها أموالهم؛ فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها**».

ولهذا قال الله تعالى: ﴿**وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيرَ ذَاتِ الشَّوكَةِ تَكُونُ لَكُم**﴾؛ أي: تحبون أن الطائفة التي لا حد لها ولا مشقة ولا قتال تكون لكم، وهي: العير.

وشاهد ذلك في حديث كعب قوله: «خرجوا يريدون عير قريش».

(١) أخرجه البخاري (١٢٩٥)، ومسلم (١٦٢٨).

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفائدة الثانية والخمسون: جواز استعارة الثياب للبس.

وهذا واضح في قول كعب رضي الله عنه: «فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني نزعت له ثوبَيّ فكسوته إياهما ببشراي والله ما أملك غيرها، واستعرت ثوبين فلبستهما».

ومما يدل على ذلك في السنة النبوية الصحيحة حديث أم عطية رضي الله عنها قالت: «**أمرنا رسول الله ﷺ أن نخرجهن في الفطر والأضحى العواتق**[١] **والحُيَّض وذوات الخدور**[٢]**؛ فأما الحيَّض؛ فيعتزلن الصلاة، ويشهدن الخير ودعوة المسلمين**»[٣].

قلت: يا رسول الله إحدانا لا يكون لها جلباب، قال: «**لتلبسها أختها من جلبابها**[٤]»[٥].

الفائدة الثالثة والخمسون: جواز العارية

ومما يدل على ذلك حديث كعب بن مالك قوله: «فاستعرت ثوبين».

وقد ذم الله الذين يمنعون ما ينفع الناس، فقال تعالى: ﴿**فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ وَالَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ يَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ**﴾، [الماعون: ٤- ٧].

قال ابن كثير رحمه الله في «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٥٩٤) «أي: لا أحسنوا عبادة ربهم، ولا أحسنوا إلى خلقه حتى ولا بإعارة ما ينتفع به

---

(١) جمع عاتق، وهي: الجارية أول البلوغ.

(٢) النساء المتحجبات في بيوتهن فلا يخرجن.

(٣) يحضرن مجالس الخير واجتماع المسلمين.

(٤) لتلبسها جلباباً لا تحتاجه عارية.

(٥) أخرجه البخاري (٩٨٠)، ومسلم (٨٩٠) (١٢).

ويستعان به مع بقاء عينه ورجوعه إليهم».

وقال ابن العربي في «أحكام القرآن» (٤/ ١٩٨٥): «كما بينا أن الماعون من العون كان كل ما ذكره العلماء في تفسيره عوناً، وأعظمه الزكاة إلى المحلاب، وعلى قدر الماعون والحاجة إليه يكون الذم في منعه، إلا أن الذم إنما هو على المنع الواجب، والعارية ليست بواجبة على التفصيل بل إنها واجبة على الجملة، والله أعلم».

وعن صفوان بن أمية رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ استعار منه أدراعاً يوم حنين فقال: أغصب يا محمد؟ فقال ﷺ: «**لا، بل عارية مضمونة**»[(١)].

الفائدة الرابعة والخمسون: استحباب اجتماع الناس عند إمامهم وكبيرهم في الأمور الهامة من بشارة ونذارة ومشورة.

فقد اجتمع أصحاب رسول الله ﷺ عنده عندما نزلت توبة الله على إخوانهم الثلاثة؛ فقال كعب رضي الله عنه: «فانطلقت إلى رسول الله ﷺ؛ فتلقاني الناس فوجاً فوجاً يهنئونني بالتوبة، يقولون: لتهنك توبة الله عليك، حتى إذا دخلت المسجد فإذا رسول الله ﷺ جالس حوله الناس».

وهذه الفائدة تؤخذ من قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾ [النور: ٦٢].

ووجه الدلالة: أن الله مدح المؤمنين الذين يكونون مع النبي ﷺ على

---

(١) «الصحيحة» (٦٣١).

أمر جامع من صلاة جمعة أو عيد أو اجتماع مشورة.

قال ابن كثير رحمه الله في «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٣١٨): «وهذا أدب أرشد الله عباده المؤمنين إليه؛ فكما أمرهم بالاستئذان عند الدخول، كذلك أمرهم بالاستئذان عند الانصراف لا سيما إذا كانوا في أمر جامع مع الرسول ﷺ في صلاة جمعة أو عيد أو اجتماع في مشورة ونحو ذلك أمرهم أن لا يتفرقوا عنه والحالة هذه إلا بعد استئذانه ومشاوته، وإن من يفعل ذلك فإنه من المؤمنين الكاملين».

وقال القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٣٢٠): «واختلف في الأمر الجامع ماهو؛ فقيل: المراد به ما للإمام من حاجة إلى جمع الناس فيه لإذاعة مصلحة من إقامة سنة في الدين أو لترهيب عدو باجتماعهم وللحروب».

وقال البقاعي في «نظم الدرر» (٥/ ٢٨٨): ﴿عَلَى أَمرٍ جَامِعٍ﴾؛ أي: لهم على الله؛ كالجهاد، والإعداد له، والتشاور فيما بينهم، وصلاة الجمعة ونحو ذلك».

الفائدة الخامسة والخمسون: جواز تخصيص اليمين بالنية

يجوز تخصيص اليمين بالنية؛ فإذا حلف لا مال له ونوى نوعاً لم يحنث بنوع من المال غيره.

وإذا حلف لا يأكل ونوى خبزاً لم يحنث باللحم والتمر وسائر المأكول، ولا يحنث إلا بذلك النوع.

ولذلك لو حلف لا يكلم زيداً ونوى كلاماً مخصوصاً لم يحنث بتكليمه إياه غير ذلك الكلام المخصوص.

ودليلـه قول كعب في الثوبين: «والله لا أملك غيرهما» وإنما مراده من الثيـاب؛ لأنـه قـال بعـده: «إن مـن توبتـي أن انخلع من مالي صدقة»، ثم قال: «فإني أمسك سهمي الذي بخيبر»؛ فتبين أن له مالاً كثيراً، والله أعلم.

الفـائدة السادسـة والخمسون: استحباب الورع والاحتياط إذا خشي الوقوع في منهي عنه.

ينبغـي تـرك ومجانبـة مـا يخـاف منـه الوقوع في محرم أو مكروه؛ لأن ما أفضـى إلى ذلـك فهـو كذلـك، ولذلـك فمـن كمـال إيمـان العبـد الـورع والاحتيـاط بمجانبـة ذلـك؛ لأن كعبـاً رضـي الله عنـه لم يسـتأذن في خدمـة امرأتـه لـه كمـا اسـتأذن هلال في امرأته وعلل ذلك بقوله: «والله لا أستأذن فيهـا رسـول الله ﷺ ومـا يدرينـي مـا يقول رسول الله ﷺ إذا استأذنته فيها وأنا رجل شاب».

والأخـذ بـالأحوط في هـذا البـاب أصـل مـن أصـول الديـن؛ كما في حديـث النعمـان بـن بشـير رضـي الله عنهمـا قـال: سمعت رسول الله ﷺ يقـول: «**إن الحـلال بَيِّـن، وإن الحـرام بَيِّـن، وبينهمـا أمـور مشـتبهات، لا يعلمهـن كثير مـن النـاس؛ فمن اتقى الشبهات؛ فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومـن وقـع في الشـبهات؛ وقـع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يوقـع فيـه، ألا وإن لكـل ملك حمى، ألا وإن حمى الله محارمه، ألا وإن في الجسـد مضغـة إذا صلحـت صلـح الجسـد كلـه، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب**»(١).

قـال الحـافظ ابـن رجـب رحمـه الله في «جـامع العلـوم والحكـم» (ص١١٩-المنتقـى): «ويستدل بهذا الحديث من يذهب إلى سد الذرائع إلى

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢) ومسلم (١٥٩٩).

المحرمات، وتحريم الوسائل إليها، ويدل على ذلك أيضاً من قواعد الشريعة: تحريم قليل ما يسكر كثيره، وتحريم الخلوة بالأجنبية، وتحريم الصلاة بعد الصبح وبعد العصر سداً للذريعة، والصلاة عند طلوع الشمس وعند غروبها، ومنع الصائم من المباشرة إذا كانت تتحرك شهوته، ومنع كثير من العلماء مباشرة الحائض فيما بين سرتها وركبتها، إلا من وراء حائل؛ كما كان ﷺ يأمر امرأته إذا كانت حائضاً أن تتزر فيباشرها من فوق الإزار.

ومعلوم أن من تجاسر على ارتكاب ما يخاف منه الوقوع في مكروه أو محرم أوشك أن يقع في الحرام المحض؛ كما في رواية لهذا الحديث: «**ومن اجترأ على ما يشك فيه من الإثم أوشك أن يواقع ما استبان**»[(١)] وفي أخرى: «**من يخالط الريبة يوشك أن يجسر**»[(٢)].

الفائدة السابعة والخمسون: الشاب أجلد من الشيخ

فقد أخبر كعب عن صاحبيه بأنهما استكانا في بيوتهما، وأنه ليس كذلك، وعلل ذلك: بأنه شاب جلد، فقال: «فأما صاحباي؛ فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا؛ فكنت أشب القوم وأجلدهم، فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين، وأطوف في الأسواق».

وبهذا يتبين: أن الشاب أقوى، ولذلك انتدب الشيخان: أبو بكر وعمر، رضي الله عنهما لجمع القرآن شاباً عاقلاً؛ هو: زيد بن ثابت رضي الله عنه، حيث قال: «أرسل إلى أبو بكر مقتل أهل اليمامة وعنده عمر، فقال: إن عمر أتاني، فقال: إن القتل قد استحر يوم اليمامة بالناس، وإني

---

(١) عند البخاري (٢٠٥١).

(٢) عند أبي داود (٣٣٢٩)، والنسائي (٨/ ٣٢٧).

أخشى أن يستحر القتل بالقرّاء في المواطن، فيذهب كثير من القرآن؛ إلا أن تجمعوه، وإني لأرى أن تجمع القرآن، قال أبو بكر: قلت لعمر: كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ؟ فقال عمر: هو -والله- خير، فلم يزل عمر يراجعني فيه حتى شرح الله لذلك صدري، ورأيت الذي رأى عمر - قال زيد بن ثابت وعمر جالس لا يتكلم -، فقال أبو بكر: إنك شاب عاقل، ولا نتهمك، وكنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ، فتتبع القرآن فاجمعه، فوالله لو كلفني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علي مما أمرني به من جمع القرآن...» الحديث[(١)].

وكذلك انتدب رسول الله ﷺ لمبارزة كفار قريش يوم بدر شباب.

عن علي رضي الله عنه، قال: تقدم عتبة بن ربيعة وتبعه ابنه وأخوه، فنادى: من يبارز؟ فانتدب له شباب من الأنصار، فقال: من أنتم؟ فأخبروه، فقال: لا حاجة لنا فيكم، إنما أردنا بني عمنا فقال رسول الله ﷺ: «**قم ياحمزة، قم يا علي، قم يا عبيدة بن الحارث**»، فأقبل حمزة إلى عتبة، وأقبلت إلى شيبة، واختلف بين عبيدة والوليد ضربتان، فأثخن كل واحد منهما صاحبه، ثم ملنا على الوليد فقتلناه، واحتملنا عبيدة[(٢)].

الفائدة الثامنة والخمسون: الشيخ أملك لأربه.

فرق كعب بن مالك بين الشاب والشيخ؛ بالنسبة لأمور النساء، فقد علل عدم استئذانه لرسول الله ﷺ في أمر امرأته -كما فعل هلال بن أمية- بأنه شاب.

وهذا التفريق موجود في السنة النبوية الصحيحة.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٦٧٩).

(٢) صحيح- أخرجه أبو داود (٢٦٦٥) بإسناد صحيح.

١- عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، قال: كنا عند النبي ﷺ، فجاءه شاب، فقال: يا رسول الله أُقَبِّل وأنا صائم؟ قال: «**لا**»، فجاء شيخ، فقال: أُقبل وأنا صائم؟ قال: «**نعم**»، قال: فنظر بعضنا إلى بعض، فقال رسول الله ﷺ: «**إن الشيخ يملك نفسه**»[(١)].

٢- عن ابن عباس رضي الله عنه قال: «**رُخِّص للشيخ وهو صائم ونُهِي الشاب**»[(٢)].

٣- وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رجلاً سأل النبي ﷺ عن المباشرة للصائم؟ فرخص له، وأتاه آخر؛ فنهاه، فإذا الذي رخص له شيخ، والذي نهاه شاب[(٣)].

الفائدة التاسعة والخمسون: جواز السؤال بالله في غير الأمور الدنيوية.

ويدل على ذلك قول كعب: «يا أبا قتادة أنشدك بالله هل تعلمني أحب الله ورسوله؟ فسكت، فعدت مناشدته، فسكت، فعدت مناشدته».

وقد وردت أحاديث في النهي عن السؤال بوجه الله؛ منها:

١- عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**ملعون من سأل بوجه الله، وملعون من سئل بوجه الله ثم منع**

---

(١) حسن لغيره- أخرجه أحمد (٢/ ١٨٥و٢٢١)، وفيه ابن لهيعة، وهو ضعيف ولكن يشهد له ما بعده.

(٢) حسن- أخرجه الطبراني في «الكبير» (١١٠٤٠)، وفيه حبيب بن أبي ثابت، وهو مدلس، وقد عنعنه.

وله طريق آخر عند الطبراني (١٠٦٠٤) وفيه عطية العوفي وهو ضعيف؛ فهو بهما حسن.

(٣) حسن- أخرجه أبو داود (٢٣٨٧).

سائله ما لم يسأله هجرًا[(١)]»[(٢)].

وهـذا محمول على تحريم سؤال شيءٍ من أمور الدنيا؛ بوجه الله تعالى؛ لأن قائلـه يسـتحق اللعـن، وإنمـا قيدتـه بـأمور الدنيـا؛ لأن رسول الله ﷺ استعاذ بوجه الله ولم يفعل ذلك في شيء من عرض الدنيا.

ومـا ذاك إلا لأن الإكثـار مـن السـؤال بوجه الله في أمر من أمور الدنيا ابتذال لاسم الله سبحانه وتعالى.

وقـد ثبـت عن عطاء: أنه كره أن يسأل بوجه الله أو بالقرآن شيءٌ من أمور الدنيا[(٣)].

الفائدة الستون: إيثار محبة الله ورسوله على ما سواهما.

وهذا ظاهر في عدة مواقف؛ منها:

عـدم رَدّ أبـي قتادة السلام حين سلم عليه كعب بن مالك -وهو ابن عمه- ولم يكلمه حين نهي عن ذلك.

عـدم نطـق المسـلمين باسـم كعب بن مالك عندما سأل عنه النبطي النصراني الذي يحمل كتاب ملك غسان.

اعتزال المخلفين الثلاثة نساءهم حين أمروا بذلك.

ولـما كـانت المحبـة ميـل القلـب بكليـة إلى المحبوب؛ كان ذلك الميل حـاملاً علـى الطاعـة والتعظيـم، وكلما كان الميل أقوى كانت الطاعة أتم،

---

(١) أمراً قبيحاً لا يليق.

(٢) **حسـن**- أخرجـه ابـن عسـاكر (٨/ ٣٩٧/ ٢) وغـيره بإسـناد حسن؛ كما قال العراقي والهيثمي والسيوطي.

(٣) **صحيح**- أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٤/ ٦٨) بإسناد صحيح.

والتعظيم أوفر.

وهذا الميل يلازم الإيمان، بل هو روحه ولُبّه، فأي شيءيكون أعلى من أمر يتضمن أن يكون الله ورسوله أحب الأشياء إلى العبد وأولى الأشياء بالتعظيم وأحقها بالطاعة؟

عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار**»[1].

وهذا المقام لا يتربع على قلب العبد إلا بأمور:

١ - أن يكون الله ورسوله ﷺ أحب الأشياء إلى العبد.

وبيانه:

أ- أن تسبق محبة الله ورسوله إلى القلب كل محبة؛ فتتقدم جميع المحاب كلها؛ لقوله تعالى: ﴿**قُل إِن كَانَ آبَاؤُكُم وَأَبنَاؤُكُم وَإِخوَانُكُم وَأَزوَاجُكُم وَعَشِيرَتُكُم وَأَموَالٌ اقتَرَفتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخشَونَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرضَونَهَا أَحَبَّ إِلَيكُم مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأتِيَ اللَّهُ بِأَمرِهِ وَاللَّهُ لا يَهدِي القَومَ الفَاسِقِينَ**﴾، [التوبة: ٢٤].

عن أنس رضي الله عنه أن رسو الله ﷺ قال: «**لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين**»[2].

عن عبدالله بن هشام قال: كنا مع النبي ﷺ وهو آخذ بيد عمر بن

---

(١) أخرجه البخاري (٢١)، ومسلم (٤٣).

(٢) أخرجه البخاري (١٥)، ومسلم (٤٤) (٧٠).

الخطاب؛ فقال له عمر: يا رسول الله لأنت أحب إلى من كل شيء إلا من نفسي؛ فقال النبي ﷺ: «**لا والذي نفسي بيده، حتى أكون أحب إليك من نفسك**»؛ فقال له عمر: فإنه الآن، والله لأنت أحب إلي من نفسي؛ فقال النبي ﷺ: «**الآن ياعمر**»(١).

إن هذه العقيدة الربانية لا تحتمل لها في قلب العبد شريكاً، فإما تجرد لها، وإما انسلاخ منها.

وها هي النصوص الصريحة تضع بين يديك أيها العبد المحب ألوان الوشائج: الآباء، الأبناء، الإخوان، الأهل، والعشيرة؛ وشائج الدم، والنسب، والقرابة، والزواج، وجميع المطامع: الأموال، والتجارة؛ مطمع الدنيا وزينتها، وكل الرغبات: المساكن المريحة، متاع الحياة ولذتها في كفه، والعقيدة ومقتضياتها: حب الله ورسوله، والجهاد في سبيل الله في الكفة الأخرى؛ فإن رجحت الثانية، وطاشت الأولى، فذلك محض الإيمان وإلا فتربصوا حتى يأتي الله بأمره، فتتعرضوا لمصير الفاسقين، والله لا يهدي القوم الفاسقين.

وليس المراد أن ينقطع العبد عن الأهل، والعشيرة، والزوج، والولد، والمال، والعمل، والمتاع، واللذة كلا فإن هذه العقيدة تريد أن يخلص لها قلب العبد، فتكون هي الدافعة الفاعلة، فإن تم لها هذا، فلا حرج عندئذٍ أن يستمتع العبد بالطيبات، على أن يكون العبد مستعداً لنبذها كلها في حالة تعارضها مع مقتضيات العقيدة.

وهذا التكليف بهذا الفهم، هو الذي تطيقه الفطرة البشرية، وإنه لمن رحمة الله أن أودع في عباده هذه القدرة من التجرد والاحتمال، وغرس في فطرهم الشعور بحلاوة علوية لذلك الإيمان لا تعدلها لذائذ الأرض الفانية

---

(٢) أخرجه البخاري (٦٦٣٢).

جميعاً.

حلاوة الإيمان بالله، ولذة الرجاء في رضوان الله، وطعم الاستعلاء على الضعف والهبوط، والارتفاع إلى مقامات المتقين.

ب- أن تقهر محبة الله ورسوله كل محبة، فتكون محبة الله ورسوله في القلب ظافرة، ومحبة غيره متخلفة، مقهورة، مغلوبة، منطوية في محبة الله ورسوله.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتخِذُ مِن دُونِ اللَّه أَندَاداً يُحِبُّونَهُم كَحُبِ اللَّه وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّه وَلَو يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذ يَرَونَ العَذَابَ أَنَّ القُوَّةَ لِلَّه جَمِيعاً وَأَنَّ اللَّه شَدِيدُ العَذَاب. إِذ تَبَرأَ الَّذِينَ اتُبِعُوا مِنَ الَّذِين اتَّبَعُوا وَرَأَوا العَذَابَ وَتَقَطَّعَت بِهِمُ الأسبَاب. وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَو أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأُ مِنهُم كَمَا تَبَرَّؤُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّه أَعمَالَهُم حَسَرَاتٍ عَلَيهِم وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّار﴾ [البقرة:١٦٥-١٦٧].

نعم إن حب الله ورسوله في قلوب المؤمنين أشد من كل حب، بل المؤمنين لا يحبون شيئاً كحبهم لله ورسوله؛ لا أنفسهم، ولا سواهم، ولا اعتبارات، ولا شارات، ولا قيماً أرضية يلهث وراءها المنقطعون عن قافلة الإيمان.

فالمؤمنون يحبون الله حباً مطلقاً من كل موازنة، ومن كل قيد، فهم أشد حباً لله من كل حب يتجهون به إلى سواه.

ولكن الذين ظلموا... ظلموا الحق؛ لأنهم أعطوا ثمرة قلوبهم وصفقة أيديهم لغير أهلها... وظلموا أنفسهم؛ فوضعوها مسخرة للأنداد الذين أضلوهم السبيل.

هؤلاء الأتباع، لو مدوا أبصارهم ليوم تشخص فيه الأبصار... لو

تطلعوا بقلوبهم ليوم تبلغ فيه القلوب الحناجر، ذلكم يوم الوعيد، يوم يرون العذاب الذي ينتظر الظالمين الذين أحبوا الأنداد كحبهم لله.

يومئذ فلا شركاء، ولا أنداد، لقد تبرأ المتبوعون من التابعين، فتقطعت جميع الأواصر، وانكسرت قيم الأرض، وعجزت عن وقاية نفسها، فضلاً عن حماية أتباعها... وظهرت قوة الله وقدرته... أن القوة لله جميعاً.

وفي هذا المقام يوحشك الناس كلهم إلا الغرباء في العالم، فإياك أن تستوحش من الاغتراب والتفرد، فإنه والله عين العزة والصحبة مع الله ورسوله، وروح الأنس بالله، والرضى به رباً، وبمحمد ﷺ رسولاً، وبالإسلام ديناً.

بل الصادق كلما وجد مس الاغتراب، وذاق حلاوته، وتنسم روحه، قال: اللهم زدني اغتراباً، ومنك اقتراباً، وأنساً بك، وكلما ذاق حلاوة هذا الاغتراب، وهذا التفرد، رأى الوحشة عين الأنس بالناس، والذل عين العزة بهم، والجهل عين الوقوف على آرائهم وزبالة أذهانهم، والانقطاع عين التقيد برسومهم وأوضاعهم؛ فلم يؤثر بنصيبه من الله أحداً من الخلق، ولم يبع حظه من الله بموافقتهم فيما لا يجدي إلا الحرمان، وغايته:مودة بينهم في الحياة الدنيا، فإذا انقطعت الأسباب، وحقت الحقائق، وبعثر ما في القبور، وحصل ما في الصدور، وبليت السرائر، ولم يجد من دون الله مولاه الحق قوة ولا ناصر، تبين له حينئذٍ مواقع الربح، ومواطن الخسران، وما الذي يخف أو يرجح في الميزان، والله المستعان، وعليه التكلان.

٢- أن يكون الله عز وجل ورسوله ﷺ أولى الناس بالتعظيم:

قال تعالى: ﴿**إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا**﴾ [الفتح: ٨، ٩].

إن رسول الله ﷺ شاهد على هذه البشرية التي أرسل إليها، يشهد أنه بلغها رسالة ربه، وأنها استقبلته بما استقبلته؛ فمنها المؤمنون المخلصون، وكثير كافرون ومنافقون، فيؤدي النبي ﷺ الشهادة كما بلغ الرسالة.

وهو بشير خير ومغفرة للمؤمنين، ونذير بسوء المنقلب والغضب واللعنة للعصاة المفسدين.

هذه هي وظيفة الرسول ﷺ ثم يلتفت النص القرآني إلى المؤمنين؛ ليكشف لهم عن الغاية المرجوة من إيمانهم بالرسالة: إنها النهوض بالتكاليف نصرة وتعظيماً وإجلالاً آناء الليل وأطراف النهار؛ ليبقى المرء متصلاً قلبه مع ربه في كل آن؛ ليذوق ثمرة الإيمان، ويجد حلاوته المرجوة للمؤمنين، الذين لا يقدمون بين يدي الله ورسوله.

٣- أن يكون الله ورسوله أولى الأشياء بالطاعة:

قال تعالى: ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

ويقال في التعظيم والطاعة كما قيل في المحبة.

الفائدة الواحدة والستون: من عوقب بالهجر يعذر في التخلف عن صلاة الجماعة.

قال ابن قيم الجوزية: «أن هلال بن أمية ومرارة قعدا في بيوتهما وكانا يصليان في بيوتهما، ولا يحضران الجماعة، وهذا يدل على أن هجران المسلمين للرجل عذر يبيح التخلف عن الجماعة.

أو يقال: من تمام هجرانه أن لا يحضر جماعة المسلمين.

لكن يقال: فكعب كان يحضر الجماعة ولم يمنعه النبي ﷺ، ولا عتب

عليهما على التخلف.

وعلى هذا فيقال: لما أمر المسلمون بهجرهم تركوا: لم يؤمروا، ولم ينهوا، ولم يكلموا، فكان من حضر منهم الجماعة لم يمنع، ومن تركها لم يكلم.

أو يقال: لعلهما ضعفاء وعجزاً عن الخروج، ولهذا قال كعب: وكنت أنا أجلد القوم وأشبهم، فكنت أخرج، فأشهد الصلاة مع المسلمين»[1].

الفائدة الثانية والستون: تحقيق رضوان الله هو رأس مال العبد وسبيل نجاته؛ فمن أرضى الله في سخط الناس كفاه الله مؤنة الناس، ومن أرضى الناس في سخط الله وكله الله إليهم.

وهذا ظاهر جلي في قول كعب لرسول الله ﷺ: «ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به علي ليوشكن الله أن يسخطك علي، ولئن حدثتك حديث صدق تجد فيه إني لأرجو فيه عفو الله».

عن عبدالوهاب بن الورد عن رجل من أهل المدينة قال: كتب معاوية إلى عائشة: أن اكتبي لي كتاباً توصيني فيه، ولا تكثري علي، قال: فكتبت عائشة إلى معاوية: سلام الله عليك، أما بعد؛ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس، ومن التمس رضا الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس**»[2].

قال ابن أبي العز الحنفي: «ولا بد لكل عبد أن يتقي أشياء؛ فإنه لا يعيش وحده، ولو كان ملكاً مطاعاً فلا بد أن يتقي أشياء يراعي بها رعيته،

---

(١) «زاد المعاد»، (٣/ ٥٨٠).

(٢) صحيح - أخرجه الترمذي (٢٤١٤)، وصححه شيخنا في الصحيحة

فحينئذٍ فلا بد لكل إنسان أن يتقي، فإن لم يتق الله اتقى المخلوق، والخلق لا يتفق حبهم كلهم وبغضهم، بل الذي يريده هذا يبغضه هذا، فلا يمكن أرضاؤهم كلهم.

كما قال الشافعي رضي الله عنه: رضى الناس غاية لا تدرك، فعليك بالأمر الذي يصلحك فالزمه، ودع ما سواه فلا تعانه.

فإرضاء الخلق لا مقدور ولا مأمور، وإرضاء الخالق مقدور ومأمور، وأيضاً؛ فالمخلوق لا يغني عنه من الله شيئاً، فإذا اتقى العبد ربه كفاه مؤنة الناس»(١).

قال ابن الجوزي رحمه الله في «صيد الخاطر» (ص ٤٢٤- ٤٢٨): «العاقل من يحفظ جانب الله عز وجل، وإن غضب الخلق؛ وكل من يحفظ جانب المخلوقين، ويضيع حق الخالق؛ يقلب الله قلب الذي قصد أن يرضيه، فيسخطه عليه.

قال المأمون لبعض أصحابه: لا تعص الله بطاعتي؛ فيسلطني عليك.

ولما بالغ طاهر بن الحسين فيما فعل بالأمين، وفتك به، وصلب رأسه، وإن كان ذلك عن إرادة المأمون، ولكن بقي أثر ذلك في قلبه، فكان المأمون لا يقدر أن يراه.

ولقد دخل عليه يوماً؛ فبكى المأمون، فقال له طاهر: لم تبكي؛ لا أبكي الله عينك؛ فلقد دانت لك البلاد؟ فقال: أبكي لأمر ذكره ذل، وسره حزن، ولن يخلو أحد من شجن، فلما خرج طاهر؛ أنفذ إلى حسين الخادم مئتي ألف درهم، وسأله أن يسأل المأمون: لم بكى؟ فلما تغدى المأمون؛ قال: يا حسين أسقني. قال: لا والله؛ لا أسقيك حتى تقول لم بكيت حين

(١) «شرح العقيدة الطحاوية» (ص٢٦٧).

دخل عليك طاهر؟ قال: يا حسين وكيف عنيت بهذا حتى سألت عنه؟ قال: لغمي بذلك. قال: يا حسين أمر إن خرج من رأسك؛ قتلتك. قال: يا سيدي ومتى أخرجت لك سراً؟ قال: إني ذكرت أخي محمداً وما ناله من الذلة، فخنقتني العبرة، فاسترحت إلى إفاضتها، ولن يفوت طاهراً مني ما يكره، فأخبر حسين طاهراً بذلك، فركب طاهر إلى أحمد بن أبي خالد، فقال له: إن المعروف عندي ليس بضائع؛ فغيبني عن عينه. قال: سأفعل. فدخل على المأمون، فقال: ما بت البارحة، قال: ولم؟ قال: لأنك وليت غسان بن عباد خراسان، وهو ومن معه أكلة رأس، فأخاف أن يخرج خارج من الترك فيصطلمه. قال: فمن ترى؟ قال: طاهر بن الحسين. فعقد له، فمضى، فبقي مدة، ثم انقطع الدعاء للمأمون على المنبر يوم الجمعة، فقال: له صاحب البريد: ما دعوت لأمير المؤمنين. قال: سهو؛ فلا تكتب؛ ففعل ذلك في الجمعة الثانية والثالثة، فقال له: لا بد أن أكتب؛ لئلا يكتب التجار ويسبقوني. قال: أكتب؛ فكتب؛ فدعا المأمون أحمد بن أبي خالد، وقال: إنه لم يذهب علي احتيالك في أمر طاهر، وأنا أعطي الله عهداً؛ إن لم تشخص حتى توافيني به كما أخرجته من قبضتي لتذمن عقباك، فشخص، وجعل يتلوم في الطريق، ويعتل بالمرض، فوصل إلى الرَّيِّ وقد بلغته وفاة طاهر.

قلت: ولما خرج الراشد من بغداد، وأرادوا تولية المقتفى؛ شهد جماعة من الشهود بأن الراشد لا يصلح للخلافة، فنزعوه، وولوا المقتفى، فبلغني أنه ذكر للمقتفى بعض الشهود، فذمه، وقال: كان فيمن أعان على أبي جعفر.

وعلى ضد هذا كل من يراعي جانب الحق والصواب؛ يرضى عنه

من سخط عليه.

ولقد حدثني الوزير ابن هبيرة: أن المستنجد بالله كتب إليه كتاباً وهو يومئذ ولي عهد، وأراد أن يستره من أبيه. قال: فقلت للواصل به: والله؛ ما يمكنني أقرأه. ولا أجيب عنه. فلما ولى الخلافة؛ دخلت عليه فقلت: أكبر دليل على صدقي وإخلاصي أني ما حابيتك في أبيك. فقال: صدقت؛ أنت الوزير.

وحدثني بعض الأصدقاء أن قوماً ألحقوا إلى المخزن بعض دين لهم ليستخلص، فقال المسترشد لصاحب المخزن: خلصه لهم وخذ ما ضمنوا لنا؛ فأحضر ابن الرطبي وعرض الأمر عليه؟ فقال: هذا أمر بظلم، وما أحكم فيه. فقال: إن السلطان قد تقدم. قال: ماذا أفعل؟ فأحضر قاضياً آخر، فبت الحكم، فأخبر الخليفة بالحال، فقال: أما ابن الرطبي؛ فيشكر على ما قال، وأما الآخر؛ فيعزل؛ وذلك لأنه بان له أن الحق ما قاله ابن الرطبي.

وكذلك ما طلبه السلطان من أن يلقب ملك الملوك، فاستفتى الفقهاء، فأجازوا ذلك، وامتنع من إجازته الماوردي، فعظم قدره عند السلطان.

ومثل هذا إذا تتبع كثير.

فينبغي أن يحسن القصد في طاعة الخالق، وإن سخط المخلوق؛ فإنه يعود صاغراً، ولا يسخط الخالق؛ فإنه يسخط المخلوق، فيفوت الحظان جميعا»أ.هـ

الفائدة الثالثة والستون: القوة في الكلام والبراعة في المخاطبة ليس

دليلاً على صدق المتحدث وصحة الحجة.

قال كعب: «يا رسول الله إني لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا رأيت أني سأخرج من سخطه بعذر؛ لقد أعطيت جدلاً».

ولذلك حذر الرسول ﷺ المتخاصمين من ذلك؛ فعن أم سلمة زوج النبي ﷺ: أن رسول الله ﷺ سمع جلبة خصم بباب حجرته؛ فخرج إليهم؛ فقال: «**إنما أنا بشر، وإنه يأتيني الخصم، فلعل بعضهم يكون أبلغ من بعض، فأحسب أنه صادق؛ فأقضي له، فمن قضيت له بحق مسلم، فإنما هي قطعة من النار، فليحملها أو يذرها**»(١).

الفائدة الرابعة والستون: جواز إحراق ورقة فيها ذكر الله تعالى لمصلحة.

وموضع الدلالة: أن كعباً أحرق كتاب ملك غسان وفيه: «لم يجعلك الله بدار هوان».

وقد أحرق عثمان رضي الله عنه والصحابة المصاحف التي هي غير المصحف الإمام الذي أجمعت الأمة عليه، وكان ذلك صيانة لكتاب الله وحفظاً له.

الفائدة الخامسة والستون: المبادرة إلى اتلاف ما يخشى منه الفساد والمضرة في الدين.

قال ابن قيم الجوزية رحمه الله: «وقوله: فتيممت بالصحيفة التنور؛ فيه المبادرة إلى إتلاف ما يخشى منه الفساد والمضرة في الدين، وأن الحازم لا ينتظر به ولا يؤخره وهذا كالعصير إذتخمّر، وكالكتاب الذي يخشى منه الضرر

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٨٠)، ومسلم (١٧١٣) (٥) واللفظ له.

والشر، فالحزم المبادرة إلى إتلافه وإعدامه»(١).

الفائدة السادسة الستون: فائدتان في التفسير.

الأولى: قال ابن قيم الجوزية رحمه الله وقوله تعالى: ﴿**وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا**﴾ [التوبة: ١١٨] قد فسرها كعب بالصواب، وهو: أنهم خُلِّفوا من بين من حلف الرسول ﷺ، واعتذر من المتخلفين؛ فخلف هؤلاء الثلاثة عنهم، وأرجأ أمرهم دونهم، وليس ذلك لتخلفهم عن الغزو؛ لأنه لو أراد ذلك لقال: تخلفوا؛ كما قال تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ**﴾ [التوبة: ١٢٠]، وذلك لأنهم تخلفو بأنفسهم بخلاف تخليفهم عن المتخلفين سواهم، فإن الله سبحانه هو الذي خلفهم عنهم، ولم يتخلفوا عنه بأنفسهم، والله أعلم»(٢).

الثانية: قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ**﴾ [التوبة: ٧٩] فسرها كعب بأنه أبو خيثمة الأنصاري، ولم يتنبه جل المفسرين إلى حديث كعب غير ما أورده ابن جرير الطبري في «تفسيره» (١٠/ ١٣٦) حدثني يونس قال أخبرنا ابن وهب قال أخبرني يونس عن ابن شهاب قال أخبرني عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب يقول: الذي تصدق بصاع التمر؛ فلمزه المنافقون أبو خيثمة الأنصاري.

قلت: وقد ورد أيضاً أنه الحبحاب أبو عقيل؛ كما في «الصحيحين»(٣) وهذا يدل على تعدد من جاء بالصاع؛ كما صرح بذلك الحافظ في «فتح الباري» (٨/ ٣٣١).

---

(١) «زاد المعاد» (٣/ ٥٨١).

(٢) «زاد المعاد» (٣/ ٥٩٢-٥٩٣).

(٣) أخرجه البخاري (١٤١٥)، ومسلم (١٠١٨) (٧٢).

الفائدة السابعة والستون: القوي في الدين يؤاخذ بأشد مما يؤاخذ به الضعيف.

وهذا ظاهر في مخاطبة رسول الله ﷺ لكعب عندما جلس بين يديه فقال له:«ما خلفك؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك؟».

الفائدة الثامنة والستون: الخطأ والنسيان المحترز عنهما بالعمد غير مؤاخذ به الإنسان وهما لا ينقضان الالتزام.

ودليله قول كعب: «والله ما تعمدت كذبة منذ قلت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا».

الفائدة الثامنة والستون: تفضيل الشيء على نفسه باعتبار تعدد الزمان والمكان.

ومثاله: تفضيل الكحل حال كونه في عين زيد مثلاً على نفسه حال كونه في عين غيره باعتبار تعدد المكان في قولهم: ما رأيت أحداً أحسن في عينه الكحل منه في عين زيد.

ودلالة ذلك في حديث كعب قوله: «لم أكن قط أقوى وأيسر مني حين تخلفت عنه في تلك الغزوة».

الفائدة السبعون: إذا أحب الله عبداً عجل عقوبته في الدنيا.

قال ابن قيم الجوزية رحمه الله تعالى: «وفي نهي النبي ﷺ عن كلام هؤلاء الثلاثة من بين سائر من تخلف عنه دليل على صدقهم وكذب الباقين، فأراد هجر الصادقين وتأديبهم على هذا الذنب، أما المنافقون، فجرمهم أعظم من أن يقابل بالهجر، فدواء هذا المرض لا يعمل في مرض

النفاق، ولا فائدة فيه، وهكذا يفعل الرب سبحانه بعباده في عقوبات جرائمهم؛ فيؤدب عبده المؤمن الذي يحبه وهو كريم عنده بأدنى زلة وهفوة، فلا يزال مستيقظاً حذراً، وأما من سقط من عينه وهان عليه فإنه يخلي بينه وبين معاصيه، وكلما أحدث ذنباً أحدث له نعمة، والمغرور يظن أن ذلك من كرامته عليه، ولا يعلم أن ذلك عين الإهانة، وأنه يريد به العذاب الشديد، والعقوبة التي لا عاقبة معها؛ كما في الحديث المشهور: **«إذا أراد الله بعبد خيراً عجل له عقوبته في الدنيا؛ وإذا أراد بعبد شراً أمسك عنه عقوبته في الدنيا؛ فيرد يوم القيامة بذنوبه»**[(١)].

---

(١) حسن بشواهده - أخرجه الترمذي (٢٣٩٦)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (ص١٩٦)، وابن عدي في «الكامل» (٣/ ١١٩٢) وغيرهم من طريق الليث عن زيد بن أبي حبيب عن سعد بن سنان عن أنس رضي الله عنه مرفوعاً.

قال الترمذي: حسن غريب.

قلت: رجاله ثقات غير سعد بن سنان، وقد اختلف الرواة فيه؛ فبعضهم يرويه هكذا، وآخرون على القلب، وهذا الذي استصوبه البخاري، فقد ذكره فيمن اسمه سنان من «التاريخ الكبير» (٤/ ١٦٣-١٦٤).

وسعد بن سنان هذا قال فيه النسائي: «منكر الحديث، وقال الجوزجاني «أحاديثه واهية»، وقال أحمد بن حنبل: «تركت حديثه؛ لأن حديثه مضطرب غير محفوظ»، وقال مرة أخرى: «لم أكتب أحاديث سنان بن سعد لأنهم اضطربوا فيها»، وأورده الدارقطني في «الضعفاء»، وقال يحيى بن معين: «ثقة».

قلت: أنّى له الصدق بعد ما تقدم؛ ولذلك قال الذهبي في «الكاشف»: «ليس بحجة» ولكنه ليس بالمتروك؛ لأن المتروك من اتفق الحفاظ على تضعيفه وهذا ليس كذلك، ولقد رأيت أوسط الأقوال فيه ما ذكره ابن عدي في الكامل (٣/ ١١٩٣): «وهذه الأحاديث ومتونها وأسانيدها والاختلاف فيها يحمل بعضها بعضاً، وليس هذه الأحاديث مما يجب أن تترك أصلاً كما ذكره ابن حنبل: أنه ترك الأحاديث للاختلاف=

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفائدة الواحدة السبعون: التورية في القصد عند الغزو؛ لأن الحرب خدعة.

وهذا ظاهر جلي في قول كعب: «فكان رسول الله ﷺ قلما يريد غزوة وإلا ورى بغيرها».

وفي رواية: «كان يقول: الحرب خدعة»(١).

الفائدة الثانية والسبعون: جواز ترك وطء الزوجة مدة ولا يعد ذلك إيلاء.

ودلالته في ترك المخلفين وطء زوجاتهم مدة حيث نهوا عن ذلك.

قال كعب: «حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذ رسول

=الذي فيه من سعد بن سنان وسنان بن سعد؛ لأن في الحديث، وفي أسانيدها ما هو أكثر اضطراباً من هذه الأسانيد، ولم يتركه أحد أصلاً بل أدخلوه في مسندهم وتصانيفهم»؛ ولذلك فهذا إسناد ضعيف، لكن للحديث شواهد يتقوى بها منها:

١- حديث عبد الله بن المغفل رضي الله عنه: أخرجه أحمد (/ ٨٧)، وابن حبان (٢٩١١-الإحسان)، والحاكم (١/ ٣٤٩و٤/ ٣٧٦-٣٧٧)، والبيهقي في «الأسماء الصفات» (ص١٩٦) من طريق الحسن عنه مرفوعاً، ورجاله ثقات، لكن الحسن مدلس، وقد عنعنه.

٢- حديث ابن عباس رضي الله عنهما: أخرجه الطبراني (١١٨٤٢)، وفيه عبدالرحمن بن محمد العرزمي، وهو ضعيف؛ كما قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ١٩١-١٩٢).

٣- حديث عمار بن ياسر رضي الله عنه؛ عزاه الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ١٩٢) للطبراني، وجوّد إسناده.

قلت: بهذه الشواهد يصير الحديث حسناً، والله أعلم.

(١) أخرجه الطبراني (١٩/ ٤٢/ ٨٩).

رسول الله ﷺ يأتيني فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك، فقلت: أطلقها أم ماذا؟ قال: لا، ولكن اعتزلها ولا تقربها، وأرسل إلى صاحبي مثل ذلك، فقلت لامرأتي: إلحقي بأهلك فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر، فجاءت امرأة هلال بن أمية فقالت: يا رسول الله إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم، فهل تكره أن أخدمه؟ قال: «لا، لكن لا يقربنك».

الفائدة الثالثة والسبعون: المنافقون وأولو الأعذار لا أسوة فيهم.

فأما المنافقون؛ فقد أرادوا هدم الإسلام باسم الإسلام حيث أظهروه وأبطنوا الكفر(١).

وأما أولو الأعذار فليس عليهم حرج.

وهذا ظاهر في قول كعب: «ليحزنني أن لا أرى لي أسوة إلا رجلاً مغموصاً في النفاق، أو رجلاً ممن عذر الله من الضعفاء».

ومراده: أن هؤلاء لا أسوة فيهم للمؤمن القوي.

الفائدة الرابعة والسبعون: إخبار الله لرسوله ﷺ عن بعض الغيب.

ففي قول رسول الله ﷺ: «**كن أبا خيثمة**» دليل على أن الله أعلمه أنه أبو خيثمة، ولذلك خرج دعاؤه بصيغة الأمر للتأكيد أنه أبو خيثمة، وأن الله محقق ذلك.

الفائدة الخامسة والسبعون: جواز مشاورة الرجل أهله وزوجاته.

ودلالته في قول كعب: «واستعين على ذلك بكل ذي رأي من أهلي».

وأما النهي عن مشاورة النساء فلا يصح فيه حديث مثل:

---

(١) مضى بيان سوءة النفاق وخساسة المنافقين (ص ٥٧ - ٥٨).

«شاوروهن، وخالفوهن؛ فإن خلافهن بركة»، «ولا يفعلن أحدكم أمراً حتى يستشير، فإن لم يجد من يستشير، فليستشر امرأة، ثم ليخالفها، فإن في خلافها بركة»، «طاعة النساء ندامة»، «هلكت الرجال حين أطاعت النساء».

والسنة الفعلية الصحيحة لرسول الله ﷺ ترد هذه الأحاديث الواهية، فقد قال السخاوي: «وقد استشار النبي ﷺ أم سلمة رضي الله عنها في قصة صلح الحديبية، وصار دليلاً لجواز استشارة المرأة الفاضلة؛ لفضل أم سلمة ووفور عقلها، حتى قال إمام الحرمين: لا نعلم امرأة أشارت برأي؛ فأصابت إلا أم سلمة.

كذا قال، وقد استدرك بعضهم عليه ابنة شعيب في أمر موسى عليهما السلام»[(١)].

لكن مشاورة المرأة ينبغي أن لا تقلب الموازين الشرعية؛ فتصير هي الآمرة الناهية، ويصير الزوج عبد لها؛ فيحل عليه دعاء النبي ﷺ بالتعاسة: «**تعس عبد الزوجة**»؛ «وذلك أن الله تعالى مَلَّكه الزوجه فَمَلَّكها نفسه، وسمّى الرجال قوّامين، وسمّى الزوج سيداً، فقد خالف مقتضى ذلك، وبدل نعمة الله كفراً»[(٢)].

الفائدة السادسة والسبعون: لا يزال البلاء بالمؤمن حتى يخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه.

ففي توالي الابتلاءات التي مرّ بها كعب رضي الله عنه وأصحابه من الهجر إلى إعراض ذوي القربى إلى اعتزال الزوجات إلى مكاتبة ملوك الكفر لهم يستدعونهم تنقية من تبعة الذنب وآثار المعصية حتى خرجوا يوم توبة

---

(١) «المقاصد الحسنة» (ص٤٠١).

(٢) «كشف الخفاء» (٢/ ٥).

الله عليهم كيوم ولدتهم أمهاتهم، ولذلك قال رسول الله ﷺ لكعب: «أبشر بخير يوم مرّ عليك منذ ولدتك أمك».

عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل؛ يبتلى الرجل على حسب دينه؛ فإن كان في دينه صَلْباً اشتد بلاؤه؛ وإن كان في دينه رقة ابتلي حسب دينه فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض ماعليه من خطيئة»**(١).

الفائدة السابعة والسبعون: جواز الاستفهام عن الأمر الذي يحتمل أكثر من وجه لمعرفة المراد والقصد.

وهذا واضح في استفهام كعب من رسول رسول الله ﷺ عندما بلغه أمر رسول الله ﷺ باعتزال زوجته.

قال كعب: «إذ رسول رسول الله ﷺ يأتيني؛ فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك، فقلت: أطلقها أم ماذا أفعل؟ قال: لا، لكن اعتزلها ولا تقربها».

الفائدة الثامنة والسبعون: رد الفضل إلى الله.

ينبغي للمسلم ردُّ الفضل كلِّه لله؛ لأنه هو أهله، والخير ملء يديه، والشر ليس إليه.

---

(١) صحيح- أخرجه الترمذي (٢٣٩٨)، وابن ماجه (٤٠٢٣)، وأحمد (١/ ١٧٢،١٧٤،١٨٠،١٨٥)، وابن حبان (٦٩٨و٦٩٩- موارد)، والدارمي (٢/ ٣٢٠)، والحاكم (١/ ٤٠و٤١) وغيرهم.

من طريقين عنه به مرفوعاً.

قلت: إسناده صحيح.

قـال كعـب لرسول الله ﷺ عندما بشره بتوبة الله عليه: «أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «**لا بل من عند الله**».

الفـائدة التاسـعة والسـبعون: تشبيه الوجه الذي فيه استنارة وملاحة بالقمر.

قـال كعـب: «وكـان رسـول الله ﷺ إذا سُـرَّ اسـتنار وجهه كأنه قطعة قمر».

لأن القمـر يتمكـن المـرء مـن النظـر إليـه دون أذى بخلاف الشمس؛ فإنها تعشي البصر، وتؤذيه.

وكذلـك القمـر يؤنـس مـن شـاهده؛ فهـو رفيـق المسـافر يذهـب عنه الوحشة، ويزيل الدهشة.

وعلى ذلك جرت عادة شعراء العرب.

الفائدة الثمانون: للصدق علامات يعرف بها، وأمارات ترشد إليه.

قال كعب: «يا رسول الله إن توبني أن أنخلع من مالي صدقة».

مراده: من علامات صدق توبتي.

وهذا ما أكده الله تعالى بقوله: ﴿**قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾ [البقرة:١١١].

وقولـه: ﴿**قُـلْ أَرَأَيْتُـم مَّـا تَدْعُـونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا فِي الأَرْضِ أَمْ لَهُـمْ شِـرْكٌ فِـي السَّـمَاوَاتِ ائْتُونِـي بِكِتَابٍ مِن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾ [الأحقاف: ٤].

قال شيخ المعرة:

هل صح من حاك قول فنقبله ... أم ذاك أباطيل وأسمار
أما العقل فقال أنه كذب ... والعقل غرس له في الصدق أثمار

الفائدة الواحدة الثمانون: ليس للمذنبين ملجأ من الله إلا الله.

وتأمل هذا في قوله تعالى: ﴿**حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عليهم لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ**﴾ [التوبة: ١١٨].

قال كعب: «بينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله تعالى؛ قد ضاقت علي نفسي، وضاقت علي الأرض بما رحبت سمعت صوت صارخ أوفى على جبل بأعلى صوته».

لقد رتب الله توبته عليهم على ظنهم أن لا ملجأ من الله إلا إليه، وهي حالة الخوف والاضطرار والصدق؛ فإن العبد إذا خاف من مخلوق هرب منه وفر إلى غيره، وأما إذا خاف من الله فما له من ملجأ يلجأ إليه، ولاوزر يهرب إليه إلا الله؛ فهو يهرب منه إليه؛ كما قال النبي ﷺ: «**لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك**»(١) وكان يقول: «**أعوذ برضاك من سخطك، وبعفوك من عقوبتك، وبك منك**»(٢).

وقال بعضهم شعراً في هذا المعنى:

أسأتُ ولم أحسن وجئتك تائباً ... وإني لعبدٌ عن مواليه يهربُ
يؤمل غفراناً فإن خاب ظنه ... فما أحدٌ منه على الأرض أخيبُ

وتدبر قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا**

---

(١) أخرجه البخاري (٢٤٧)، ومسلم (٢٧١١).

(٢) أخرجه مسلم (٤٨٦).

اللَّه فَاستَغفَرُوا لِذُنُوبِهِم وَمَن يَغفِرُ الذُّنُوبَ إِلا الله﴾ [آل عمران: ١٣٥]؛ تجد ذلك جلياً، والله الموفق.

الفائدة الثانية والثمانون: جواز المبيت على سطح البيت.

يجوز المبيت على سطح البيت يدل على ذلك قول كعب: «فلما صليت صلاة الفجر صبح خمسين ليلة على سطح بيت من بيوتنا».

لكن ورد في السنة شرط لذلك، وهو: أن يكون السطح محجوراً وإلا فلا.

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه: «**نهى رسول الله ﷺ أن ينام الرجل على سطح ليس بمحجور**»(١).

عن علي بن شيبان رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**من بات على ظهر بيت ليس عليه حجار**(٢)**؛ فقد برئت منه الذمة**»(٣).

عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «من

---

(١) **حسن لغيره** - أخرجه الترمذي (٢٨٥٤) وضعفه بقوله: «حديث غريب لا نعرفه من حديث محمد بن المنكدر عن جابر إلا من هذا الوجه، وعبد الجبار بن عمر يضعف».

قلت: وهو كما قال، لكن يشهد له ما بعده.

(٢) هو كل مانع من السقوط.

(٣) **حسن لغيره**- أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (١١٩٢)، وأبو داود (٥٠٤١)، وعنه البيهقي في «الآداب» (٩٧٨).

من طريق عمر بن جابر الحنفي عن وعلة بن عبد الرحمن بن وثاب عن عبدالرحمن بن علي عن أبيه.

قلت: إسناده لا بأس به في المتابعات؛ عبد الله بن علي ثقة، ومن دونه من المقبولين؛ أي: عند المتابعة، ويشهد له ما قبله.

بات فوق بيت ليس إجّار[١] فوقع فمات، برئت منه الذمة، ومن ركب البحر عند ارتجاجه فمات؛ فقد برئت منه الذمة»[٢].

وبهذا يتبين: أن النوم على سطح ليس له سترة تمنع النائم من السقوط حرام؛ لأن النائم قد ينقلب في نومه، وقد يقوم ولا يزال أثر النوم عليه؛ فيسعى إلى غير طريق؛ فيسقط.

ولذلك من نام على هذه الهيئة انقطع عنه عهد الله بالحفظ والكلاءة، وصار كالمهدور الذي لا ذمة له، فإن سقط ومات مات هدراً؛ لأنه لم يتعاط الأسباب التي تحول بينه وبين الضرر، والله أعلم.

الفائدة الثالثة والثمانون: تنكر الأرض وضيقها على الخائف والمهموم.

قال ابن قيم الجوزية رحمه الله «وقوله: «حتى تنكرت لي الأرض فما هي التي أعرف» هذا التنكر يجده الخائف والحزين والمهموم في الأرض، وفي الشجر، والنبات حتى يجده فيمن لا يعلم حاله من الناس، ويجده أيضاً المذنب العاصي بحسب جرمه حتى في خُلِق زوجته وولده، وخادمه ودابته، ويجده في نفسه أيضاً، فتنكر له حتى ما كأنه هو، ولا كأن أهله وأصحابه، ومن يشفق عليه بالذين يعرفهم، وهذا سر من الله لا يخفى إلا على من هو ميت القلب، وعلى حسب حياة القلب، يكون إدراك هذا التنكر والوحشة.

.... وما لجرح بميت إيلام.

---

(١) السطح الذي ليس حواليه ما يرد الساقط منه.

(٢) صحيح- أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (١١٩٤)، وأحمد (٥/ ٧٩ و٢٧١)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤٧٢٣-٤٧٢٦).

قلت: وهو صحيح.

ومن المعلوم: أن هذا التنكر والوحشة كانا لأهل النفاق أعظم، ولكن لموت قلوبهم لم يكونوا يشعرون به، وهكذا القلب إذا استحكم مرضه واشتد ألمه بالذنوب والإجرام، لم يجد هذه الوحشة والتنكر، ولم يحس بها، وهذه علامة الشقاوة، وأنه قد أيس من عافية هذا المرض، وأعيا الأطباء شفاؤه، والخوف والهم مع الريبة، والأمن والسرور مع البراءة من الذنب.

فما في الأرض أشجع من بريء   ولا في الأرض أخوف من مريب

وهذا القدر قد ينتفع به المؤمن البصير إذا ابتلي به ثم راجع، فإنه ينتفع به نفعاً عظيماً من وجوه عديدة تفوت الحصر، ولو لم يكن منها إلا استثماره من ذلك أعلام النبوة، وذوقه نفس ما أخبر به الرسول فيصير تصديقه ضرورياً عنده، ويصير ما ناله من الشر بمعاصيه، ومن الخير بطاعاته من أدلة صدق النبوة الذوقية التي لا تتطرق إليها الاحتمالات، وهذا كمن أخبرك أن في هذه الطريق من المعاطب والمخاوف كيت وكيت على التفصيل؛ فخالفته وسلكتها، فرأيت عين ما أخبرك به، فإنك تشهد صدقه في نفس خلافك له، وأما إذا سلكت طريق الأمن وحدها، ولم تجد من تلك المخاوف شيئاً، فإنه وإن شهد صدق المخبر بما قاله من الخبر والظفر مفصلاً فإن عمله بتلك يكون مجملاً»[(١)].

وقال: «ومن عقوباتها[(٢)]: أنها توقع الوحشة العظيمة في القلب؛ فيجد المذنب نفسه مستوحشاً، وقد وقعت الوحشة بينه وبين ربه وبين الخلق، وبينه وبين نفسه وكلما كثرت ذنوبه اشتدت الوحشة.

وَأَمَرُّ العيش عيش المستوحشين الخائفين، وأطيب العيش عيش

(١) «زاد المعاد» (٣/ ٥٧٨-٥٨٠).

(٢) عن عقوبات المعاصي.

المستأنسين، فلو فكر العاقل ووازن بين لذة المعصية وما توقعه فيه من الخوف والوحشة لعلم سوء حاله، وعظيم ما توجبه من الخوف والضرر الداعي له.

كما قيل:

فإن كنت تداو وحشتك الذنوب   فدعها إذا شئت واستأنس

وسر المسألة: أن الطاعة توجب القرب من الرب سبحانه، فكلما اشتد القرب قوي الأنس، والمعصية توجب البعد عن الرب، وكلما ازداد البعد قويت الوحشة.

ولهذا يجد العبد وحشة بينه وبين عدوه للبعد الذي بينهما، وإن كان ملابساً له قريباً منه، ويجد أنساً وقرباً بينه وبين من يحب، وإن كان بعيداً عنه.

والوحشة سببها الحجاب، فكلما غلظ الحجاب زادت الوحشة؛ فالغفلة توجب الوحشة، وأشد منها وحشة المعصية، وأشد منها وحشة الشرك والكفر.

ولا تجد أحداً ملابساً شيئاً من ذلك إلا ويعلوه من الوحشة بحسب ما لابسه منه؛ فتعلو الوحشة وجهه وقلبه؛ فيستوحش، ويستوحش منه»[(١)].

الفائدة الرابعة والثمانون: استحباب خروج المسافر يوم الخميس.

عن كعب بن مالك قال: «**لقلما كان رسول الله ﷺ يخرج إذا خرج في سفر إلا يوم الخميس**»[(٢)].

---

(١) «الداء والدواء»، (ص١٢٠-١٢١).

(٢) البخاري (٢٩٤٩).

وفي رواية: «**أن رسول الله ﷺ خرج يوم الخميس في غزوة تبوك وكان يحب أن يخرج يوم الخميس**»[١].

وبوّب عليه البخاري بقوله: «باب من أراد غزوة فَوَرّى بغيرها، ومن أحب الخروج يوم الخميس».

قال الحافظ: «وكونه ﷺ كان يحب الخروج يوم الخميس لا يستلزم المواظبة عليه بقيام مانع منه، وسيأتي بعد باب[٢] أنه خرج في بعض أسفاره يوم السبت»[٣].

الفائدة الخامسة الثمانون: استحباب القدوم نهاراً، وعدم طرق الأهل ليلاً.

ودليله قول كعب: «**وصبّح رسول الله ﷺ قادماً**».

وهذه سنة رسول الله ﷺ القدوم نهاراً، ونهى أن يطرق المسافر أهله ليلاً ويدل عليها عدة أحاديث منها:

١- عن جابر رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا أطال أحدكم الغيبة؛ فلا يطرق أهله ليلاً**»[٤].

٢- وعن أنس رضي الله عنه قال: «**كان رسول الله ﷺ لا يطرق أهله ليلاً، وكان يأتيهم غدوة أو عشية**»[٥].

وبهذا يتبين استحباب القدوم من السفر نهاراً غدوة أو عشية، والله أعلم.

---

(١) البخاري (٢٩٥٠).

(٢) «باب الخروج آخر الشهر» (٦/ ١١٤- الفتح).

(٣) «فتح الباري»، (٦/ ١١٣).

(٤) أخرجه البخاري (١٨٠١)، ومسلم (٧١٥).

(٥) أخرجه البخاري (١٨٠٠) ومسلم (١٩٢٧).

الفـائدة السادسة والثمانون: خطورة التسويف، وأنه يؤدي إلى ضياع الخير من الإنسان، ولا ينفع الندم بعد فوات الأوان.

ووجـه الدلالـة: أن كعـب إنمـا أتـى من باب التسويف فقال: «وغزا رسـول الله ﷺ تلـك الغـزوة حـين طـابت الثمار والظلال، فأنا إليها أصعر؛ فتجهـز رسـول الله ﷺ والمسـلمون معـه، وطفقـت أغـدو لكـي أتجهز معهم فـأرجع ولم أقـض شـيئاً، وأقول في نفسي: أنا قادر على ذلك إذا أردت فلم يـزل ذلـك يتمـادى بـي حتـى استمر الناس بالجد؛ فأصبح رسول الله ﷺ غاديـاً والمسـلمون معـه، ولم أقض من جهازي شيئاً، فقلت: أتجهز بعده بيوم أو يومـين ثـم ألحقهـم ثـم غـدوت بعد أن فصلوا لأتجهز فرجعت ولم أقض شـيئاً، فلـم يـزل ذلـك يتمادى بي حتى اسرعوا؛ فتفارط الغزو؛ فهممت أن أرتحل فأدركهم فياليتني فعلت، ثمّ لم يُقَدَّر لي».

وقد بين الشيخ عبد الرحمن الدوسري رحمه الله مخاطر التسويف فقال: «الصدق الصحيح مع الله في الضراعة يقي صاحبه أخطار التسويف العظيمة المضرة في دينه ودنياه، ذلك أن جميع الأخطار في الميادين: السياسية، والاقتصادية والحربية والاجتماعية ناشئة من التسويف الذي يجعل الإنسان يتردد حتى يؤخره عن وقت نفعه وجدواه، فيقل نفعه أو ينعدم:

إذ في الميـدان السياسـي يضطـره التسـويف إلى مهادنـة أعداء الله من الكفـار أو المنـافقين ومصـادقتهم، مهادنة ومصادقة تضره أعظم إضرار حيث يتقـوى بهـا العـدو، وينشر أحابيله، ويبث دعايته، حتى يكسب البعض من قومه وإخوانه بل من أولاده.

وقـد يزيـد ضـرر ذلـك باطمئنـان يجعلـه يترك الحذر والتسلح وإعداد القوتـين: الماديـة، والمعنويـة، بـل قد يخسر القوة الروحية، إن هو ألقى إليهم

بالمودة، وخالف أمر الله في إظهار العداوة ونشر البغضاء والغيظ في بلده ضدهم؛ فيجره التسويف إلى هدم العقيدة أو تفتيتها، ولا شك أن الأعداء يكسبون بتسويفه الاستجمام، وينطلقون في التنظيم الداخلي والخارجي بل يفقدونه ثقة أصدقائه به، كل هذا نتيجة تسويفه بعبادة الله في هذا الميدان الشائك التي لا تبيح له العبادة الحقيقية شيئاً من التساهل فيه.

وأما تسويفه في الميدان الاقتصادي؛ فيجعله يهمل أو يقلل من الاكتساب والاستثمار والتصنيع، وتسخير المواهب والقوى فيغلبه مقابله في المنافسة أو يضربه في المسابقة على ذلك، فيكون قد سمح لخصومه أو بارك لهم أن يصفعوه، ويكون مهملاً لشعبة من شعب الإيمان يحاسبه الله على تركها، وَيُعَجِّل له العقوبة في الدنيا بغلبة مقابله له، وزيادة على ما يناله في الآخرة من عقاب على حسب المقاصد والبواعث التي لا تخفى على العليم الخبير جل وعلا.

وأما تسويفه في الميدان الحربي؛ فهو مندرج في تسويفه في الميدان السياسي؛ كما أشرنا إليه حيث يسمح لأعدائه بالتفوق عليه في الحرب الباردة والكاوية.

وأما تسويفه في الميادين الاجتماعية؛ فيجلب عليه الخسائر الداخلية المتشعبة والفوضى الخطيرة التي لها أسوأ التأثير في الميادين السابقة مما يكون به عاصياً لله غير صادق معه.

حتى إن تسويفه في التربية والتأديب لأولاده وأولاد من يلي أمرهم من المسلمين يجعلهم كسباً لشياطين الإنس، بالشرود عن أمر الله، والخروج عن طاعته، والتمرد عليه هو فيزداد عصيانه وتفريطه في جنب الله، فإذن لا يجري التسويف من صادق مع الله في ضراعته؛ لأن عبودية الله الصحيحة

شاملة لجميع تلك الميادين، توجب عليه أن يكون قوياً نشيطاً ملتزماً حكم الله فيها لا يعتريه التسويف في شيء منها، فضلاً عن كلها، والعياذ بالله.

فضراعة المسلم الصادقة توجب عليه أولاً تحقيق الجهاد النفسي الداخلي لله رب العلمين، فيجاهدها على ترك المنهيات ويصبرها على أقدار الله الشرعية والكونية، ويجاهدها على فعل المأمورات القلبية، وترك المنهيات القلبية؛ كمحبة المؤمنين والنصح لهم، والشفقة عليهم وعدم حسدهم أو الغل عليهم، إيثاراً لنفسه أو انتصاراً لها، وكبغض الكافرين والمنافقين والفاسقين وعداوتهم، وحمل الغيظ لهم، كل على حسبه من ذلك، وعدم الركون إليهم والشفقة على أحد منهم، ولو كان أقرب قريب دون أن يعتريه تسويف في تحقيق هذه الأعمال القلبية من أمر ونهي.

ويجاهد نفسه على فعل المأمورات البدنية الظاهرة من طهارة البدن والثوب، وإقامة الصلاة وأدائها في جماعة وإحاطتها بالنوافل، وأن لا يسوف بتأخير شيء منها أو يؤثر عملاً مادياً عليه، وأن لا يغلبه سلطان النوم أو شهوته على صلاة الفجر المشهودة من ملائكة الليل والنهار ويكون خاشعاً فيها ضارعاً إلى الله متكيفاً بالتبكير الصادق، لا يحمله أي عمل أو طمع على ترك ذلك وأن يكون مؤدياً زكاة ماله وباذلاً في سبيل الله ما استطاع، لا يعوقه التسويف أو ينتابه الشح الذي يحرمه الفلاح في الدارين.

وأن يتطوع بصوم النوافل زيادة على الصوم الواجب ولو قليلاً ليهذب نفسه ويربيها على تقوية الإرادة وصدق العزيمة حتى لا يسوف أبداً في ترك شيء من مألوفاته المخالفة للشريعة،أو التي تضر بصحته وتزيد في نفقته بلا طائل مما يكون تناوله محرماً أو مكروهاً، فإن صيام النافلة أكبر دليل على الاحتساب الذي ينتفع به صاحبه انتفاعاً محسوساً، بخلاف ما يتكلفه من واجب دون وعي واحتساب فإنه لا يمنعه من التسويف في ترك

المألوفات المضرة إلى غير رجعة من أقوال أو أفعال أو مطعوم أو مشروب كما نشاهده من حال أغلب الصائمين لرمضان دون مراعاة لحكمته أو تأمل في عواقبه.

ثم إن الصدق مع الله في الضراعة إليه توجب عليه عدم التسويف في ترك المنهيات البدنية، وعدم التسويف في التوبة مما ارتكبه منها، فصدقه مع الله يخلصه من أحابيل الشيطان الذي يغريه عليها بحجة الشباب؛ أو يطمعه في المغفرة، أو في تكفيرها بشيء آخر؛ كزيارة أو طواف، أو يقنعه بأن وقت الابتعاد عنها هو الشيب، كأن حياته مضمونة إلى المشيب فهذه الأحابيل لا يخلص المسلم منها إلا بقوة صدقه مع الله.

وما أخطر التسويف في التوبة النصوح مما غلبه الشيطان على فعله من معصية، ولله در الشاعر القائل:

ولا تقل الصبا فيه امتهال وفكر كم صبي قد دفنا

وعبودية الله توجب على أهلها العزم الصحيح على مواصلة الجهاد والتصميم في تطبيقه تنفيذاً لأمر الله فيه وصدقاً معه في البيعة عليه بالنفس والمال دون تسويف في ذلك، لأن المسوف ذنبه عظيم وخطره جسيم، فكيف بالمعطل للجهاد بالكلية؟ إن المسوف فيه مماطل مع الله في بيعته وفاسح لعدوه المجال والفرصة لضربه وخبطه على رأسه كما حصل ذلك في مواطن كثيرة.

فالمسوف متعرض لغضب الله من جهة، وإيقاع الهزيمة به من جهة أخرى، أما تارك الجهاد أو الحاصر له على نقطة معينة حسب مذهب يتبناه مخالفاً لوحي الله فهذا متعرض للوعيد الشديد من مقت الله، وإنزال الذل الذي لا يرفعه الله عنه حتى يراجع دينه، وكل من التسويف والترك يجعلانه يفرط في إعداد القوة أو في المزيد منها، ويقلبان قوته المعنوية إلى تصدع

شخصي وانهيار عصبي يجره للرق المعنوي الذي يرضخ بسببه للحماية أو الاستسلام الفاضح المكشوف، والحماية فيها استسلام مقنع للجهة الحامية فما أبعد صاحبها عن تحقيق عبودية الله.

ثم إن إعداد القوة حسب المستطاع من واجبات الدين ولوازم إقامته؛ فالعابد الصحيح لله لا يعتوره التسويف في هذا فضلاً عن تركه أو التساهل فيه.

فصدقك أيها المسلم مع الله بضراعتك إليه ينجيك من أخطار التسويف في تنفيذ أوامر الله ووصايا رسوله فضلاً عن تعطيلها الذي لا يصدر إلا من شارد عن الله بشعور أو غير شعور»[١].

الفائدة السابعة والثمانون: أعداء الله يرصدون حركة المجتمع الإسلامي؛ ليجدوا منافذ يتسللون منها لواذاً؛ ليفسدوه، أويئدوه.

و في مكاتبة ملك غسان لكعب بن مالك و دعوته إلى اللحاق به دليل ذلك: «فبينا أنا أمشي بسوق المدينة، إذا نبطي من أنباط الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول: من يدلُّ على كعب بن مالك؛ فطفق الناس يشيرون له حتى إذا جاءني، دفع كتاباً من ملك غسان فإذا فيه: «أما بعد: فإنه بلغني أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان، ولا مضيعة، فالحق بنا نواسك»»؛ فأخبار كعب بلغت ملك غسان على بعد المسافة مما يدل أن عيون ملك غسان نقلت له الأخبار.

قال ابن قيم الجوزية: «و كانت غسان إذ ذاك - وهم ملوك عرب الشام - حرباً لرسول الله ﷺ، و كانوا ينعلون خيولهم لمحاربته، و كان هذا لما بعث شجاع بن وهب الأسدي إلى ملكهم الحارث بن أبي شمر الغساني يدعوه إلى الإسلام، وكتب معه إليه.

(١) «صفوة الآثار والمفاهيم في تفسير القرآن العظيم» (١/ ٢٦٤- ٢٦٨).

قــال شــجاع: فـانتهيت إليه وهو في غوطة دمشق، وهو مشغول بتهيئة الأنـزال و الألطـاف لقيصـر، وهـو جـاء من حمص إلى إيلياء، فأقمت على بابـه يومـين أو ثلاثـة، فقلت لحاجبه: إني رسول رسول الله ﷺ إليه، فقال: لا تصـل إليـه حتـى يخـرج يوم كذا و كذا، و جعل حاجبه - و كان رومياً اسـمه مـري - يسـألني عـن رسـول الله ﷺ، و كنت أحدثه عن رسول الله ﷺ و مـا يدعـو إليـه، فـيرقُّ حتـى يغلب عليه البكاء، و يقول: إني قرأت الإنجيـل؛ فـأجد صفة هذا النبي بعينه، فأنا أؤمن به و أصدقه، فأخاف من الحـارث أن يقتلنـي، وكـان يُكرمنـي، ويحسـن ضيافتي، وخرج الحارث يوماً فجلـس، فوضـع التاج على رأسه، فأذن لي عليه، فدفعت إليه كتاب رسول الله ﷺ؛ فقـرأه، ثـم رمـى بـه، قـال: من ينتزع مني ملكي، وقال: أنا سائر إليـه، ولـو كان باليمن جئته، عليَّ بالناس، فلم تزل تعرض حتى قام، وأمر بـالخيول تنعـل، ثـم قـال: أخـبر صـاحبك بمـا ترى، وكتب إلى قيصر يخبره خـبري، ومـا عـزم عليـه، فكتـب إليه قيصر: أن لا تَسِر، ولا تَعْبُر إليه، واله عنـه، ووافنـي بإيلياء، فلما جاءه جواب كتابه، دعاني فقال: متى تريد أن تخـرج إلى صاحبك؟ فقلت: غداً، فأمر لي بمائة مثقالٍ ذهباً، ووصلني حاجبه بنفقة وكسوةٍ، وقال: اقرأ على رسول الله ﷺ مني السلام.

فقدمـت علـى رسـول الله ﷺ ، وأخبرته بما قال، فقال: «**باد ملكه**»، وأقرأته من حاجبه السلام، وأخبرته بما قال، فقال رسول الله ﷺ: «**صدق**»، ومـات الحارث بن أبي شمر عام الفتح، ففي هذه المدة أرسل ملك غسان يدعـو كعباً إلى اللحاق به، فأبت له سابقة الحسنى أن يرغب عن رسول الله ﷺ ودينه»[(١)].

و هـذا الحـال لم تكـن خافيـة علـى رسـول الله ﷺ وأصحابه؛ فإنهم

---

(١) «زاد المعاد»، (٣/ ٥٨١ - ٥٨٢).

كانوا ينتظرون سير ملك غسان إليهم؛ كما أخبر بذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «و كان لي صاحب من الأنصار إذا غبت أتاني بالخبر، وإذا غاب كنت آتيه بالخبر، ونحن نتخوف ملكاً من ملوك غسان ذكر لنا أنه يريد أن يسير إلينا، فقد امتلأت صدورنا منه، فإذا صاحبي الأنصاري يدق الباب، فقال: افتح افتح، فقلت جاء الغساني....»(١).

و لكن أعداء الله لم يفتأوا يعيدون محاولاتهم ولم يزل الكفار ومشركو أهل الكتاب يقومون بذلك منذ فجر دولة الإسلام الفتية التي أرسى أركانها وأشاد بنيانها رسول الله ﷺ في المدينة النبوية وما حولها من جزيرة العرب حتى إذا سنحت لهم فرصة تواثبوا عليها من أقطارها، وهم يعيدون محاولاتهم، ويحكمون مكرهم وتدبيرهم حتى ظهرت في واقع الأمة الإسلامية سكرتان جعلتاها تفقد توازنها؛ فتتأرجح ذات اليمين وذات الشمال حتى خرجت إلى بنيات الطريق، وسقطت في أحضان أعدائها بأيدي أدعيائها:

الأولى: حالة الوهن:

وهذه الحالة وردت الإشارة إليها والتنبيه عليها صريحة دون لبس واضحة دون غموض، مدوية دون ضجيج يثير النقع؛ فيحجب الرؤية في حديث ثوبان رضي الله عنه مولى رسول الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**يوشك أن تداعى**(٢) **عليكم الأمم؛ كما تداعى الأكلة**(٣) **إلى قصعتها**»(٤).

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩١٣).

(٢) تتابع واجتمع؛ أي: يدعو بعضها بعضاً، فتجيب.

(٣) جمع آكل.

(٤) وعاء ضخم يؤكل فيه، ويثرد، ويُشبع العشرة.

فقال قائل: أومن قلة نحن يومئذٍ؟ قال: «**بل أنتم يومئذٍ كثيرٌ، ولكنكم غثاء**[(١)] **؛ كغثـاء السـيل، وليـنزعن**[(٢)] **الله مـن صـدور عدوكـم المهابـة**[(٣)] **منكـم، وليقذفـن الله في قلوبكـم الوهـن**»[(٤)]. قـالوا: يا رسول الله وما الوهن؟ قال: «**حب الدنيا وكراهية الموت**»[(٥)].

وهـذا الحديـث الـذي يشـخص حالـة الوهـن يلقـي بظـلال ظليلـة، ودلالات ثقيلة على واقع الأمة الإسلامية:

أولهـا: أن أعـداء الله مـن جنـد إبليـس وأعوان الشيطان يرصدون نمو أمـة الإسـلام ودولتها حيث رأوا أن الوهن دبَّ إليها، والمرض نخر جسمها، فوثبوا عليها، وكتموا البقية الباقية من أنفاسها.

الثانيـة: أن أمـم الكفـر تدعـوا بعضهـا بعضـاً، وتجتمـع للتـآمر علـى الإسلام ودولته، وأهله، وعلمائه ودعاته.

ومـن قرأ تاريخ الحملات الصليبية وعرف خبايا الحرب الكونية الأولى

---

(١) مـا يجـف فوق السيل مما يحمله الزبد والوسخ وفتات الأشياء التي على وجه الأرض.

(٢) يخرج، وأصل النزع: الجذب والقلع.

(٣) الإجلال والمهابة.

(٤) الضعف في العمل والأمر.

(٥) **صحيـح بطرقـه**- أخرجـه أبو داود (٤٢٩٧) بإسناد لا بأس به في المتابعات؛ لأن عبدالرحمـن بـن زيـد بـن جابر ثقة، وشيخه صالح بن رستم الدمشقي يعتبر به، وقد تابعـه أبـو أسـماء الرحبي عـن ثوبـان: أخرجـه أحمـد (٥/ ٢٧٨)، وأبو نعيم في «حلية الأوليـاء» (١/ ١٨٢) بإسـناد حسـن رجالـه ثقـات غير المبارك بن فضالة؛ فإنه صدوق، وإنمـا يخشـى مـن تدليسـه، ولكنـه صـرح بـالتحديث؛ فثبتت هذه المتابعة، وبها يصح الحديث، ولله الحمد والمنة على الإسلام والسنة.

حيث جيَّش بنو الأصفر جيوشهم للقضاء على دولة الخلافة استبانت له هذه الدلالة وضوح الشمس في رائعة النهار.

و حتى يتم لهم ذلك؛ فقد أسسوا «عصبة»، ثم«هيئة» و«مجلساً»، ثم «نظاماً عالمياً جديداً» يلهب سعارهم طمع وجشع؛ يوضحه:

الثالثة: أن ديار المسلمين منبع خيرات وبركات تحاول أمم الكفر الاستيلاء عليها، ولذلك شبهها الرسول ﷺ بالقصعة المملوءة بالطيب من الطعام التي أغرت الأكلة؛ فتواثبوا عليها كل يريد نصيب الأسد.

الرابعة: أن أمم الكفر أكلت خيرات المسلمين، وسرقت ثرواتهم، ونهبت بلادهم بلا مانع ولا منازع، وتناولتها عفواً صفواً.

الخامسة: أن أمم الكفر صيروا بلاد المسلمين جنوداً مجندة ودويلات متقاطعة؛ كما في حديث عبد الله بن حوالة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ستجندون أجناداً، جنداً بالشام، وجنداً بالعراق، وجنداً باليمن**». فقلت: خر لي يا رسول الله. قال: «**عليكم بالشام؛ فمن أبى فليلحق بيمنه، وليستق من غدرة**[1]؛ **فإن الله عز وجل تكفل لي بالشام وأهله**».

قال ربيعة: فسمعت أبا إدريس الخولاني يحدث بهذا الحديث ويقول: «ومن تكفل الله به، فلا ضيعة عليه»[2].

أليس هذا واقع الأمة الإسلامية: دويلات ليس لها في توجيه شؤونها الداخلية أو الخارجية أمر أو نهي، وإنما تستمد قوتها وحمايتها وسياستها

---

(١) جمع غدير، وهو: القطعة من الماء يغادرها السيل، والمراد: أن يشرب من مائه.

(٢) **صحيح**- وله عدة طرق بينها وخرجها شيخنا أبو عبدالرحمن الألباني حفظه الله في «تخريج أحاديث فضائل الشام ودمشق».

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

من أمم الكفر، فالله المستعان وعليه التكلان.

السادسة: أن أمم الكفر لم تعد تهاب المسلمين؛ لأنهم فقدوا مهابتهم بين الأمم، والتي كانت ترتجف لها أوصال أمم الكفر وترتعد منها فرائص حزب الشيطان؛ لأن سلاح الرعب الفتاك لم يعد يملأ قلوب الكافرين، ويزلزل حصونهم؛ كما قال الله تعالى: **﴿سنلقي في قلوب الكافرين الرعب بما اشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً﴾** [آل عمران: ١٥١].

و قال رسول الله ﷺ: «**نصرت بالرعب مسيرة شهر**»(١).

و هذه الخصوصية تتعدى إلى الأمة الإسلامية بدليل قوله ﷺ في حديث ثوبان الآنف: «**ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم**».

السابعة: عناصر قوة المسلمين ليس في عَدَدِها وعُدَدِها وخيلها ورجلها بل في عقيدتها ومنهجها؛ لأنها أمة العقيدة، وحاملة لواء التوحيد، ألم تسمع قول رسول الله ﷺ يجيب السائل عن العدد: «**بل أنتم يومئذٍ كثير**»، وتأمل درس حنين تجده ماثلاً في كل عصر: **﴿ويَومَ حُنين إِذ أعجَبتكم كَثرَتكُم فَلَم تُغْنِ عَنكم شَيئاً﴾** [التوبة: ٢٥].

الثامنة: أن المسلمين لم يعد لهم وزن بين أمم الأرض؛ كما أخبر رسول الله ﷺ: «**و لكنكم غثاء كغثاء لسيل**».

و هذه الدلالة تلقي بظلالها الآتية:

أ - إن الغثاء الذي يحمله السيل العرم يسير معه محمولاً مع تياره وهكذا المسلمين يجرون مع تيار أمم الكفر حتى لو نعق بهيئة «اللمم» غراب، أو طنّ في مجلس «الفتن» ذباب؛ لخروا على ذلك عمياناً، وتلوه

---

(١) مضى تخريجه (٢٣).

كتاباً محكماً.

ب - إن السيل يحمل زبداً رابياً لا ينفع، الناس وكذلك المسلمون لم يعد يؤدون دورهم الذي به تبوؤا مقدمة الأمم؛ وهو: الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.

ت - إن الزبد يذهب جفاءً، ولذلك سيستبدل الله من تولى ويمكن للطائفة التي تنفع الناس في الأرض.

ث - إن الغثاء الذي يحمله السيل خليط من قاذورات الأرض وفتات الأشياء وكذلك أفكار كثير من المسلمين خليط من زبالة الفلسفات، وحثالة الحضارات، وقلامة المدنيات.

ج- إن الغثاء الذي يحمله السيل لا يدري مصيره الذي يجري إليه باختياره، فهو كمن حفر قبره بظفره، وكذلك المسلمون لا يدرون ما يخطط لها أعداؤهم، ومع ذلك فهم يتبعون كل ناعق، ويميلون مع كل ريح.

الثامنة: أن المسلمين جعلوا الدنيا أكبر همهم ومبلغ علمهم، فلذلك كرهوا الموت وأحبوا الحياة؛ لأنهم عمروا الدنيا، ولم يتزودوا للآخرة.

فما الذي جعل الشجرة الباسقة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء غثاء أحوى؟

الثانية: حالة الدَّخَنْ.

وهذا تجده في الإشارة النبوية الواردة في حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: كان الناس يسألون رسول الله عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني. فقلت: يا رسول الله كنا في جاهلية وشر، وجاء الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير شر؟ قال: **«نعم»**. قلت: وهل بعد هذا

الشر من خير؟ قال: «**نعم، وفيه دخن**». قلت: وما دخنه؟ قال: «**قوم يستنون بغير سنتي، ويهدون بغير هديي، تعرف منهم وتنكر**». قلت: فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: «**نعم، دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها**». قلت: يا رسول الله صفهم لنا. قال: «**هم من جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا**». قلت: فما تأمرني إن أدركني ذلك؟ قال: «**تلزم جماعة المسلمين وإمامهم**». قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: «**فاعتزل تلك الفرق كلها، ولو تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك**»[١].

إن الجراثيم الفتاكة التي أنهكت قوة المسلمين وشلت حركتهم، ونزعت بركتهم ليست سيوف الكفر التي اجتمعت على الكيد للإسلام وأهله ودولته، إنما هي الجراثيم الخبيثة التي تسللت إلى داخل جسم العملاق الإسلامي على فترات بطيئة؛ لكنها متوالية وأكيدة المفعول.

وهذا يؤكد أن الوصف الصليبي اليهودي لدولة الإسلام بـ «الرجل المريض» كان دقيقاً؛ فهم الذين غرسوا بكتيريا الشهوات وفيروسات الشبهات في كيان دولة الإسلام، وأنها نمت وترعرعت في أحضانهم ومحاضنهم، وشربت لبانهم حتى الثمالة.

و قد تنوعت عبارات شارحي الحديث حول مفهوم الدخن، ولسنا بحاجة للوقوف طويلاً عندها؛ لأن رسول الله ﷺ بيّن أن الدخن: انحراف يعتري الأمة؛ فتحيد عن المنهج النبوي الذي كان يسود مرحلة الخير الخالص، فيؤدي إلى تشويه المحجة البيضاء؛ فقال: «**قوم يستنون بغير**

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٠٦)، ومسلم (١٨٤٦).

سنتي، ويهدون بغير هديي تعرف منهم وتنكر».

ومنه يتضح: أن أمر البدع خطير؛ لأنها تفسد القلوب والأبدان بينما الأعداء يفسدون الأبدان.

ولذلك؛ فقد اتفقت كلمات السلف الصالح على وجوب مجاهدة أهل البدع وهجرهم.

قال سفيان الثوري: «من أصغى بسمعه إلى صاحب بدعة وهو يعلم، خرج من عصمة الله ووكل إلى نفسه».

وعنه: «من سمع ببدعة فلا يحكها لجلسائه، لا يلقها في قلوبهم»

قال الذهبي معلقاً على ذلك: «أكثر السلف على هذا التحذير، يرون: أن القلوب ضعيفة، والشبه خطافة»[(١)].

وبذلك أصبح المسلمون في ذيل القافلة البشرية مرتعاً لكل ناعق، واستنسر بأرضهم الباطل وهو زاهق، وتكلم في أمرهم كل منافق مارق.

ونبتت خلوف اتبعوا الشهوات، واجتالتهم الشبهات؛ فغزا الوهن قلوبهم، وظهرت في المسلمين سكرتا الجهل وحب العيش، فلم يعودوا يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويجاهدون في سبيل الله؛ ففقدوا خيريتهم؛لأنهم لم يؤدوا شرط الله فيهم[(٢)].

ولكيلا يستيقظ المسلمون على وخز الإبر السامة المحقونة بالجراثيم الفتاكة التي تغرز في جسمهم، وإمعاناً في تضليلهم وتعتيم الأمور وحجب

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٧/ ٢٦١).

(٢) انظر لزاماً «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير (١/ ٣٩٩- ٤٠٥).

الحقائق عن بصرهم، فقد أقام أئمة الكفر مصانع داخلية[(١)] لإفراز سمومهم من الداخل؛ فلا تظهر أعراض المرض الخبيث إلا بعد مدة طويلة، وحينئذٍ يستعصي على الطبيب، ويحير اللبيب.

هذه المصانع التي تردد ما يلقى في سمعها من أعداء الله، وتفرز ما يحقنه بها أئمة يهدون إلى النار هي من جلدتنا، وتتكلم بلغتنا، وتزعم الحرص على أمتنا، والعمل على بعث حضارتنا.

ولذلك؛ فإن الذين غرسوا هذه الجراثيم في جسم الأمة الإسلامية هم من أبنائها.

ولكن الرحمة المهداة ﷺ لم يترك في الأمر لبساً، فقد بينه بوحي من الله ولم يكن حدساً.

ففي حديث حذيفة وصف لهؤلاء النفر الذي صنعهم أئمة الكفر على أعينهم وغذوهم بلبانهم: «**نعم، دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها**». قلت: يا رسول الله صفهم لنا. قال: «**هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا**».

فهذه الصفة الأولى التي يعرفون بها.

و في رواية: «**و سيقوم فيهم رجال قلوب الشياطين في جثمان**

(١) تم ذلك لأعداء الله بطريقين:

الأولى: الابتعاث، وهناك يتم غسيل الدماغ لأبناء المسلمين، ومن ثم يرجعون إلى ديارهم ينفذون ما سمعوه ورأوه.

الثانية: الاستشراق، ومنه تسلل الماكرون من أعداء الله تحت شعار الدراسة والبحث العلمي، وقد أثبت الدراسات المحايدة أن هؤلاء المستشرقين عملاء لأجهزة المخابرات الصليبية اليهودية.

الإنس»[(١)].

وهذه الصفة الثانية التي يعرفون بها، فهم يظهرون الحرص على الأمة، ومصالحها، وسيادتها، واستقلالها... يرضون الأمة بألسنتهم، وتأبى قلوبهم إلا تنفيذ ما تعلموه وتربوا عليه في محاضن أسيادهم من الصليبيين واليهود.

قال تعالى: ﴿وَلَن تَرضَى عَنكَ اليَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُم﴾ [البقرة: ١٢٠].

هذا ما يخطط له الأسياد من الفرنجة واليهود، وينفذه العبيد من الرويبضات الذي استنسروا في أرضنا؛ لأنهم ترعرعوا عليها، وأكلوا من خيراتها، ولكنهم عمدوا في محاضن حزب الشيطان وجنود إبليس الذين دربوهم على المبدأ الصليبي القاتل: إنه بطيء، ولكنه أكيد المفعول.

وهو ما حذر منه المولى عز وجل في قوله: ﴿كَيفَ وَإِن يَظهَرُوا عَلَيكُم لا يَرقُبُوا فِيكُم إلا وَلا ذِمَّة يُرضُونَكُم بِأَفوَاهِهِم وَتَأبَى قُلُوبُهُم وَأَكثَرُهُم فَاسِقُون﴾ [التوبة: ٨].

قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذا خَلَوا إِلى شَيَاطِينِهِم قَالُوا إِنَّا مَعَكُم إِنَّمَا نَحنُ مُستَهزِؤُون﴾، [البقرة: ١٤].

هكذا يَسْتَخِفّون بالشعوب والأمم؛ فأطاعتهم، وأسلمت قيادها لهم لأنها فسقت عن منهج الله، وهم يجرون بها إلى النار، ويريدون أن يبوؤها دار البوار.

وهؤلاء لا يفترون في الدعوة إلى ضلالتهم ومنكرهم، ويقيمون لذلك

(١) أخرجه مسلم (١٨٤٧) (٥٢).

التجمعات، والمؤتمرات، والصالونات؛ ولذلك ورد وصفهم بأنهم دعاة.

هـذه التحذيـرات النبويـة، والومضـات السـنية، إشـارة أصبـع للـذي أصيبـوا بعمـى الألـوان؛ فـأصبحوا يـرددون ما يلقى عليهم من وراء البحار وخلف الحدود.

إنهـا تنبيهـات للأمـة الإسـلامية لعلهـا تحذر كيد الكافرين، وتستفيق؛ فلا تتبع سبيل المجرمين.

ولقـد وجدنـا آثارها في تاريخ المسلمين، ورأينا شرورها في دنيا الناس أجمعين.

الفـائدة الثامنـة والثمـانون: الإنسـان يضعـف أمام ضغط المجتمع والتأنيب، واللوم.

وهـذا ظـاهر في قـول كعـب: «وثـار رجـال مـن بني سلمة، فاتبعوني يؤنبونـي، فقـالوا لي: والله ما علمناك أذنبت ذنباً قبل هذا، ولقد عجزت ألا تكـون قـد اعتـذرت إلى رسـول الله ﷺ بمـا اعتـذر بـه المخلفون، فقد كان كـافيك ذنبـك اسـتغفار رسـول الله ﷺ لـك، فـوالله مـا زالوا يؤنبوني حتى كدت أن أرجع فأكذب نفسي».

قـال الإمام ابن قيم الجوزية: «فإن اللوم يصيب الفارس؛ فيصرعه عن فرسه، ويجعله صريعاً في الأرض»(١).

ولـن يتجـاوز هـذه العقبـة إلا مـن تداركـه فضـل الله، وكان حقاً من حـزب الله؛ كمـا في قولـه تعـالى: ﴿**يَـا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُم عَن دِينِـهِ فَسَـوفَ يَـأْتِي اللهُ بِقَـومٍ يُحِبُّهُـم وَيُحِبُّونَه أَذِلَّةٍ عَلَى المؤمِنِينَ أَعِزَةٍ عَلَى الكَـافِرِينَ يُجَـاهِدُونَ في سَبِيلِ اللهِ وَلا يَخَـافُونَ لَومَـةَ لائِـم ذَلِكَ فَضلُ اللهِ**

(١) «الرسالة التبوكية» (ص١٩٢ -بتحقيقي).

يُؤتِيهِ مَن يَشَاءُ واللهُ وَاسِعٌ عَلِيم إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ الله وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم رَاكِعُون وَمَن يَتَوَلَّ اللهَ وَرَسُولَه وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزبَ اللهِ هُمُ الغَالِبُون﴾ [المائدة: ٥٤- ٥٦].

وهذه صفات حزب الله؛ فهم لا يخافون لومة لائم:

وفيم الخوف من لوم الناس، وهم قد ضمنوا حب رب الناس؟

وفيم الوقوف عند مألوف البشر، وعرف الناس، وهم يتبعون السنة، ويبتغون العزة، ويعرضون منهج الله للحياة؟

إنما يخشى الناس ولومهم وتأنيبهم من يستمد مقاييسه وأحكامه من أهوائهم، أما من يعود إلى موازين القسط، ليجعلها مسيطرة على حركة البشر فما يبالي ما يقول الناس كائناً هؤلاء الناس من كانوا، وكائناً واقع الناس ما كان.

الفائدة التاسعة والثمانون: استحباب الجلوس عقيب الصلاة لذكر الله.

قال كعب: «وآتي رسول الله ﷺ وهو في مجلسه بعد الصلاة».

قال النووي رحمه الله[1]: «أجمع العلماء على استحباب الذكر بعد الصلاة: وجاءت فيه أحاديث كثيرة صحيحة في أنواع متعددة؛ فنذكر طرفاً من أهمها:

عن أبي أمامة رضي الله عنه؛ قال: قيل لرسول الله ﷺ: أي الدعاء أسمع؟

(١) «صحيح الأذكار وضعيفه» (١/ ٢٠٠- ٢١٢).

قال: «جوف الليل الآخر، ودبر الصلوات المكتوبات»[(١)].

(١) حسن بشواهده- أخرجه الترمذي (٣٤٩٩)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (١٠٨) كلاهما عن محمد بن يحيى الثقفي المروزي: حدثنا حفص بن غياث عن ابن جريج عن عبدالرحمن بن سابط عنه به.

قال الترمذي: «هذا حديث حسن».

وتعقبه الحافظ في «نتائج الأفكار» (ق ١٤٥): «وفيما قاله نظر؛ لأن له عللاً؛ منها:

الانقطاع بين ابن سابط وأبي أمامة؛ قال ابن معين: «لم يسمع ابن سابط من أبي أمامة».

ومنها: عنعنة ابن جريج عن ابن سابط.

وثالثها: الشذوذ؛ فقد جاء من رواية خمسة من أصحاب أبي أمامة أصل هذا الحديث من رواية أبي أمامة عن عمرو بن عبسة».

قلت: الانقطاع بين ابن واسط وأبي أمامة حق؛ فإن ابن سابط لم يسمع من أبي أمامة؛ كما في «تاريخ ابن معين» للدوري (٣٦٦)، و«جامع التحصيل» للعلائي (٤٢٨)، و«المراسيل» لابن أبي حاتم (٢١٢).

ما عنعنة ابن جريج؛ فقد صرح بالتحديث عند عبدالرزاق؛ كما نقل الزيلعي في «نصب الراية» (٢/ ٢٣٥).

أما الشذوذ؛ فلا يرد على هذا الحديث؛ فأنهما حديثان مختلفان.

ولذلك؛ فقد انحصر الضعف في العلة الأولى.

لكن الترمذي رحمه الله عَلّق شاهدين للحديث؛ فقال: «وقد روي عن أبي ذر وابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال: «**جوف الليل الآخر الدعاء فيه أفضل أو أرجى» أو نحو هذا**» أ.هـ.

وكأنه لأجل ذلك حسن الحديث، وهو محتمل.

وقد حسنه شيخنا الألباني حفظه الله في «سنن الترمذي» (٢٧٨٢).

وأما تضعيفه له في «الكلم الطيب» (١١٣) و«المشكاة» (٩٦٨ و١٢٣١)؛ فمرجوع عنه وهو محصور في إسناده عند الترمذي، ولم يتعرض لشواهده كما أخبرني بذلك.

عـن ابـن عبـاس رضـي الله عنهمـا قال: «كنت أعرف انقضاء صلاة رسول الله ﷺ بالتكبير»(١).

عـن ثوبـان رضـي الله عنـه قـال: **كان رسول الله ﷺ إذا انصرف من صلاتـه اسـتغفر ثلاثـاً وقال: «اللهم أنت السلام، ومنك السلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام»**(٢).

قيل للأوزاعي -وهو أحد رواة الحديث -: كيف الاستغفار؟

قال: تقول: استغفر الله، استغفر الله.

عـن المغـيرة بـن شـعبة رضي الله عنه: **أن** رسول الله ﷺ كان إذا فرغ مـن الصـلاة وسلم؛ قال: «**لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمـد، وهـو علـى كل شيء قدير، اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد**»(٣).

عـن عبـد الله بـن الزبـير رضـي الله عنهمـا: أنـه كان يقول دبر كل صـلاة حـين يسـلم: «**لا إلـه إلا الله وحـده، لا شـريك لـه، لـه الملك، وله الحمـد، وهـو علـى كـل شيء قدير، لا حول ولا قوة إلا بالله، لا إله إلا الله، ولا نعبـد إلا إيـاه، لـه النعمـة والفضـل، ولـه الثنـاء الحسن، لا إله إلا الله؛ مخلصين له الدين ولوكره الكافرون**»(٤).

---

(١) أخرجه البخاري (٨٤٢)، ومسلم (٥٨٣).

قلـت: وهـذا في أول الإسـلام، وكـان للتعليـم؛ كما حققه أهل العلم؛ كالشافعي رحمه الله وغيره.

(٢) أخرجه مسلم (٥٩١).

(٣) أخرجه البخاري (٨٤٤)، ومسلم (٥٩٣).

(٤) أخرجه مسلم (٥٩٤).

قال ابن الزبير: «**وكان رسول الله ﷺ يهلل دبر كل صلاة**»

عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن فقراء المهاجرين أتوا رسول الله ﷺ؛ فقالوا: ذهب أهل الدثور بالدرجات العلى والنعيم المقيم، يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ولهم فضل من أموال؛ يحجون بها، ويعتمرون، ويجاهدون، ويتصدقون. فقال: «**ألا أعلمكم شيئاً تدركون به من سبقكم، وتسبقون به من بعدكم، ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من صنع مثل ما صنعتم؟**»

قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «**تسبحون وتحمدون وتكبرون خلف كل صلاةٍ ثلاثاً وثلاثين**»[(١)].

قال أبوصالح - الراوي عن أبي هريرة لما سئل عن كيفية ذكره؟: «يقول: سبحان الله، والحمد لله، والله أكبر، حتى يكون منهن كلهن ثلاث وثلاثون».

عن كعب بن عجرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «**معقبات لا يخيب قائلهن أوفاعلهن دبر كل صلاة مكتوبة: ثلاث وثلاثون تسبيحة، وثلاث وثلاثون تحميدة، وأربع وثلاثون تكبيرة**»[(٢)].

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «**من سبح الله في دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين، وحمد الله ثلاثاً وثلاثين، وكبر الله ثلاثاً وثلاثين، وقال تمام المئة: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير؛ غفرت خطاياه وإن كانت مثل**

---

(١) أخرجه البخاري (٨٤٣)، ومسلم (٥٩٥).

(٢) أخرجه مسلم (٥٩٦).

زبد البحر»[١].

عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ كان يتعوذ دبر الصلاة بهؤلاء الكلمات: **«اللهم إني أعوذ بك من الجبن، وأعوذ بك أن أرد إلى أرذل العمر، وأعوذ بك من فتنة الدنيا، وأعوذ بك من عذاب القبر»**[٢].

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: **«خصلتان أوخلتان لا يحافظ عليهما عبد مسلم إلا دخل الجنة، هما يسير، ومن يعمل بهما قليل: يسبح الله تعالى دبر كل صلاة عشراً، ويحمد عشراً، ويكبر عشراً، فذلك خمسون ومئةٌ باللسان، وألف وخمس مئةٍ في الميزان، ويكبر أربعاً وثلاثين إذا أخذ مضجعه، ويحمد ثلاثاً وثلاثين، ويسبح ثلاثاً وثلاثين، فذلك مئة باللسان وألف بالميزان»**[٣].

---

(١) أخرجه مسلم (٥٩٧).

(٢) أخرجه البخاري (٦٣٧٤)، وفيه زيادة: «وأعوذ بك من البخل».

(٣) صحيح- أخرجه أبو داود (٥٠٦٥)، والترمذي (٣٤٧١)، والنسائي (٣/ ٧٤- ٧٥)، وابن ماجه (٩٢٦)، وأحمد (٢/ ١٦١ و٢٠٥).

قلت: إسناده صحيح، وقد حدث به عطاء بن السائب قبل اختلاطه؛ كما بينه الحافظ في «نتائج الأفكار» (ق١٨/ ١)، فقال: حديث حسن، رجاله ثقات؛ إلا عطاء بن السائب اختلط، ورواية الأعمش عنه قديمة؛ فإنه من أقرانه».

قلت: وتابعه حماد بن زيد باللفظ الأول: وأخرجه ابن حبان (٢٣٤٣- موارد).

وسماع حماد من عطاء قبل الاختلاط؛ فالسند صحيح.

تنبيهان:

١- وهم المصنف رحمه الله؛ فعزى الحديث جملة إلى النسائي، وإنما أخرج النسائي الرواية الأولى، وأما أبو داود؛ فأخرجهما كلتيهما معاً.

٢- في رواية لأبي داود (١٥٠٢)، والترمذي (٣٥٥٣- تحفة)، والحاكم (١/ =

قال: فلقد رأيت رسول الله ﷺ يعقدها بيده.

قالوا: يا رسول الله كيف هما يسير ومن يعمل بهما قليل؟

قال: «**يأتي أحدكم -يعني الشيطان- في منامه؛ فينومه قبل أن يقوله، ويأتيه في صلاته؛ فيذكره حاجة قبل أن يقولها**».

عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: «**أمرني رسول الله ﷺ أن أقرأ بالمعوذتين دبر كل صلاة**»(١).

وفي رواية: «بالمعوذات».

فينبغي أن يقرأ: ﴿**قُل هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ**﴾، و﴿**قُل أَعُوذُ بِرَبِّ الفَلَقِ**﴾، و﴿**قُل أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ**﴾.

عن معاذ رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أخذ بيده، وقال: «**يا معاذ والله إني لأحبك**» فقال: «**أوصيك يا معاذ لا تدعن في دبر كل صلاة؛**

=٥٤٧): «بيمينه» وإسنادها صحيح.

وهي التي خصها الحافظ بالكلام؛ لكونها نصاً في التسبيح باليمنى، وإن كانت الأولى لا تخرج عن معناها كما هو ظاهر بالسياق.

ومن زعم أنها حكاية من ابن قدامة لا يحتج بها؛ فقد أبان أنه لا معرفة له بهذا العلم الشريف ألبتة.

وعليه فإن التسبيح باليدين كلتيهما معاً مخالفة للسنة؛ فتنبه ولا تكن من الغافلين.

(١) صحيح- أخرجه أبو داود (١٥٢٣)، والترمذي (٢٩٠٣)، والنسائي (٣/ ٦٨)، وأحمد (٤/ ١٥٥ و٢٠١)، وابن خزيمة (٧٥٥)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (١٢١).

من طريق عن علي بن رباح اللخمي عنه به.

قلت: إسناده صحيح.

تقول: اللهم أعني على ذكرك، وشكرك، وحسن عبادتك»[(١)].

---

(١) صحيح- أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٦٩٠)، وأبو داود (١٥٢٢)، والنسائي (٣/ ٥٣)، وأحمد (١/ ٢٤٤- ٢٤٥ و٢٤٧)، وابن حبان (٢٣٤٥- موارد)، وابن خزيمة (٧٥١)، والحاكم (١/ ٢٧٣ و٣/ ٢٧٣)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (١/ ٢٤١)، والطبراني في «الدعاء» (٦٥٤) وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (١١٧).

من طريق عن حيوة بن شريح سمعت عقبة بن مسلم التجيبي يقول: حدثني أبو عبدالرحمن الحبلي عن الصنابحي عنه به.

قال الحاكم في الموطن الأول: «هذا الحديث صحيح على شرط الشيخين».

وفي الموطن الثاني: «صحيح الإسناد».

ووافقه الذهبي في الموطنين.

وتعقبه الحافظ في «نتائج الأفكار» (٧٧/ ب): «أما صحيح؛ فصحيح، وأما على شرطهما؛ ففيه نظر؛ لأنهما لم يخرجا لعقبة وشيخه، ولا أخرجا من رواية الصنابحي عن معاذ شيئاً».

قلت: وهو كما قال الحافظ؛ فإن إسناده صحيح رجاله ثقات، ولكنه ليس على شرط الشيخين؛ فيكون الحاكم أصاب في الموطن الثاني.

وهذا الحديث مسلسل بالمحبة إلى عقبة بن مسلم.

وله شاهد من حديث عبدالله بن مسعود: أخرجه أبو نعيم في «ذكر أخبار أصبهان» (٢/ ٢٤٠- ٢٤١) رجاله ثقات.

وشاهد آخر من حديث أبي هريرة: أخرجه أحمد (٢/ ٢٩٩)، ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٩/ ٢٢٣) قرأت على أبي قرة الزبيدي موسى بن يسار أو عن أحدهما عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «أتحبون أن تجتهدوا في الدعاء؟ قولوا: اللهم أعنا على ذكرك، وشكرك، وحسن عبادتك».

قال أبو نعيم: «غريب من حديث موسى بن عقبة، تفرد به أبو قرة موسى بن طارق». =

عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: ما دنوت من رسول الله ﷺ في دبرمكتوبة ولا تطوعٍ إلا سمعته يقول: **«اللهم اغفر لي ذنوبي وخطاياي كلها، اللهم انعشني، واجبرني، واهدني لصالح الأعمال والأخلاق إنه لا يهدي لصالحها ويصرف سيئها إلا أنت»**(١).

=قلت: وهو ثقة يغرب، ومن فوقه ثقات من رجال الشيخين، وأخرج أحاديثهم الستة، وموسى بن عقبة: ثقة فقيه إمام في المغازي، وأبو صالح السمان: وهو ذكوان السمان الزيات، ثقة ثبت. وعطاء بن يسار: وهو أبو محمد الهلالي، مولى ميمونة ثقة فاضل، صاحب عبادة ومواعظ، فالإسناد صحيح غاية، والحمد لله.

وأخرجه الحاكم (١/ ٤٩٩) من طريق خارجة عن موسى بن عقبة عن محمد بن المنكدر عن عطاء بن يسار عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: (فذكره).

قال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد؛ فإن خارجة لم ينقم عليه إلا روايته عن المجهولين، وإذا روى عن الثقات الأثبات فروايته مقبولة»، ووافقه الذهبي.

قلت: خارجة: هو ابن مصعب، أبو الحجاج السرخسي.

قال الحافظ في «التقريب» (١/ ٢١١): «متروك، وكان يدلس عن الكذابين».

ونقل الذهبي في «المغني» (١/ ٢٠٠)، و«ميزان الاعتدال» (١/ ٦٢٥) تضعيف الدارقطني وغيره له.

وبذلك تعلم: أن تصحيح الحاكم، وموافقة الذهبي مردود عليهما رحمهما الله.

وهناك شاهد مرسل: أخرجه ابن أبي الدنيا في «كتاب الشكر» (٤) حدثنا إسحاق بن إسماعيل: ثنا معاوية وجعفر بن عون عن هشام بن عروة عن ابن المنكدر؛ قال: «كان دعاء رسول الله ﷺ: اللهم أعني على ذكرك، وشكرك، وحسن عبادتك».

قلت: إسناده حسن لولا إرساله.

تنبيه: يقول كثير من الناس في نهاية هذا الحديث: «ولا تجعلني على ذكرك من الغافلين» وهي زيادة لا أصل لها.

(١) **حسن بشواهده**- أخرجه ابن السني في «عمل اليوم والليلة» (١١٥)،=

عن أبي بكرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ كان يقول في دبر الصلاة: «**اللهم إني أعوذ بك من الكفر، والفقر، وعذاب القبر**»[1].

=والطبراني في «الكبير» (٧٨١١ و٧٨٩٣) من طريق علي بن يزيد عن القاسم عنه به.

قلت: هذا الإسناد ضعيف جداً؛ لأن علي بن يزيد -وهو أبو عبدالملك الألهاني- متروك، وقد صحف في المطبوع من «عمل اليوم والليلة» إلى: «علي بن زيد بن جدعان»، وأما في المخطوطة (١٧/ ب) فعلى الصواب.

لكن له طريق آخر عند الطبراني في «الكبير» (٧٩٨٢) حدثنا عبيد بن غنام ثنا أبو بكر بن أبي شيبة ثنا كثير بن هشام عن جعفر بن برقان عن عروة بن دينار عن الزبير ابن خريق عن أبي أمامة: ذكره.

قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ١١٢): «ورجاله رجال الصحيح؛ غير الزبير بن خريق، وهو ثقة».

قلت: بل لَيِّن الحديث.

وله شاهد من حديث أبي أيوب رضي الله عنه: أخرجه الطبراني في «الصغير» (١/ ٢١٩- ٢٢٠)، و«الأوسط» (٤٥٣- مجمع البحرين)، و«الكبير» (٣٨٧٥) حدثنا عبدالله بن زيدان البجلي الكوفي ثنا حمزة بن عون المسعودي ثنا محمد بن الصلت ثنا عمر بن مسكين عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما عن أيوب؛ قال: ما صليت وراء نبيكم إلا وسمعته حين ينصرف من صلاته يقول: (ذكره).

قال الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ١١١): «وإسناده جيد».

وقال (١٠/ ١٧٣): «رواه الطبراني، ورجاله وثقوا».

قلت: فالحديث بالطريق الثاني والشاهد من حديث أبي أيوب حسن، والله أعلم.

(١) صحيح- أخرجه النسائي (٣/ ٧٣- ٧٤)، وأحمد (٥/ ٣٦ و٣٩ و٤٤)، وابن السني (١١٠).

من طرق عن عثمان الشحام عن مسلم بن أبي بكرة قال: كان أبي يقول في دبر الصلاة: (وذكره)؛ فكنت أقولهن، فقال أبي: أي بني عمَّن أخذت هذا؟ قلت: عنك، قال: «إن رسول الله كان يقولهن في دبر كل صلاة». =

عـن فضالــة بـن عبيـد الله قــال: قـال رسـول الله ﷺ: **«إذا صلى أحدكـم؛ فليبـدأ بتحميـد الله تعـالى والثناء عليه، ثم يصلي على النبي ﷺ ثم يدعوبما شاء»**[(١)].

=قلت: هذا إسناد صحيح على شرط مسلم.

وأخرجه الترمذي (٣٥٠٣)، والحاكم (١/ ٥٣٣).

مـن طريـق أبـي عـاصم النبيـل ثنـا عثمـان الشـحام بـه إلا أنـه قال: «من الهم والكسل»؛ بدل: «من الكفر والفقر».

قال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

قال الحاكم: «صحيح على شرط مسلم»، ووافقه الذهبي.

قلـت: روايـة «مـن الكفـر والفقـر» أصـح مـن رواية «من الهم والكسل»؛ لاتفاق الثقات عليها؛ كما سبق بيانه، فرواية أبي عاصم النبيل شاذة.

تنبيـه: استدرك الحافظ ابن حجر على النووي، فقال ؛كما في «الفتوحات الربانية» (٣/ ٦٠- ٦١): «وعجيـب للشـيخ -أي: النـووي- في اقتصـاره علـى ابـن السـني، والحديث في أحد «السنن» المشهورة».

(١) **صحيـح**- أخرجه الـترمذي (٣٥٤٦- تحفـة)، والنسـائي (٨/ ٢٦١- تحفة) وأحمـد (٦/ ١٨)، والحـاكم (١/ ٢٣٠)، وابـن السني في «عمل اليوم والليلة» (١١٢)، والقاضي إسماعيل الجهضمي في «فضل الصلاة على النبي» (١٠٦).

مـن طريـق ابـن هانئ أن عمرو بن مالك الجنبي أخبره أنه سمع فضالة بن عبيد (وذكره).

قال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح».

وقال الحاكم: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم»، ووافقه الذهبي.

قلـت: أمـا الصحيـح؛ فصحيـح، وأمـا على شرط مسلم؛ ففيه نظر لا يخفى؛ لأن مسلماً لم يخرج لعمرو بن مالك.

وقـد اقتصـر النـووي رحمـه الله علـى «عمـل اليـوم والليلة» لابن السني؛ فضعف الحديـث؛ لأن في إسـناده عنـده ابـن لهيعـة، ولا أدري كيـف فاتـه أنـه في بعض السنن المشهورة.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفائدة التسعون: البيعة عقد شرعي لنصرة الإسلام، وهي واجبة لإمام جماعة المسلمين المنفذ لأحكام الدين.

وهذا ظاهر جلي في قول كعب رضي الله عنه: «ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام».

ومن أعطى هذه البيعة لأمير حزب أوشيخ طريقة أوغير ذلك؛ فقد ابتدع، ولا يلزمه شيء من ذلك.

سئل السيوطي عن رجل من الصوفية أخذ العهد على رجل، ثم اختار الرجل شيخاً آخر، وأخذ عليه العهد؛ فهل العهد الأول لازم أم الثاني؟ فقال: «لا يلزمه العهد الأول ولا الثاني، ولا أصل لذلك»[1].

عن مطرف بن عبد الله بن الشخير قال: «كنا نأتي زيد بن صوحان فكان يقول: يا عباد الله أكرموا وأجملوا؛ فإنما وسيلة العباد إلى الله بخصلتين: الخوف، والطمع؛ فأتيته ذات يوم وقد كتبوا كتاباً؛ فنسقوا كلاماً من هذا النحو: إن الله ربنا، ومحمد نبينا، والقرآن إمامنا، ومن كان معنا كنا وكنا له، ومن خالفنا كانت يدنا عليه وكنا وكنا. قال: فجعل يعرض الكتاب عليهم رجلاً رجلاً؛ فيقولون: أقررت يا فلان حتى انتهوا إلي، فقالوا: أقررت يا غلام؟ قلت: لا. قال: لا تعجلوا على الغلام، ما تقول يا غلام؟

قال: قلت: إن الله قد أخذ علي عهداً في كتابه؛ فلن أحدث عهداً سوى العهد الذي أخذه الله عز وجل علي. قال: فرجع القوم من عند آخرهم ما أقره به أحد منهم. قال: قلت لمطرف: كم كنتم؟ قال: زهاء

---

(١) «الحاوي للفتاوي» (١/ ٢٥٣).

ثلاثين رجلاً»[١].

الفـائدة الحادية التسـعون: الإمام إذا عزم على أمر وتوكل على الله لا ينبغي أن يتلفت خلفه.

قـال كعب رضي الله عنـه : «فغزاهـا الرسـول ﷺ في حـر شـديد واستقبل سـفراً بعيـداً ومفـازاً واسـتقبل عدواً كثيراً فجلا للمسلمين أمرهم؛ ليتـأهبوا أهبـة غزوهـم، فأخـبرهم بوجههم الذي يريد، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير لا يجمعهـم كتـاب حافظ، فقل رجل يريد أن يتغيب إلا يظن أن ذلـك سـيخفى له ما لم ينزل فيه وحي من الله عز وجل، وغزا رسول الله تلـك الغـزوة حين طابت الثمار والظلال، فأنا إليها أصعر، فتجهز رسول الله ﷺ والمسـلمون معـه، وطفقت أغدولكي أتجهز معهم فأرجع ولم اقض شيئاً، وأقـول في نفسـي: أنا قادر على ذلك إذا أردت، فلم يزل ذلك يتمادى بي حتـى استمر بالنـاس الجد، فأصبح رسول الله ﷺ غادياً والمسلمون معه ولم أقض جهازي».

فهـذا رسـول الله ﷺ مضـى في وجهته ولم يتلفت لمن تخلفـه وهو بهذا يطبق قول الله تعالى: ﴿**فَإِذَا عَزَمتَ فَتَوَكَل عَلَى الله إِنَّ اللهَ يُحِبُ المتَوَكِلِين**﴾ [آل عمران: ١٥٩].

هكـذا ينبغي أن يمضي القائد الواثق لا يلوي على شيء إنما يتلفت المـتردد المضطـرب الـذي يقـدم رِجْـلاً ويؤخـر أخـرى؛ فينقض عليه عدوه؛ فيورده المهالك.

---

(١) أخرجـه أبـو نعيـم في «حليـة الأوليـاء» (٢/ ٢٠٤)، ومـن طريقه الذهبي في «سير أعلام النبلاء» (٤/ ١٩٢).

قلت: إسناده صحيح.

وقد ضرب أهل العلم لهذا مثلاً بالغزال وكلب الصيد؛ فإن الغزال أسرع من كلب الصيد لكن كلب الصيد يدركه ويقتله؛ لأن الغزال يكثر التلفت؛ فتثقل حركته، وتتباطأ سرعته؛ فيلحقه عدوه؛ فيهلكه.

الفائدة الثانية والتسعون: استغفار رسول الله ﷺ ينفع المؤمن وأما الكافرين والمنافقين فلا.

قال كعب: «جاءه المخلفون؛ فطفقوا يعتذرون إليه، ويحلفون له، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً؛ فقبل منهم علانيتهم، وبايعهم، واستغفر لهم، ووكل سرائرهم إلى الله».

وقال: «وثار رجل من بني سلمة فاتبعوني، فقالوا لي: والله ما علمناك أذنبت ذنباً قبل هذا، لقد عجزت في أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر به إليه المخلفون فقد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله ﷺ لك».

وقد جاءت الآيات القرآنية صريحة في بيان أن استغفار الرسول للكفار والمنافقين لا ينفعهم.

قال تعالى: ﴿**استَغفِر لَهُم أَو لا تَستَغفِر لَهُم إِن تَستَغفِر لَهُم سَبعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغفِرَ اللَّهُ لَهُم ذَلِكَ بِأَنَّهُم كَفَرُوا بِاللَّه وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لا يَهدِي القَومَ الفَاسِقِين**﴾ [التوبة: ٨٠].

وقال: ﴿**مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَستَغفِرُوا لِلمُشرِكِينَ وَلَوكَانُوا أُولِي قُربَى مِن بَعدِ مَا تَبَيَّن لَهُم أَنَّهُم أَصحَابُ الجَحِيم**﴾ [التوبة: ١١٣].

وقال: ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُم تَعَالَوا يَستَغفِر لَكُم رَسُولُ اللَّهِ لَوَوا رُؤُوسَهُم وَرَأَيتَهُم يَصُدُّونَ وَهُم مُستَكبِرون سَوَاءٌ عَلَيهِم استَغفَرتَ لَهُم أَم لَم تَستَغفِر**

لَهُم لَن يَغفِرَ اللَّهُ لَهُم إِنَّ اللَّهَ لا يَهدِي القَومَ الفَاسِقِينَ﴾ [المنافقون: ٥-٦].

مما تقدم يتبين أن استغفار الرسول ﷺ إنما ينتفع منه المؤمنون المتبعون.

الفائدة الثالثة والتسعون: استحباب التعرض لمواطن الرحمة، واستمطار المغفرة، واستجلاب التوبة.

وهذا واضح في خروج كعب؛ ليشهد صلاة الجماعة، ويحضر مجامع المسلمين، ويرى رسول الله ﷺ؛ فإن ذلك كله من أسباب الرحمة وموجبات المغفرة.

الفائدة الرابعة والتسعون: تلطف المسيء بالتعرض لمن أساء إليه، والتودد إليه بالاعتذار.

وهذا ظاهر في تعرض كعب لرسول الله ﷺ: «وآتي رسول الله ﷺ؛ فأسلم عليه، وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي هل حرك شفتيه برد السلام علي أم لا ؟ ثم أصلي قريباً منه وأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي نظر إلي، وإذا التفت نحوه أعرض عني».

الفائدة الخامسة التسعون: حفظ الجميل.

حفظ الجميل خلق كريم من شيم الفضلاء؛ فهذا كعب كان يحفظ الجميل لطلحة بن عبيد الله: «فقام طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني وهنأني، والله ما قام رجل من المهاجرين غيره، فكان كعب لا ينساها لطلحة».

الفائدة السادسة والتسعون: عدم الاغترار بالعمل فمن فعل ذلك وُكِل إلى نفسه.

قال كعب: «وأقول أنا قادر على ذلك إذا أردت، فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى استمر الناس بالجد، فأصبح رسول الله ﷺ غادياً والمسلمون معه، ولم أقض من جهازي شيئاً، فقلت أتجهز بعده بيوم أويومين ثم ألحقهم ثم غدوت بعد أن فعلوا لأتجهز فرجعت ولم أقض شيئاً».

فهذا كعب كان قادراً على الخروج ولكنه اغتر بقدرته؛ فوُكِل إلى نفسه، ولذلك قال أهل العلم: التوفيق أن لا يَكِلَك الله إلى نفسك، والخذلان أن يكلك الله إلى نفسك.

وصدق من قال:

إذا لم يكن من الله عون للفتى فأول ما يقضي عليه اجتهاده

الفائدة السابعة والتسعون: للشيخ الكبير حق ينبغي مراعاته.

وهذا واضح في قول امرأة هلال بن أمية: «يا رسول الله إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم فهل تكره أن أخدمه؟»

ويظهر هذا الحق أيضاً في استعطاف أخوة يوسف له عندما أخذ أخاهم بنيامين: ﴿**قالوا يا أيها العزيز إن له أباً شيخاً كبيراً فخذ أحدنا مكانه إنا نراك من المحسنين**﴾ [يوسف: ٧٨].

الفائدة الثامنة والتسعون: الشيخ الكبير بحاجة للرعاية والخدمة والقيام على شؤونه.

ففي وصف امرأة هلال أنه شيخ ضائع ليس له خادم ما يدل على ذلك.

ويظهر هذا أيضاً في تعليل بنات شعيب عليه السلام لخروجهن من

أجـل المـاء: ﴿وَلَمَّـا وَرَدَ مَاءَ مَديَنَ وَجَدَ عَلَيهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسقُونَ وَوَجَدَ مِـن دُونِهِـمُ امرَأَتَـينِ تَـذُودَانِ قَـالَ مَـا خَطبُكُمَـا قَالَتَا لا نَسقِي حَتَّى يُصدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيخٌ كَبِير﴾ [القصص: ٢٣].

الفـائدة التاسـعة والتسـعون: الخـروج للجهـاد بحاجـة إلى إعـداد واستعداد.

قـال كعـب رضـي الله عنـه: «فجـلا للمسـلمين أمرهم؛ ليتأهبوا أهبة غزوهم».

قال تعالى: ﴿وَلَو أَرَادُوا الخروجَ لأعَدُّوا لَهُ عُدَّةً﴾ [التوبة: ٤٦].

والإعداد للجهاد على نوعين:

مـادي؛ كمـا في قولـه تعـالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَا استَطَعتُم مِن قُوَّةٍ وَمِن رِبَاطِ الخيلِ تُرهِبُونَ بِهِ عَدُوَ الله وَعَدُوَكُم﴾ [الأنفال: ٦٠].

ومعنـوي تربـوي؛ كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللهَ يَنصُرُكُم وَيُثَبِت أَقدَامَكَم﴾، [محمد: ٧].

ولا شـك أن المعنـوي أصـل ينبنـي عليه المادي؛ فإذا لم يتهيأ الجندي معنويـاً فـلا ينفعـه الاسـتعداد المـادي، فهذا كعب رضي الله عنه كان قادراً علـى الاسـتعداد المـادي لكنـه لم ينتفـع بـه؛ لأنـه لم يتهيأ معنوياً فهويميل نفسـياً إلى الظـلال والثمار؛ فها هويقول: «وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال، وأنا إليها أَصعَر».

ولذلـك فـإن منهـج الأنبياء في الجهاد في سبيل الله يقوم على تأصيل الجـانب المعنـوي الـتربوي في حيـاة الأمـة قبـل لقاء أعداء الله؛ لأن غراس الإسـلام إن لم يتعاهدهـا المربـون المخلصـون بالتربيـة الإيمانية حتى تنضج

ثمارها، وتقطف في أوانها، وإلا اعتورها في لحظة غفلة أو غرور انتفاضة قائمة على ضعف ونقص: ضعف في حقيقة الأيمان الذي يربط على القلوب ويثبت الأقدام، ونقص في إدراك حقيقة الموقف الذي يواجهونه.

ويظهر هذا الضعف والنقص عندما يتخلى المدعون والمستعجلون عنها فوجاً بعد فوج في مراحل الطريق.

وهذه الحماسة الجماعية قد تخدع القائد؛ لو أخذ بمظهرها الأخاذ، وبريقها النفاذ؛ فيجب أن يضعها على محك التجربة قبل أن يقف معهم وبهم الموقف الحاسم.

وقد ضرب لنا الله في كتابه مثلاً فقال جل وعز: ﴿أَلَم تَرَ إِلَى المَلإِ مِن بَنِي إِسرَائِيلَ مِن بَعدِ مُوسَى إِذ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُم ابعَث لَنا مَلِكاً نُقَاتِل فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَل عَسَيتُم إِن كُتِبَ عَلَيكُم القِتَالُ أَلا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنا أَلا نُقَاتِل فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَد أُخرِجنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبنَائِنَا فَلَمَا كُتِبَ عَلَيهِم القِتَالَ تَولَّوا إِلا قَلِيلاً مِنهُم وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَالِمِين وَقَالَ لَهُم نَبِيُّهُم إِنَّ اللَّه قَدَ بَعَثَ لَكُم طَالُوتَ مَلِكاً قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ المُلكُ عَلَينَا وَنَحنُ أَحَقُّ بِالمُلكِ مِنهُ وَلَم يُؤتَ سَعَةً مِنَ المَال قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصطَفَاهُ عَلَيكُم وَزَادَهُ بَسطَةً فِي العِلمِ وَالجِسمِ وَاللَّهُ يُؤتِي مُلكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيم وَقَالَ لَهُم نَبِيُّهُم إِنَّ آيَةَ مُلكِهِ أَن يَأتِيَكُم التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِن رَبِّكُم وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحمِلُهُ المَلائِكَة إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَكُم إِن كُنتُم مُؤمِنِين فَلَمَّا فَصَلَ طَالوتُ بِالجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّه مُبتَلِيكُم بِنَهَر فَمَن شَرِبَ مِنهُ فَلَيسَ مِنِّي وَمَن لَم يَطعَمهُ فَإِنَّه مِنِّي إِلا مَن اغتَرَفَ غُرفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنهُ إِلا قَلِيلاً مِنهُم فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لا طَاقَةَ لَنَا اليَومَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُلاقُوا اللَّه كَم مِن

فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَت فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذنِ اللَّه وَاللَّه مَعَ الصَّابِرِينَ وَلَمَا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفرِغ عَلَينَا صَبراً وَثَبِّت أَقدَامَنَا وَانصُرنَا عَلَى القَومِ الكَافِرِينَ فَهَزَمُوهُم بِإِذنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاودَ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ المُلكَ وَالحِكمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاء وَلَولا دَفعُ اللَّهِ النَّاسِ بَعضَهُم بِبَعضٍ لَفَسَدَت الأَرضُ وَلَكِنَّ اللَّه ذُو فَضلٍ عَلَى العَالَمِين تِلكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتلُوهَا عَلَيك بِالحَقِ وَإِنَّكَ لَمِنَ المُرسَلِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٦-٢٥٢].

لقد تقدم الملأ من بني إسرائيل إلى نبي لهم من بعد موسى عليه الصلاة والسلام أن يختار لهم ملكاً يقودهم إلى معركة مع أعداء الله، وهم في طلبهم مخطئون من وجوه:

١- عندما فصلوا بين أهل القيادة وأهل العبادة عندما ظنوا أنهم على مفترق طريق؛ ففصلوا بين الدين والدنيا، فالقائد الذي يطلبون أمامهم لوكانوا يبصرون وهو نبيهم الذي يخاطبون؛ فإن بني إسرائيل كانت تسوسهم الأنبياء كلما هلك نبي خلفه نبي، أوليست المعركة الحاسمة من ضروريات سياسة الأمة؟!

ويدرك نبيهم ضعفهم وغفلتهم؛ فيريد أن يرشدهم ولكن بإجابة الحكيم، فيستوثق منهم قائلاً: **﴿هَل عَسَيتُم إِن كُتِبَ عَلَيكُمُ القِتَالُ أَلا تُقَاتِلُوا﴾** وهنا غلا الزبد المعربد مستنكراً، وارتفعت حماسته إلى الذروة، وبدأ يطرح حوافز المعركة، ومسوغات القتال، وضرورة الاستعجال: **﴿قَالُوا وَمَا لَنَا أَلا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَد أُخرِجنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبنَائِنَا﴾**

ولكن هذه الحماسة الجياشة البالغة ما لبثت أن انطفأت شعلتها، وتهاوت جذوتها على مراحل الطريق: **﴿فَلَمَا كُتِبَ عَلَيهِمُ القِتَالَ تَولَّوا إِلا قَلِيلاً مِنهُم وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾**

ومع أن ديدن بني إسرائيل النكول عن العهد، والنكوص عن الوعد، والتفلت من الطاعة، والتفرق في منتصف الطريق، والتولي عن الحق المبين، فقد خذلوا موسى عليه السلام من قبل: ﴿وَإِذ قَالَ مُوسَى لِقَومِهِ يَا قَومِ اذكُرُوا نِعمَةَ اللَّهِ عَلَيكُم إِذ جَعَلَ فِيكُم أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُلُوكاً وَآتَاكُم مَا لَم يُؤتِ أَحَداً مِنَ العَالَمِينَ يَا قَومِ ادخُلُوا الأَرضَ المُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُم وَلا تَرتَدُّوا عَلَى أَعقَابِكُم فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ قَالُوا يَا مُوسَى إِن فِيهَا قَوماً جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَدخُلَهَا حَتَّى يَخرُجُوا مِنهَا فَإِن يَخرُجُوا مِنهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ قَالَ رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون قال رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين قال إنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين﴾ [المائدة: ١٩-٢٦].

إلا أن هذه الظاهرة هي ظاهرة بشرية على كل حال، في الجماعات والمجتمعات التي لم تبلغ تربيتها الإيمانية مبلغاً عالياً؛ فيحسن الانتفاع فيها بتجربة بني إسرائيل.

ولذلك فهي سمة ينبغي للقيادة الراشدة أن تكون منها على حذر، وأن تحسب حسابها في الطريق الشاق الوعر، كي لا تفاجأ بها، فيتعاظمها الأمر، فهي متوقعة في الجماعات التي لم تخلص من الأوشاب، ولم تُطَهَّر من هذه العقبات، ولم تصهر في بوتقة التربية الإيمانية العالية الطويلة الأمد العميقة التأثير.

وفي هذا الحوار الساخن بين القيادة البصيرة والمستعجلين الذين

يريدون أن يزببوا قبل أن يحصرموا الحاجة في نفوسهم؛ فتسقط الأقنعة الزائفة، وتتهاوى الشعارات البراقة، ويتضح أن الملأ من بني إسرائيل يطلبون صيداً: ﴿وَقَالَ لَهُم نَبِيُّهُم إِنَّ اللَّه قَدَ بَعَثَ لَكُم طَالُوتَ مَلِكاً قَالُوا أَنّى يَكُونُ لَهُ المُلكُ عَلَينَا وَنَحنُ أَحَقُّ بِالمُلكِ مِنهُ﴾.

أنهم اتخذوا شعار الجهاد والقتال في سبيل الله، وتحرير الوطن السليب، والذود عن الأعراض والأولاد سُلَّماً، أما دخيلة نفوسهم فهي أنهم يريدون الملك ولا شيء غير الحكم، ولكنهم يريدون أن يأتي هذا الحكم عن طريق الدعاة إلى الله، ليواروا سوآتهم أمام الناس.

٢- ويخطئ الملأ مرة أخرى عندما يتركون مقياس الدين ويلجؤون إلى مقاييس الطين؛ فينغصون رؤوسهم، ويلوون أعناقهم، ويجادلون نبيهم اختيار الله لهم: ﴿وَلَم يُؤتَ سَعَةً مِنَ المالِ﴾.

ولكن سرعان ما تتجلى حكمة الله في اصطفاء طالوت ملكاً وأحقيته الذاتية في ذلك: ﴿قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصطَفَاهُ عَلَيكُم وَزَادَهُ بَسطَةً فِي العِلمِ وَالجِسمِ وَاللَّهُ يُؤتِي مُلكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيم﴾.

إنه رجل اختاره الله، وهذه تكفي؛ فاختيار الله ليس كاختيار البشر، إن الله زاده بسطة في العلم والجسم وهذا بيان للناس أن القيادة الراشدة التي تسير بالناس نحو خلافةٍ على منهاج النبوة هي القائمة على ميراث النبوة، والأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، إنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقتَدِه﴾ [الأنعام: ٩٠].

وسرعان ما يتجلى رسوخ طالوت في العلم، إنه اصطفاء الله، فهو رباني يريد أن يربي جنده على صغار الأمور قبل كبارها؛ لأنه مقدم على معركة، ومعه جيش من أمة مغلوبة ومهزومة مرة بعد أخرى، وهو يواجه

جيشاً قوياً، فلا بد أن يسلح جنده بقوة كامنة تستطيع الوقوف أمام القوة الظاهرة الغالبة، إنها الإرادة التي تضبط الشهوات، وتكبح النزوات، وتصمد للحرمان والمشاق، وتستعلي على الحاجات وتؤثر الطاعات، فتجتاز الابتلاء بثبات، فلا بد للقائد الراشد أن يبلو إرادة جنده، وصمودهم وصبرهم.

وانظر كيف يختار طالوت هذه التجربة، إن جنده عطاش وأمامهم نهر فهويريد ابتلاءهم ليعلم من يصبر معه ممن ينكص على عقبه ويؤثر العافية الفانية: ﴿**فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّه مُبتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنهُ فَلَيسَ مِنِّي وَمَن لَم يَطعَمهُ فَإِنَّه مِنِّي إِلا مَن اغتَرَفَ غُرفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنهُ إِلا قَلِيلاً**﴾.

شربوا وارتووا، وحصلت المفاصلة والتميز؛ لأنهم لا يصلحون للمهمة الملقاة على عاتقه وعاتقهم، إذن فمن الخير ومن الحزم أن ينفصلوا عن الجيش الزاحف لأنهم بذرة ضعف وخذلان وهزيمة لوكانوا فيهم ما زادوهم إلا خبالاً، والجيوش ليست بالعدد الضخم، والتمليع الفخم، ولكن بالقلب الصامد، والإرادة الجازمة، والإيمان الثابت المستقيم على الطريق.

وهكذا يتبين أن النية الكامنة وحدها لا تكفي، ولا بد من التجربة العملية التي تصقل المعدن؛ ليصلب العود قبل دخول المعركة.

ولكن هذا الخذلان لم يهز القائد بل مضى في طريقه.

ولم تكن هذه الغربلة المرة الأخيرة بل تكررت التجربة: ﴿**فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لا طَاقَةَ لَنَا اليَومَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ**﴾.

إنهم لم ينكصوا ولكنهم أمام واقع يرون بأعينهم أنهم أضعف من مواجهته.

ولكنها التجربة الخاتمة: تجربة الاعتزاز بالله الذي لا غالب له، وهذا مقام لا يصمد له إلا من اكتمل إيمانه، وأصبحت له موازين يستمدها من واقع إيمانه غير الموازين التي يستمدها الناس من واقع حالهم.

وهنا برزت الطائفة المؤمنة، القليلة المختارة ذات الموازين الربانية: ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُلاقُوا اللَّهِ كَم مِن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَت فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذنِ اللَّه وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِين﴾.

هذه هي القاعدة: أن تكون الطائفة المؤمنة قليلة؛ لأن الرقي إلى القمة شاق يتساقط خلاله أهل النفاق حتى ينتهي إلى مرتبة الاصطفاء والاختيار، ولكن القلة تكون الغالبة لأنها مرتبطة بالقوي العزيز الذي لا يذل من والاه، ولا ينتصر من عاداه، ولا يضام من لجأ إلى حماه، ولن يضل من استضاء بهداه: ﴿قُل إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الهدَى﴾ [البقرة: ١٢٠].

وهذه القلة المؤمنة الثابتة لم تزلزلها كثرة العدو وقوته؛ لأنها هي التي تحسم المعركة بمواصلة عهدها مع الله؛ لأنه وحده واهب النصر والحياة: ﴿وَمَا النَّصرُ إلا مِن عِندَ اللَّهِ﴾ [الأنفال: ١٠].

وكانت النتيجة التي ترقبوها واستيقنوها: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنَودَهُ قَالُوا رَبَّنَا أَفرِغ عَلَينَا صَبراً وَثَبِّت أَقدَامَنَا وَانصُرنَا عَلَى القَومِ الكَافِرِين فَهَزَمُوهُم بِإِذنِ اللَّه﴾.

ويؤكد النص حقيقة: أن النتيجة بيد الله وبإذنه ومن عنده؛ ليعلمها المؤمنون فيزدادوا بها علماً وثباتاً.

٣- ويعود النص القرآني في لفتة بليغة ليؤكد خطأ الملأ من بني إسرائيل الذين فصلوا بين أهل العبادة وأهل القيادة فظنوا أن ما لله لله ولقيصر لقيصر ونسوا أوتناسوا أن كل شيء لله، فيبرز دور داود عليه الصلاة

والسلام وأنه قتل جالوت بينما لم يتمكن طالوت من ذلك وهو القائد الذي اختاره الله لقيادة بني إسرائيل، تنبيهاً للغافلين أن أهل العلم والعبادة هم أهل القيادة وأن عروتهما لا تنفصم ولا تقبل القسمة إلا على سنن بني إسرائيل المغضوب عليهم: **﴿وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾**.

وقد كانت العبادة والقيادة في بني إسرائيل لأنبياء الله صلوات الله وسلامه عليهم الذين كانوا يسوسون بني إسرائيل.

عن أبي حازم قال: قاعدت أبا هريرة خمس سنين فسمعته يحدث عن النبي ﷺ قال: «**كانت بنوا إسرائيل تسوسهم الأنبياء كلما هلك نبي خلفه نبي، وإنه لا نبي بعدي، وسيكون خلفاء فيكثرون**»، قالوا: فما تأمرنا؟ قال: «**فوا ببيعة الأول فالأول، أعطوهم حقهم، فإن الله سائلهم عما استرعاهم**»[(١)].

وحكمة طالوت التي أظهرها وهو يقود جنده إلى عدوهم بإذن الله، هذه الحكمة التي تنبئ عن بسطة العلم التي حبا الله بها طالوت مأخوذة من سياسة نبي من أنبياء بني إسرائيل وهو يوشع بن نون فتى موسى عليه الصلاة والسلام، ودونك تبيان هذه المقام، لكيلا تضل أفهام، وتزل أقدام، أويبقى في نفوس تردد وإحجام.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «**غزا نبي من الأنبياء؛ فقال لقومه: لا يتبعني رجل ملك بضع امرأة وهو يريد أن يبني بها ولما يبن بها، ولا أحدٌ بني بيوتاً ولم يرفع سقوفها، ولا آخر اشترى غنماً أوخلفات وهو ينتظر ولادتها، فغزا فدنا من القرية صلاة العصر أو قريباً**

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٥٥)، ومسلم (١٤٨٢).

مـن ذلـك؛ فقـال للشـمس: إنـك مـأمورة وأنـا مأمور اللهم احبسها علينا، فحبسـت حتـى فتـح الله عليهـم فجمـع الغنـائم، فجـاءت -يعنـي النار- لتأكلهـا فلم تطعمها؛ فقال: إن فيكم غلولاً؛ فليبايعني من كل قبيلة رجل؛ فـلزقت يـد رجـل بيـده؛ فقـال: فيكم الغلول فليبايعني قبيلتك؛ فلزقت يد رجلـين أوثلاثـة بيـده؛ فقـال: فيكم الغلول؛ فجاؤوا برأس بقرة من الذهب فوضعوهـا فجـاءت النـار فأكلتهـا، ثـم أحـل الله لنـا الغنـائم رأى ضعفنا وعجزنا فأحلها لنا»[1].

أ - أمـا أن هـذا النبـي هويوشـع بن نون عليه الصلاة والسلام؛ فإن الشـمس لم تحبـس إلا لـه، لقول رسول الله ﷺ: «**إن الشمس لم تحبس على بشر إلا يوشع ليال سار إلى بيت المقدس**»[2].

ب - أمـا أنـه قبـل طـالوت، فنص القرآن يؤكده: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَأِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَى**﴾.

ويوشـع بـن نـون عليـه الصـلاة والسـلام هوفتى موسى عليه الصلاة والسلام الـذي دخـل ببنـي إسـرائيل الأرض المقدسة بعد مرحلة التيه التي كتبت عليهم حيث لم يقاتلوا مع موسى عليه الصلاة والسلام.

ت- أمـا أن خطـة طـالوت مـأخوذة مـن سياسة يوشع بن نون عليه الصـلاة والسـلام؛ فظـاهرٌ أن يوشع بن نون عليه الصلاة والسلام أمر جنده أن يخـرج منهـم مـن كـان قلبه متعلقاً بالرجوع؛ لأن فتن الدنيا تدعوالنفس إلى الهلـع عند اللقاء، والجبن عندما يحمي الوطيس حباً في البقاء، ومن كان كذلـك فهوبـذرة ضعـف، وثغـرة يتسـلل منها العدو؛ فلا بد من استئصاله من صفوف الجيش الزاحف.

---

(١) مضى تخريجه (ص ٢٤).

(٢) مضى تخريجه (ص ٢٣).

وخطة طالوت لم تخرج عن هذه السياسة الشرعية؛ فهي ضمن قواعدها المرعية.

ث - خطة طالوت في مواجهة جالوت وجنده وجهٌ لبسطة العلم التي حباه الله بها، وهذا العلم علمٌ موروث من الأنبياء، ولم يكن رأياً، أواجتهاداً، أوتقليداً؛ فتبين أن العلم النافع والدواء الناجع هوميراث الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

ولله در القائل:

العلم قال الله قال رسوله قال الصحابة ليس بالتمويه
ما العلم نصبك للخلاف جهالة بين الرسول وبين رأي فقيه

وعوداً على بدء؛ فإن إبراز القرآن لدور داود عليه الصلاة والسلام في نهاية المعركة، وبيان حاله، وأنه كان ملكاً نبياً هو: للدلالة على أن أهل العلم الأثري هم الذين ينبغي أن يقودوا الأمة إلى النصر والتمكين والاستخلاف في الأرض بإذن الله، وليعبد الله وحده، ويكون الدين كله لله، ويكون الذل والصغار على من خالف أمره.

وانظر رحمك الله إلى هذا الغبش في التصور الذي وقع فيه الملأ من بني إسرائيل كيف قادهم في الخاتمة إلى الانحراف الكبير والتولي يوم الزحف.

فليحذر النابهون هذا المنزلق؛ فإنه من سنن بني إسرائيل، فإياكم وإياهم.

فهي سمة بشرية عامة لا تتغير إلا بالتربية الإيمانية ذات الموازين الربانية، الطويلة الأمد،العميقة التأثير، والتي هي منهج الطائفة الناجية والفرقة المنصورة في التغيير.

وانظر إلى رسول الله ﷺ يؤكد هذا المنهج في نفوس أصحابه في بيعة العقبة الكبرى عند أخذ العهد والميثاق عليهم، فقال له العباس بن عبادة ابن نضلة: والذي بعثك بالحق لئن شئت لنملين على أهل منى غداً بأسيافنا، فقال رسول الله ﷺ: «**لم أومر بذلك**»[(١)].

وهذا المنهج التربوي الإيماني الذي درج عليه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام دعى إليه القرآن في مواضع كثيرة، وهو من أعظم ما يدل على رحمة الله جل جلاله ومن أعظم ما يُرَقّي العاملين إلى كل خير في الدنيا والآخرة.

لأن العامل إذا اشتغل بعلمه الذي هو وظيفة وقته قصر فكره وظاهره وباطنه عليه؛ فينجح، ويفلح، ويتم له الأمر، فمن تأنى نال ما تمنى.

وإن استشرف أعمالاً وأحوالاً لم يحن وقتها، ولم يأت قطافها وقع على أم رأسه، واقتلع من أسه، ويومئذ فلا يلومن إلا نفسه؛ لأنه قد حفر رمسه بنفسه.

فإنه إن شُغِل بها أهمل العمل الذي هو وظيفة وقته، وقد رأينا أناساً زعموا: أنهم يسعون لاستئناف حياة إسلامية ويدعون لوجود دولة إسلامية، ومع ذلك لا يطبقون الإسلام في حياتهم الشخصية، قائلين: الأهم أن نقيم دولة الإسلام، ونرفع راية القرآن.

ولقد كلمت أحد مقدميهم وأنه يجب عليه أن يأمر زوجته بحجاب المرأة المسلمة، فقال: لا قوامة للرجال على النساء إلا بوجود خليفة مسلم[(٢)]

---

(١) مضى تخريجه (ص ٣٣).

(٢) وانظر لزاماً كتابي «الجماعات الإسلامية في ضوء الكتاب والسنة بفهم سلف الأمة» (ص٢٧٢- ٢٧٣) الطبعة الشرعية الثالثة.

وإن استبعد حصولها؛ فترت عزيمته، وانحلت همته، وصار نظره إلى الأعمال الأخرى ينقص من إتقان عمله الحاضر، وجمع الهمة عليه.

ثم إذا جاءت وظيفة العمل الآخر جاءه وقد قل نشاطه، وربما كان الثاني متوقفاً على الأول في حصوله أوتكميله، فيفوت الأول والثاني، بخلاف من جمع قلبه وقالبه على كل عمل في وقته، فإنه إذا جاء العمل الثاني يأتيه مستعداً له بقوةٍ ونشاطٍ جديدين حصلهما من نشاطه وقوته في العمل الأول، فيتلقاه بشوق وعزيمة، وهكذا هو أبداً متجدد القوى؛ لأنه يستنير بالهدى، ويخالف النفس والهوى؛ فينجح، ويفلح، ويفوز.

ولقد كشف الله هذا المنهج في قوله: ﴿**ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو أخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل ولوأنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً وأشد تثبيتاً**﴾ [النساء: ٦٦].

فالله أرشد الخلق أن يكونوا أبناء وقتهم، وأن يقوموا بالعمل الحاضر ووظيفته، ثم إذا جاء العمل الآخر صار وظيفة ذلك الوقت، فاجتمعت الهمة والعزيمة الصادقة عليه، وصار القيام بالعمل الأول معيناً على الثاني، فكان العبد أقوى نباتاً، وأشد ثباتاً، وأما من جعل حياته كفاتاً؛ فمثله من جعل له الليل معاشاً والنهار سباتاً: ﴿**إِنَّ الله بَالِغُ أَمرِهِ قَد جَعَلَ الله لِكُل شِيءٍ قَدرَاً**﴾ [الطلاق:٣].

الفائدة المائة: استحباب البكاء من خشية الله، وبخاصة إذا فرط العبد في جنب الله.

قال كعب: «فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتها يبكيان»

وقالت امرأة هلال: «والله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى

يومه هذا».

وقـد مدح الله أهل الخشية البكائين الخاشعين في قوله تعالى: **﴿أولئك الذيـن أنعـم الله عليهـم مـن النبيين من ذرية آدم وممن حملنا مع نوح ومن ذريـة إبراهيـم وإسـرائيل وممـن هدينا واجتبينا إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكياً﴾** [مريم: ٥٨].

وقـال: **﴿وقرآنـاً فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلاً قل آمنـوا بـه أولا تؤمنـوا إن الذيـن أوتـوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقـان سـجداً ويقولـون سـبحان ربنـا إن كـان وعـد ربنا لمفعولا ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً﴾** [الإسراء: ١٠٦- ١٠٩].

وأمـا الأحـاديث في فضل البكاء من خشية الله فكثيرة جداً، ولعل من أصحهـا وأوضحهـا حديـث أبـي هريـرة رضي الله عنه عن النبيﷺ قال: **«سـبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: الإمام العادل، وشاب نشأ في عبـادة ربه، ورجل قلبه معلق في المساجد، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقـا عليـه، ورجل طلبته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجـل تصـدق وأخفـى حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه»**(١).

وينبغـي أن يكـون هـذا البكاء على منهاج الأنبياء؛ كما قال أبي بن كعـب رضـي الله عنـه «عليكـم بالسـبيل والسـنة، فإنه ليس من عبد على سـبيل وسـنة ذكـر الرحمـن ففـاضت عينـاه مـن خشية الله فمسته النار أبداً، وليـس مـن عبـد علـى سبيل وسنة ذكر الله فاقشعر جلده من خشية الله إلا كـان مثله كمثل شجرة يبس ورقها فهي كذلك أصابتها ريح فتحاتّ ورقها

(١) البخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١).

عنها إلا تحاتت خطاياه كما يتحات من هذه الشجرة ورقها، وإن اقتصاداً في سنة وسبيل خير من اجتهاد في غير سنة وسبيل، فانظروا أعمالكم، فإن كانت اقتصاداً واجتهاداً أن تكون على منهج الأنبياء وسنتهم»(١).

وقد بيّن الإمام ابن قيم الجوزية رحمه الله منهج النبي ﷺ في البكاء؛ فقال: «أما بكاؤه ﷺ فكان من جنس ضحكه لم يكن بشهيق ورفع صوت كما لم يكن ضحكه بقهقهة، ولكن كانت تدمع عيناه حتى تهملا، ويسمع لصدره أزيز، وكان بكاؤه تارة رحمة للميت، وتارة خوفاً على أمته وشفقة عليها، وتارة من خشية الله، وتارة عند سماع القرآن.

وهو بكاء اشتياق ومحبة وإجلال، مصاحب للخوف والخشية.

ولما مات ابنه إبراهيم دمعت عيناه وبكى رحمة له، وقال: **«تدمع العين، ويحزن القلب، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون»**(٢).

وبكى لما شاهد إحدى بناته ونفسها تفيض.

وبكى لما قرأ عليه ابن مسعود سورة النساء وانتهى فيها إلى قوله تعالى: **﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾** [النساء: ٤١](٣).

وبكى لما مات عثمان بن مظعون.

وبكى لما كسفت الشمس وصلى صلاة الكسوف، وجعل يبكي في

---

(١) أخرجه نعيم بن حماد في «زوائد الزهد» (٨٧)، وأحمد في «الزهد» (ص ٢٤٥)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (١/ ٣٥٢- ٣٥٣).

(٢) أخرجه البخاري (١٣٠٣)، ومسلم (٢٣١٥).

(٣) أخرجه البخاري (٤٥٨٢)، ومسلم (٨٠٠).

صلاته وجعل ينفخ ويقول: «**رب ألم تعدني ألا تعذبهم وأنا فيهم وهم يستغفرون، ونحن نستغفرك**»[(١)].

وبكى لما جلس على قبر إحدى بناته[(٢)].

وكان يبكي أحياناً في صلاة الليل.

والبكاء أنواع:

أحدها: بكاء الرحمة والرقة.

والثاني: بكاء الخوف والخشية.

والثالث: بكاء المحبة والشوق.

والرابع: بكاء الفرح والسرور.

والخامس: بكاء الجزع من ورود المؤلم وعدم احتماله.

والسادس: بكاء الحزن.

والفرق بينه وبين بكاء الخوف: أن بكاء الحزن يكون على ما مضى من حصول مكروه، أوفوات محبوب، وبكاء الخوف يكون لما يتوقع في المستقبل من ذلك.

والفرق بين بكاء السرور والفرح وبكاء الحزن: أن دمعة السرور باردة، والقلب فرحان، ودمعة الحزن حارة، والقلب حزين، ولهذا يقال لما يفرح به:

---

(١) صحيح- رواه أبو داود (١١٩٤)، والنسائي (٣/ ١٣٧، ١٣٨)، وأحمد في «المسند» (٢/ ١٥٩ و١٨٨)، والترمذي في «الشمائل» (٣١٧) من حديث عبدالله بن عمرو.

قلت: وسنده صحيح؛ لأن عطاء بن السائب قد رواه عنه شعبة في الرواية الثانية لأحمد، وهو ممن روى عنه قبل الاختلاط.

(٢) أخرجه البخاري (١٣٤٢).

هو قرة عين، وأقر الله به عينه، ولما يحزن هو سخينة العين، وأسخن الله عينه به.

والسابع: بكاء الخوف والضعف.

والثامن: بكاء النفاق، وهو أن تدمع العين والقلب قاس؛ فيظهر صاحبه الخشوع وهو من أقسى الناس قلباً.

والتاسع: بكاء المستعار والمستأجر عليه، كبكاء النائحة بالأجرة، فإنها كما قال عمر بن الخطاب: «تبيع عبرتها، وتبكي شجو غيرها».

والعاشر: بكاء الموافقة، وهو: أن يرى الرجل الناس يبكون لأمر ورد عليهم؛ فيبكي معهم، ولا يدري لأي شيء يبكون، ولكن يراهم يبكون فيبكي.

وما كان من ذلك دمعاً بلا صوت فهو بكى مقصور، وما كان معه صوت فهوبكاء ممدود على بناء الأصوات.

وقال الشاعر:

بكت عيني وحق لها بكاها   وما يغني البكاء ولا العويل[1]

وما كان منه مستدعى متكلفاً؛ فهو التباكي، وهو نوعان: محمود، ومذموم.

فالمحمود أن يستجلب لرقة القلب، ولخشية الله، لا للرياء والسمعة.

والمذموم : أن يجتلب لأجل الخلق.

(١) البيت لحسان بن ثابت، أو لعبدالله بن رواحة، أو لكعب بن مالك؛ كما في «السيرة» (٢/ ١٦٢)، و«الكامل» (ص١٨٩)، و«المقتضب» (٤/ ٢٩٢)، و«شرح شواهد الشافية» (٤/ ٦٦)، و«مجالس ثعلب» (ص١٠٩).

وقـد قـال عمـر بـن الخطـاب للنبي ﷺ وقد رآه يبكي هو وأبوبكر في شـأن أسـارى بـدر: «أخـبرني مـا يبكيـك يـا رسـول الله؟ فإن وجدت بكاء بكيت، وإن لم أجد تباكيت لبكائكما[1]»، ولم ينكر عليه ﷺ.

وقد قال بعض السلف: «ابكوا من خشية الله؛ فإن لم تبكوا؛ فتباكوا»[2]

الفائدة الحادية والمئة: جواز رفع الصوت لحاجة

ويـدل عليـه قـول كعـب : «سـمعت صـوت صارخ أوفى على سلع يقول بأعلى صوته»

وأمـا قولـه تعـالى : ﴿**واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير**﴾، [لقمـان : ١٩] «ففيها دليل على قبح رفع الصوت في المخاطبة والملاحـات بقبـح أصـوات الحمـير، لأنها عالية ...و هذه الآية أدب من الله تعـالى بـترك الصيـاح في وجـوه النـاس تهاونـاً بهم، أو بترك الصياح جملة ؛ وكـانت العرب تفخر بجهارة الصوت الجهير وغير ذلك؛ فمن كان منهم أشد صوتاً كان أعز، ومن كان أخفض صوتاً كان أذل، حتى قال شاعرهم:

جـــهير الكلام جهير العطـاس   جـهيـر الـرواء جـهيـر الـــنعم
ويعدو على الأين عدوى الظليم   ويعلـو الرجال بخـلق عـمـم

فنهـى سـبحانه وتعـالى عـن هـذ الخلـق الجـاهلي بقولـه: ﴿**إن أنكـر الأصـوات لصـوت الحمـير**﴾؛ أي: لـو أن شـيئاً يهـاب لصوته لكان الحمار، فجعلهم في المثل سواء»[3].

---

(١) جزء من حديث مطول أخرجه مسلم في صحيحه (١٧٦٣).

(٢) «زاد المعاد» (١/ ١٨٣- ١٨٦).

(٣) «الجامع لأحكام القرآن» (١٤/ ٧٢).

ولكن دل ما سبق من كلام كعب على أن رفع الصوت لحاجة جائز، وقد شحنت السنة بما يدل على ذلك، فمن ذلك:

أ- رفع الصوت في الخطبة.

عن جابر بن عبد الله قال: «**كان رسول الله ﷺ إذا خطب احمرت عيناه، وعلا صوته، واشتد غضبه حتى كأنه منذر جيش**»(١).

قال النووي رحمه الله: «يستدل به على أنه يستحب للخطيب أن يفخم أمر الخطبة، ويرفع صوته، وجزل كلامه»(٢).

ب- رفع الصوت بالعلم

قال البخاري: «باب من رفع صوته بالعلم» ثم ساق تحته حديث عبد الله بن عمرو قال: تخلف عنا النبي ﷺ في سفرة سافرناها، فأدركنا وقد أرهقتنا الصلاة ونحن نتوضأ؛ فجعلنا نمسح على أرجلنا، فنادى بأعلى صوته : «**ويل للأعقاب من النار**» مرتين أو ثلاثا(٣).

قال الحافظ: «واستدل المصنف على جواز رفع الصوت بالعلم بقوله: «فنادى بأعلى صوته»، وإنما يتم الاستدلال بذلك حيث تدعو الحاجة إليه لبعد أو كثرة جمع أو غير ذلك، ويلحق بذلك ما إذا كان في موعظة؛ كما ثبت في حديث جابر: «كان إذا خطب وذكر الساعة اشتد غضبه وعلا صوته ...» الحديث أخرجه مسلم، ولأحمد من حديث النعمان في معناه وزاد: «حتى لو أن رجلاً بالسوق لسمعه»(٤).

---

(١) أخرجه مسلم (٨٦٧) (٤٣).

(٢) «شرح صحيح مسلم» ( )

(٣) أخرجه البخاري (٦٠).

(٤) «فتح الباري» (١/ ١٤٣).

ت ـ رفع الصوت بالإهلال والحج والتلبية

قال رسول الله ﷺ: «**أفضل الحج العج**[(١)] **والثج**[(٢)]»[(٣)].

وبالجملة فرفع الصوت لحاجة يجوز، وقد يستحب بل قد يجب إذا كانت تلك الحاجة لا تتم إلا به، والله أعلم.

الفائدة الثانية والمئة: أن الإمام إذا استنفر الجيش عموماً لزمهم النفير، ولحق اللوم بكل فرد لو تخلف.

ويدل على هذا أن رسول الله ﷺ استنفر أصحابه لغزوة تبوك فتخلف كعب وأصحابه؛ فلحقهم اللوم، ولو لم يكن النفير واجباً لما لحقهم اللوم؛ كما لم يلحق القوم اللومُ في غزوة بدر؛ لأن النفير يومئذٍ لم يكن واجباً.

قال تعالى: ﴿**يا أيّها الّذين آمَنوا مَا لكُم إذا قِيل لكُم انفِروا في سَبِيل اللهِ اثّاقَلْتُم إلى الأرْضِ أرَضِيتُم بِالحياة الدّنيا مِن الآخِرة فَمَا مَتَاع الحيَاة الدّنيا في الآخِرة إلا قَلِيل إلا تَنفِروا يُعذِّبكُم اللهُ عَذاباً ألِيماً وَيَستَبدِل قَوماً غَيركُم ولا تَضُرّوهُ شَيئاً واللهُ عَلى كُل شَيء قدير**﴾ [التوبة : ٣٨، ٣٩].

الفائدة الثالثة والمئة: جواز التجارة مع الكفار.

يدل على ذلك قول كعب : «فبينا أنا أمشي في سوق المدينة إذا نبطي من نبط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة».

الفائدة الرابعة والمئة: بين الشيخ العجوز والمرأة الصغيرة.

وصفت امرأة هلال بن أمية زوجها بأنه شيخ ضائع، وأنه ما به حركة إلى شيء، وهذا تحته شكوى مريرة تعتلج في صدرها، وأنه لا يعطيها

(١) رفع الصوت بالتلبية.

(٢) إراقة دم الهدي.

(٣) حسن- «الصحيحة» (١٥٠٠).

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

حقها في الجماع.

وهذا ما حصل مع امرأة هلال؛ حيث اتهمها زوجها بالزنى، كما هو واضح جلي في قصة ملاعنته لها حيث رماها بالزنى مرجع رسول الله ﷺ من تبوك[1].

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت: ﴿**والّذِين يَرمُون المحصَنات ثَم لم يَأتُوا بِأربَعَة شُهداء فاجلِدُوهم ثَمانِين جَلدَةً ولا تَقبَلوا لهم شَهادةً أبَداً**﴾ [النور: ٤]، قال سعد بن عبادة وهو سيد الأنصار رضي الله عنه: أهكذا أنزلت يا رسول الله؟ فقال رسول الله: «**يا معشر الأنصار ألا تسمعون ما يقول سيدكم؟**»، فقالوا: يا رسول الله لا تلمه فإنه رجل غيور، والله ما تزوج امرأة قط إلا كانت بكراً، وما طلق امرأة قط فاجترأ رجل منا أن يتزوجها من شدة غيرته، فقال سعد: والله يا رسول الله إني لأعلم إنها لحق، وإنها من الله، ولكني قد تعجبت أني لو وجدت لكاعاً قد تفخذها رجل لم يكن لي أن أهيجه ولا أحركه حتى آتي بأربع شهداء فوالله إني لا آتي بهم حتى يقضي حاجته.

قال: فما لبثوا إلا يسيراً حتى جاء هلال بن أمية وهو أحد الثلاثة الذين تاب الله عليهم؛ فجاء من أرضه عشاء فوجد عند أهله رجلاً، فرأى بعينيه، وسمع بأذنيه، فلم يهيجه حتى أصبح، فغدا على رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله إني جئت على أهلي عشاء، فوجدت عندها رجلاً، فرأيت بعيني، وسمعت بأذني، فكره رسول الله ﷺ ما جاء به، واشتد عليه، واجتمعت عليه الأنصار، وقالوا: قد ابتلينا بما قال سعد بن عبادة الآن يضرب رسول الله ﷺ هلال بن أمية، ويبطل شهادته في الناس؛ فقال

(١) كما في «الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ١٨٤).

هـلال: والله إنـي لأرجـو أن يجعل الله لي منها مخرجاً، وقال هلال: يا رسول الله فـوالله فـإني قـد أرى مـا اشـتد عليـك مما جئـت بـه، والله يعلم إني لصادق .

فـوالله إن رسـول الله ﷺ يريد أن يأمر بضربه إذ أنزل الله على رسوله الوحـي، وكـان إذا أنـزل الوحـي عرفـوا ذلك في تربد وجهه يعني فأمسكوا عنـه حتـى فـرغ مـن الوحي؛ فنزلت: **﴿والذين يَرمُون أزواجَهم وَلم يَكُن لهم شُـهداء إلا انفسُـهُم فَشَـهادَة أحَدهِـم أربَـعَ شَـهادات﴾** [النـور: ٦] الآية؛ فسـرى عـن رسـول الله ﷺ فقال: «**أرسلوا إليها**» فجاءت فتلاها رسول الله ﷺ عليهمـا فذكرهمـا وأخبرهمـا أن عـذاب الآخـرة أشد من عذاب الدنيا فقـال هـلال: والله يـا رسـول الله لقد صدقت عليها، فقالت: كذب، فقال رسـول الله ﷺ: «**لاعنـوا بينهمـا**» فقيـل لهلال: اشهد، فشهد أربع شهادات بـالله إنـه لمن الصادقين؛ فلما كانت الخامسة قيل له: يا هلال اتق الله فإن عـذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، وإن هذه الموجبة التي توجب عليك العـذاب، فقـال: والله لا يعذبنـي الله عليهـا كمـا لم يجلدنـي عليهـا فشهد الخامسـة أن لعنـة الله عليـه إن كـان من الكاذبين، ثم قيل للمرأة: اشهدي أربـع شـهادات بـالله إنه لمن الكاذبين، وقيل لها عند الخامسة: اتق الله فإن عـذاب الدنيـا أهون من عذاب الآخرة، وأن هذه الموجبة التي توجب عليك العـذاب، فتلكأت ساعة، وهمت بالاعتراف، ثم قالت: والله لا أفضح قومي فشـهدت الخامسـة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين؛ ففرق رسول الله ﷺ بينهمـا، وقضـى أن لا يدعـى ولدهـا لأب، ولا ترمـي هـي به، ولا يرمـي ولدهـا ومـن رماهـا أو رمى ولدها فعليه الحد، وقضى أن لا بيت لها

عليه، ولا قوت لها من أجل أنهما يفترقان من غير طلاق ولا متوفى عنها، وقال: «**إن جاءت به أصيهب**[١] **أريسح**[٢] **حمش الساقين**[٣] **فهو لهلال، وإن جاءت به أورق**[٤] **جعداً**[٥] **جمالياً**[٦] **خديج الساقين**[٧] **سابغ الأليتين فهو الذي رميت به**»، فجاءت به أورق جعداً جمالياً خديج الساقين سابغ الأليتين، فقال رسول الله ﷺ: «**لولا الأيمان لكان لي ولها شأن**»[٨].

وبهذا يظهر أن زواج الشيخ الفاني من الشابة الصغيرة يجر مفاسد اجتماعية كثيرة.

قال ابن الجوزي رحمه الله: «شكا لي بعض الأشياخ؛ فقال: قد علت سني، وضعفت قوتي، ونفسي تطلب مني شراء الجواري الصغار، ومعلومٌ أنهن يردن النكاح، وليس فيَّ، ولا تقنع مني النفس بربة البيت؛ إذ قد كبرت.

فقلت له: عندي جوابان:

---

(١) هو الذي يعلو لونه صهبه، وهي كالشقرة.

(٢) تصغير أرسح وهو الذي لا عجز له.

(٣) دقيقتهما.

(٤) أسمر.

(٥) جعد الشعر ليس بسبطة.

(٦) الضخم الأعضاء التام الأوصال تشبيهاً بالجمل عظماً وبدانة.

(٧) عظيمها.

(٨) صحيح- أخرجه أحمد (١/ ٢٣٩) بإسناد صحيح كما قال الشيخ أحمد شاكر في «شرح المسند» (٢١٣١).

وقال ابن كثير في «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٢٧٧): «ولهذا شواهد كثيرة في الصحاح وغيرها من وجهٍ كثيرة».

أحدهما: الجواب العامي، وهو أن أقول: ينبغي أن تشتغل بذكر الموت وما قد توجهت إليه، وتحذر من اشتراء جارية لا تقدر على إيفاء حقها؛ فإنها تبغضك؛ فإن أجهَدْت؛ استعجلت التلف، وإن استبقيت قوتك؛ غضبت هي، على أنها لا تريد شيخاً كيف كان.

وقد أنشدنا علي بن عبد الله ؛ قال: أنشدنا محمد التيمي:

أفق يافؤادي من غرامك واستمع ... مقالة محزون عليك شفيق

عَلِقت فتاة قلبها متعلق ... بغيرك فاستوثقت غير وثيق

وأصبحت موثوقاً وراحت طليقةً ... فكم بين موثوق وبين طليق

فاعلم أنها تَعُدُّ عليك الأيام، وتطلب منك فضلَ المال؛ لتستعد لغيرك، وربما قصدت حتفك؛ فاحذر والسلامة في الترك، والاقتناع بما يدفع الزمان.

والجواب الثاني: فإني أقول: لا يخلو أن تكون قادراً على الوطء في وقت أو لا تكون.

فإن كنت تقدر؛ فالأولى مصابرة الترك للكل، وإن كان يمكن الحازم أن يداري المرأة بالنفقة وطيب الخلق؛ إلا أنه يخاطر.

وإن كنت تقدر في أوقات على ذلك، ورأيت من نفسك توقاً شديداً؛ فعليك بالمراهقات؛ فإنهن ما عرفن النكاح، وما طلبن الوطء، واغمرهن بالإنفاق وحسن الخلق، مع الاحتياط عليهن والمنع من مخالطة النسوة، وإذا اتفق وطء؛ فتصبر عن الإنزال ريثما تقضي المرأة حاجتها واعتمد وعظها وتذكيرها بالآخرة، واذكر لها حكايات العشاق من غير نكاح، وَقَبِّح صورة

الفعل، والفت قلبها إلى ذكر الصالحين، ولا تخل نفسك من الطيب والتزيين والكياسة والمداراة والإنفاق الواسع فهذا ربما حرك الناقة للمسير مع خطر السلامة»[(١)] .

الفائدة الخامسة والمئة: استحباب الكنايات في ألفاظ الجماع وأمور النساء .

وهذا واضح في الحوار الذي جرى بين رسول الله ﷺ وامرأة هلال؛ فقالت: «يا رسول الله إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم فهل تكره أن أخدمه؛ قال: «**لا، ولكن لا يقربنك**» فقالت: إنه والله ما به حركة إلى شيء».

وعلى هذا كان منهج السلف؛ كما قال النووي رحمه الله: «والمستحب في مثل هذا الكناية عن قبيح الأسماء واستعمال المجاز والألفاظ التي تحصل الغرض ولا يكون في صورتها ما يستحيا من التصريح بحقيقة لفظه، وبهذا الأدب جاء القرآن العزيز والسنن؛ كقوله تعالى: **﴿أُحِلَّ لَكُم لَيلَةَ الصِّيامِ الرّفثُ إلى نِسَائِكُم﴾** و**﴿كَيفَ تأخُذونه وَقَد أفضَى بَعضُكُم إلى بَعض﴾** و**﴿إنْ طَلّقْتُمُوهُنّ مِن قَبلِ أنْ تمسُّوهُن﴾** وقد يستعملون صريح الاسم لمصلحة راجحة وهي إزالة اللبس أو الاشتراك أو نفي المجاز أو نحو؛ ذلك كقوله تعالى: **﴿الزّانِيَةُ وَالزّانِي﴾** وكقوله ﷺ: «**أنكتها**»، وكقوله: «**أدبر الشيطان وله ضراط**» ونظائر ذلك كثيرة»[(٢)] .

الفائدة السادسة والمئة: حال المؤمن بين الخوف والرجاء .

لقد كان هذا حال المخلفين فقد كانوا بين الخوف والرجاء، فبكاؤهم وخشيتهم من سوء الخاتمة يدل على خوفهم من الله، وتعلقهم بالله وحسن

---

(١) «صيد الخاطر» (ص ٥٤٨- ٥٤٩).

(٢) «شرح صحيح مسلم» (١/ ٢٣٧- ٢٣٨).

ظنهم به يدل على الرجاء .

واعلم: أن مقام الخوف من الله لا ينفك عن الرجاء إلا كان قنوطاً، والرجاء لا ينفصل عن الخوف إلا كان أماني وغروراً.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «ومما يدل على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿إنّما يخشى اللهَ مِن عبادِهِ العُلمَاء﴾ [فاطر: ٢٨]. والمعنى: أنه لا يخشاه إلا عالم، فقد أخبر الله أن كل من خشي الله فهو عالم؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿أمّن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾، [الزمر: ٩] .

والخشية أبداً متضمنة للرجاء، ولولا ذلك لكانت قنوطاً، كما أن الرجاء يستلزم الخوف، ولولا ذلك لكان أمناً، فأهل الخوف لله والرجاء له هم أهل العلم الذين مدحهم الله»[(١)] .

وقال العلامة ابن قيم الجوزية: «فكل محب راج خائف بالضرورة، فهو أرجى ما يكون لحبيبه أحب ما يكون إليه، وكذلك خوفه؛ فإنه يخاف سقوطه من عينه، وطرد محبوبه له وإبعاده، واحتجابه عنه، فخوفه أشد خوف، ورجاؤه ذاتي للمحبة، فإنه يرجوه قبل لقائه والوصول إليه، فإذا لقيه ووصل إليه اشتد الرجاء له لما يحصل له به من حياة روحه، ونعيم قلبه من ألطاف محبوبه، وبره وإقباله عليه، ونظره إليه بعين الرضى، وتأهيله في محبته، وغير ذلك مما لا حياة للمحب ولا نعيم ولا فوز إلا بوصوله إليه من محبوبه، فرجاؤه أعظم رجاء وأجله وأتمه .

فتأمل هذا الموضع حق التأمل يطلعك على أسرار عظيمة من أسرار العبودية والمحبة، فكل محبة فهي مصحوبة بالخوف والرجاء، وعلى قدر

(٢) «شرح صحيح مسلم» (١/ ٢٣٧- ٢٣٨).

(١) «الإيمان»، (ص ١٧-١٨).

تمكنها من قلب المحب يشتد خوفه ورجاؤه، لكن خوف المحب لا يصحبه وحشة بخلاف خوف المسيء، ورجاء المحب لا يصحبه علة بخلاف الأجير وأين رجاء المحب من رجاء الأجير؟ وبينهما كما بين حاليهما»[(١)].

الفائدة السابعة والمئة: الخوف من سوء الخاتمة، والحرص على حسنها.

وهذا ظاهر من كلام كعب: «وما من شيء أهم إلي من أن أموت فلا يصلي علي النبي ﷺ أو يموت الرسول ﷺ، فأكون من الناس بتلك المنزلة فلا يكلمني أحد منهم ولا يصلي علي»(٢).

وقد بين رسول الله ﷺ أهمية الخاتمة بقوله:«إنما الأعمال بالخواتيم»[(٣)]

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي: «وفي الجملة، فالخواتيم ميراث السوابق، فكل ذلك سبق في الكتاب السابق.

ومن هنا كان يشتد خوف السلف من سوء الخواتيم، ومنهم من كان يقلق من ذكر السوابق.

وقد قيل: إن قلوب الأبرار معلقة بالخواتيم؛ يقولون: بماذا يختم لنا؟ وقلوب المقربين معلقة بالسوابق؛ يقولون: ماذا سبق لنا؟

ومن هنا كان الصحابة ومن بعدهم من السلف الصالح يخافون على أنفسهم النفاق، ويشتد قلقهم وجزعهم منه؛ فالمؤمن يخاف على نفسه النفاق الأصغر، ويخاف أن يغلب عليه عند الخاتمة فيخرج إلى النفاق

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٤٢- ٤٣).

(٢) أخرجه البخاري (٤٦٧٧).

(٣) أخرجه البخاري (٢٦٥٤).

الأكبر، فدسائس السوء الخفية توجب خاتمة السوء، وقد كان النبي ﷺ يكثر من الدعاء على الثبات .

خرج مسلم من حديث عبد الله بن عمرو: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن عز وجل كقلب واحد يصرفه حيث شاء**»، ثم قال رسول الله ﷺ: «**اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك**»(١) .

وفي هذا المعنى أحاديث كثيرة»(٢) .

قال ابن بطال: «في تغييب خاتمة العمل عن العبد حكمة بالغة وتدبير لطيف؛ لأنه لو علم وكان ناجياً أعجب وكسل، وإن كان هالكاً ازداد عتواً فحجب عنه ذلك؛ ليكون بين الخوف والرجاء»(٣) .

قال شيخنا الألباني حفظه الله: «ثم إن الشرع قد جعل علامات بينات يستدل بها على حسن الخاتمة -كتبها الله تعالى لنا بفضله ومنته- فأيما أمرئ مات بإحداها كانت له بشارة، ويا لها من بشارة:

الأولى: نطقه بالشهادة عند الموت .

الثانية: الموت برشح الجبين.

الثالثة: الموت ليلة الجمعة أو نهارها.

الرابعة: الاستشهاد في ساحة القتال.

الخامسة: الموت غازياً في سبيل الله.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٥٤).

(٢) «إيقاظ الهمم المنتقى من جامع العلوم والحكم» (ص ٩٤- ٩٥).

(٣) «فتح الباري» (١١/ ٣٣٠).

السادسة: الموت بالطاعون.

السابعة: الموت بداء البطن.

الثامنة والتاسعة: الموت بالغرق والهدم.

العاشرة: موت المرأة في نفاسها بسبب ولدها .

الحادية عشر والثانية عشر: الموت بالحرق وذات الجنب.

الثالثة عشر: الموت بداء السل.

الرابعة عشر: الموت في سبيل الدفاع عن المال المراد غصبه.

الخامسة عشر والسادسة عشر: الموت في سبيل الدفاع عن الدين والنفس.

الثامنة عشر: الموت على عمل صالح»[(١)].

قلت: نسأل الله حسن الخاتمة، والثبات عند الممات على الإسلام والسنة، ولو كانت لي دعوة مستجابة لجعلتها لذلك.

الفائدة الثامنة والمئة: الإحصاء أصل في ضبط أحوال العباد والبلاد.

أخبر كعب رضي الله عنه أن المسلمين مع رسول الله ﷺ كثير، ولا يجمعهم كتاب حافظ، وفيه تنبيه على أن الديوان يضبط أحوال الناس، ولذلك لما رأى عمر رضي الله عنه أهميته اتخذه.

ولكن مبدأ الإحصاء شرعي؛ فقد ثبت عن رسول الله ﷺ.

عن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«احصوا لي كم يلفظ الإسلام»**[(١)].

---

(١) «أحكام الجنائز» (ص ٣٤- ٤٢) مختصراً.

ترجم له البخاري: باب كتابة الإمام الناس.

قال الحافظ رحمه الله: «وفي الحديث مشروعية كتابة دواوين الجيوش، وقد يتعين ذلك عند الاحتياج إلى تميز من يصلح للمقاتلة بمن لا يصلح... وقال ابن المنير: موضع الترجمة من الفقه أن لا يتخيل أن كتابة الجيش وإحصاء عدده يكون ذريعة لارتفاع البركة، بل الكتابة المأمور بها لمصلحة دينية، والمؤاخذة التي وقعت في حنين كانت من جهة الإعجاب».

قلت: وقد ظهرت أهمية الإحصاء في ضبط أحوال البلاد والعباد في عصرنا حتى أضحى علماً مستقلاً، وله أجهزة متخصصة.

الفائدة التاسعة والمئة: الحسد ظاهر بين الأقارب.

وهذا ظاهر في طعن الرجل من بني سلمة -وهم قوم كعب بن مالك- في كعب في تبوك، وقد أثبت القرآن الكريم هذه الحقيقة في قصتين:

الأولى: نبأ ابني آدم عندما تقبل من أحدهما، ولم يتقبل من الآخر؛ فحسد أخاه، وبغى عليه؛ فقتله: ﴿**واتْلُ عَلَيهِمْ نَبأَ ابنَي آدَمَ بِالحَقِّ إذْ قَرَّبا قُرباناً فَتُقُبِّلَ مِن أحَدِهِما ولَم يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَر. قَالَ لأقْتُلَنَّك...**﴾ الآيات: [المائدة: ٢٧- ٣١].

قال ابن كثير رحمه الله: «يقول تعالى مبيناً وخيم عاقبة البغي والحسد والظلم في خبر ابني آدم لصلبه في قول الجمهور(٢)، وهما قابيل وهابيل(٣)، كيف عدا أحدهما على الآخر فقتله بغياً عليه وحسداً له فيما وهبه الله من النعمة وتقبل القربان الذي أخلص فيه لله عز وجل؛ ففاز المقتول

(١) أخرجه البخاري (٣٠٦٠)، ومسلم (١٤٩) واللفظ له.

(٢) وهو الصواب.

(٣) لم يثبت ذلك في السنة الصحيحة، إنّما هو في الإسرائيليّات.

بوضع الآصار والدخول إلى الجنة، وخاب القاتل ورجع بالصفقة الخاسرة في الداريين»[(١)].

الثانية: خبر يوسف مع إخوته عندما سمعوا الرؤيا فكادوه وحسدوه وهذا ما حذر منه يعقوب عليه السلام ابنه الصديق: ﴿**قَالَ يَابُنَيَّ لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْداً إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ**﴾ [يوسف: ٥].

قال القرطبي رحمه الله: «وفيها ما يدل على جواز ترك النعمة عند من تخشى غائلته حسداً وكيداً... وفيها دليل واضح على معرفة يعقوب عليه السلام بتأويل الرؤيا؛ فإنه علم من تأويلها أنه سيظهر عليهم، ولم يبال بذلك في نفسه، فإن الرجل يود أن يكون ولده خيراً منه، والأخ لا يود ذلك لأخيه، ويدل على أن يعقوب عليه السلام كان أحس من بنيه حسد يوسف وبغضه؛ فنهاه عن قص الرؤيا عليهم خوف أن تغل بذلك صدورهم، فيعملوا الحيلة في هلاكه»[(٢)].

الفائدة العاشرة والمئة: مراسيل الصحابة حجة.

في الصحيحين وغيرهما من دواوين السنة ما لا يحصى من مراسيل الصحابة وهو: أن يروي الصحابي عن رسول الله ﷺ ما لم يشهده، لغيابه، أو لصغر سنه، أو تأخر إسلامه.

ومن أمثلة ذلك في حديث المخلفين: «ولم يذكرني رسول ﷺ حتى بلغ تبوك؛ فقال وهو جالس في القوم بتبوك: «**ما فعل كعب بن مالك؟**»

قال رجل من بني سلمة: يا رسول الله حبسه برداه والنظر في عطفيه.

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٢/ ٤٣).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ١٢٧).

فقال له معاذ بن جبل: بئس ما قلت، والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيراً؛ فسكت رسول الله ﷺ».

فهذه الأحداث لم يشهدها كعب بن مالك جزماً لغيابه عن غزوة تبوك؛ لأنه أحد المخلفين، وإنما رواها عمن شهدها من صحابة رسول الله ﷺ.

وقد اتفق الأئمة على أن مراسيل الصحابة حجة؛ لأنهم كلّهم عدول.

قال ابن الصلاح رحمه الله: «ثم إنا لم نعد في أنواع المرسل ونحوه ما يسمى في أصول الفقه مرسل الصّحابي، مثل ما يرويه ابن عباس وغيره من أحداث الصّحابة عن رسول الله ﷺ ولم يسمعوه منه؛ لأن ذلك في حكم الموصول المسند؛ لأن روايتهم عن الصحابة، والجهالة بالصحابي غير قادحة؛ لأن الصحابة كلهم عدول، والله أعلم»[(١)].

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «وقد حكى بعضهم الإجماع على قبول مراسيل الصحابة»[(٢)].

قال ابن الملقن: «ثم هذا كله في مرسل غير الصحابي، أما مرسله، وهي تسمية أصولية؛ مثل ما يرويه ابن عباس وغيره من أحداث الصحابة عن رسول الله ﷺ، ولم يسمعوه منه؛ فمحكوم بصحته؛ لأن روايتهم عن الصحابة، والجهالة بهم لا تضر، لأنهم عدول»[(٣)].

قال الحافظ ابن حجر: «فهو مرسل صحابي، وقد اتفق المحدثون على أنه في حكم الموصول»[(٤)].

وقال: «وكم في الصحيح من مرسل صحابي، وقد اتفق الأئمة قاطبة

---

(١) «مقدمة في علوم الحديث»، (ص٢٦).

(٢) «الباعث الحثيث» (ص١٥٩).

(٣) «المقنع في علوم الحديث» (١/ ١٣٨).

(٤) «هدي الساري» (ص٣٥٠).

على قبول ذلك إلا من شذ ممن تأخر عصره عنهم فلا يعتد بمخالفته، والله أعلم»(١).

وقال السيوطي رحمه الله: «هذا كله في غير مرسل الصحابي، أما مرسله؛ كإخباره عن شيء فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم أو نحوه مما يعلم أنه لم يحضره لصغر سنه، أو تأخر إسلامه؛ فمحكوم بصحته على المذهب الصحيح الذي قطع به الجمهور من أصحابنا وغيرهم، وأطبق عليه المحدثون المشترطون للصحيح القائلون بضعف المرسل، وفي الصحيحين من ذلك ما لا يحصى، لأن أكثر روايتهم عن الصحابة وكلهم عدول، ورواياتهم عن غيرهم نادرة، وإذا رووها بينوها، بل أكثر ما رواه الصحابة عن التابعين ليس أحاديث مرفوعة بل اسرائيليات أو حكايات أو موقوفات»(٢).

وقال السخاوي رحمه الله: «أما الخبر الذي أرسله الصحابي الصغير عن النبي ﷺ؛ كابن عباس وابن الزبير ونحوهما ممن لم يحفظ عن النبي ﷺ إلا اليسير، وكذا الصحابي الكبير فيما ثبت أنه لم يسمعه إلا بواسطة؛ فحكمه الوصل المقتضي للاحتجاج به، لأن غالب رواية الصغار منهم عن الصحابة، وروايتهم عن غيرهم كما قال النووي في «شرح المهذب» زيادة، فإذا رووها بينوها، وحيث أطلقوا فالظاهر أنهم عن الصحابة.

ولا شك أنهم عدول لا يقدح فيهم الجهالة بأعيانهم، وأيضاً فما يروره عن التابعين غالبه بل عامته إنما هو من الإسرائيليات وما أشبهها من الحكايات وكذا الموقوفات، والحكم المذكور على الصواب المشهور بل

---

(١) المصدر السابق (ص٣٧٨).

(٢) «تدريب الراوي» (١/ ٢٠٧).

أهل الحديث وإن سموه مرسلاً لا خلاف بينهم في الاحتجاج به»[(١)].

واحتج من لم يقبل مرسل الصحابي باحتمال تلقيهم ذلك عن بعض التابعين، وقد رده الحافظ ابن حجر فقال: «وتقرير ذلك: أنه إذا لم يعلم أنه سمعه من النبي ﷺ احتمل أن يكون سمعه منه أو من صحابي آخر أو من تابعي ثقة أو من تابعي ضعيف، فكيف يجعل حجة والاحتمال قائم؟

والانفصال عن ذلك أن يقال: قول الصحابي: قال رسول الله ﷺ ظاهر في أنه سمعه منه أو من صحابي آخر، فالاحتمال أن يكون سمعه من تابعي ضعيف نادر جداً لا يؤثر في الظاهر، بل حيث رووا عن من هذا سبيله بينوه وأوضحوه.

وقد تتبعت روايات الصحابة رضي الله عنهم عن التابعين وليس فيها من رواية صحابي عن تابعي ضعيف في الأحكام شيء يثبت؛ فهذا يدل على ندور أخذهم عن من يضعف من التابعين، والله أعلم»[(٢)].

الفائدة الحادية عشر والمئة: الشعر دون إيمان منبع الغواية.

ووجه الدلالة قولهم لكعب بن مالك: «إنك لشاعر جريء» فقال: «أما في الباطل فلا».

وهذا يدل أن الشعراء جريئون في الباطل إلا من عصمه الله بإيمانه، ولذلك قال تعالى: ﴿**وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ. أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ. وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ. إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ**

---

(١) «فتح المغيث» (١/ ١٥٣).

(٢) «النكت على كتاب ابن الصلاح» (٢/ ٥٧٠).

وَذَكَرُواْ اللَّهَ كَثِيراً وَانتَصَرُواْ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُواْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٤- ٢٢٧].

قال ابن كثير رحمه الله: «قال ابن عباس: أكثر قولهم يكذبون فيه، وهذا الذي قاله ابن عباس رضي الله عنه هو الواقع في نفس الأمر، فإن الشعراء يتبجحون بأقوال وأفعال لم تصدر منهم ولا عنهم؛ فيكثرون بما ليس لهم»[١].

وقال القرطبي رحمه الله: «ودل بهذا أن الشعراء أيضاً غاوون؛ لأنهم لو لم يكونوا غاوين ما كان أتباعهم كذلك»[٢].

وقال البقاعي رحمه الله: «﴿الغاوون﴾؛ أي: الضالون المائلون عن السنن الأقوم إلى الزنى والفحش، وكل فساد يجر إلى هلاك، وهم كما ترى بعيدون عن أتباع محمد ﷺ ورضي عنهم الساجدين الباكين الزاهدين.

ومما قرر حال أتباعهم؛ فعلم منه أنهم هم أغوى منهم؛ لتهتكهم في شهوة اللقلقة باللسان حتى حَسَّن لهم الزور والبهتان»[٣].

الفائدة الثانية عشر والمئة: حديث النفس والإشارة لا يسمى كلاماً.

ويدل على ذلك قول كعب: «وأقول في نفسي: أنا قادر على ذلك»؛ ففرق كعب رضي الله عنه بين حديث النفس وغيره من الكلام، ومراده: إنّه لم ينطق به بل حدثته نفسه بذلك.

وهذا ما يدل عليه معنى الكلام في اللغة.

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٣٦٦).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (١٣/ ١٤٥).

(٣) «نظم الدرر» (٥/ ٤٠٠).

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

قال ابن مالك في «ألفيته».

كلامنا لفظ مفيد: كاستقم واسم وفعل ثم حرف الكلم

ومعناه: الكلام لفظ يدل على معنى يحسن السكوت عليه، ولا يكون لفظاً إلا إذا كان منطوقاً بصوت وحرف.

ويدل على هذا المعنى جملة من الأحاديث الصحيحة ذكرها ابن أبي العز الحنفي فقال: «ويرد قول من قال: بأن الكلام هو المعنى القائم في النفس قوله ﷺ: «**إنّ صلاتنا هذه لا يصلح فيها شيء من كلام الناس**»، وقال: «**إن الله يحدث من أمره ما يشاء، وإنما أحدث أن لا تكلموا في الصلاة**». واتفق العلماء على أن المصلي إذا تكلم في الصلاة عامداً لغير مصلحتها بطلت صلاته، واتفقوا كلهم على أن ما يقوم بالقلب من تصديق بأمور دنيوية وطلب لا يبطل الصلاة، وإنما يبطلها التكلم بذلك فعلم اتفاق المسلمين على أن هذا ليس بكلام.

وأيضاً؛ ففي «الصحيحين» عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها، ما لم تتكلم به أو تعمل به**»؛ فقد أخبر أن الله عفا عن حديث النفس إلا أن تتكلم به، والمراد: حتى ينطق به اللسان باتفاق العلماء؛ فعلم أن هذا هو الكلام في اللغة؛ لأن الشارع إنما خاطبنا بلغة العرب، وأيضاً؛ ففي السنن: أن معاذاً رضي الله عنه قال: يا رسول الله وإنا لمؤخوذون مما نتكلم به؟ فقال: «**وهل يكب الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم**» فبين أن الكلام إنما هو باللسان فلفظ القول والكلام وما تصرف منهما من فعل ماض ومضارع وأمر واسم فاعل إنما يعرف في القرآن والسنة وسائر كلام العرب إذا كان لفظاً ومعنى ولم يكن مسمى الكلام نزاع بين الصحابة والتابعين لهم بإحسان، إنما حصل

النزاع بين المتأخرين من علماء أهل البدع ثم انتشر»[١].

وأما الإشارة ولو كانت مفهمة فلا تعد كلاماً.

ويدل على ذلك في حديث كعب قوله: «فطفق الناس يشيرون إلي حتى جاءني فدفع إلي كتاباً من ملك غسان»، فلو كانت الإشارة المفهمة كلاماً لما أشار المسلمون إلى كعب عندما سأل عنه النبطي؛ لأنهم نهوا عن تكليمه.

وقد ورد في القرآن ما يدل على ذلك؛ ففي نهي الله مريم عليها السلام عن كلام الناس ثم أشارتها ما يدل على ذلك: **﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ البَشَرِ أَحَداً فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيّاً﴾** [مريم: ٢٦]، ثم قال: **﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُواْ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيّاً﴾** [مريم:٢٩]، وفي قول الله تعال لزكريا: **﴿قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيَالٍ سَوِيّاً﴾** [مريم: ١٠]، ثم قال: **﴿قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزاً﴾** [آل عمران: ٤١] فجعل الله تبارك وتعالى الإشارة والرمز ليس كلاماً، والله أعلم.

الفائدة الثالثة عشر والمئة: صحة المنهج السلفي وحجيته[٢].

ختم الله تبارك وتعالى الآيات من سورة التوبة التي فيها خبر المخلفين بقوله: **﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين﴾** [التوبة: ١١٩].

وختم كعب بن مالك خبر تخلفهم بالصدق؛ فقال: «والله ما أنعم

---

(١) «شرح العقيدة الطحاوية» (ص١٨٥).

(٢) انظر لزاماً كتابَيّ: «بصائر ذوي الشّرف بشرح مرويّات منهج السّلف» و«لماذا اخترت المنهج السّلفيّ؟» ففيهما بغية المريد، وغاية المستزيد، وبلغة المستفيد.

الله علي من نعمة قط بعد أن هداني الله للإسلام أعظم في نفسي من صدقي رسول الله ﷺ أن لا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوا».

قال القرطبي: «هذا الأمر بالكون مع أهل الصدق حسن بعد قصة الثلاثة حين نفعهم الصدق، وذهب بهم عن منازل المنافقين»[(١)].

والصادقون الذين ينبغي على المرء أن يكون منهم ومعهم هم محمد ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم.

قال نافع: «محمد وأصحابه»[(٢)].

قال الضحاك: «مع أبي بكر وعمر وأصحابهما رحمة الله عليهم»[(٣)].

وهذا الذي اختاره شيخ المفسرين ابن جرير الطبري فقال: «والصحيح من التأويل في ذلك هو التأويل الذي ذكرناه عن نافع والضحاك»[(٤)].

ولذلك احتج الإمام العلامة ابن قيم الجوزية بهذه الآية على صحة المنهج السلفي وحجية فهم الصحابة رضي الله عنهم؛ فقال: «قال غير واحد من السلف: هم أصحاب محمد ﷺ، ولا ريب أنهم أئمة الصادقين، وكل صادق بعدهم فبهم يأتم في صدقه، بل حقيقة صدقه اتباعه لهم وكونه معهم، ومعلوم أن من خالفهم في شيء وإن وافقهم في غيره لم يكن معهم فيما خالفهم فيه، وحينئذٍ فيصدق عليه أنه ليس معهم ؛ فتنتفي عنه المعية المطلقة، وإن ثبت له قسط من المعية فيما وافقهم فيه، فلا

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (٨/ ٢٨٨).

(٢) «جامع البيان في تفسير القرآن» (١١/ ٤٦).

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق نفسه.

يصدق عليه أنه معهم بهذا القسط، وهذا كما نفى رسول الله الإيمان المطلق عن الزاني والشارب والسارق والمنتهب بحيث لا يستحق اسم المؤمن، وإن لم ينتف عنه مطلق الاسم الذي يستحق لأجله أن يقال: معه شيء من الإيمان، وهذا كما أن اسم الفقيه والعالم عند الإطلاق لا يقال لمن معه مسألة أو مسألتان من فقه وعلم، وإن قيل: معه شيء من العلم؛ ففرق بين المعية المطلقة ومطلق المعية، ومعلوم أن المأمور به الأول لا الثاني؛ فإن الله تعالى لم يرد منا أن نكون معه في شيء من الأشياء وأن نُحصِّل من المعية ما يطلق عليه الاسم، وهذا غلط عظيم في فهم مراد الرب تعالى من أوامره؛ فإذا أمر بالتقوى والبر والصدقة والعفة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد ونحو ذلك لم يرد منا أن نأتي بأقل ما يطلق عليه الاسم وهو مطلق الماهية المأمور بها بحيث نكون ممتثلين لأمره إذا أتينا بذلك، وتمام تقرير هذا الوجه بما تقدم في تقرير الأمر بمتابعتهم سواء»[(١)].

قلت: ووجه الدلالة واضح لمن نَوّر الله بصيرته وصفت طويته وسريرته؛ فكما أن الثلاثة الذين خُلِّفوا لم ينجوا إلا بالصدق، ولذلك أمروا أن يكون مع الصادقين: محمد وأصحابه وليس مع المنافقين المنفصلين عن رسول الله ﷺ وصحبه؛ فكذلك لن ينجو العبد من الهلاك والبوار عند الاختلاف والافتراق إلا إذا كان على منهج النبوة: محمد وأصحابه؛ كما يدل عليه حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال رسول الله ﷺ: **«وليأتين على أمتي ما أتي على بني إسرائيل مثلاً بمثل حذو النعل بالنعل حتى لو أن فيهم من نكح أمة علانية كان في أمتي من يفعل مثله.**

---

(١) «إعلام الموقعين» (١/ ١٣٢).

إن بنـي إسـرائيل افـترقوا على إحدى وسبعين ملة، وتفترق أمتي على ثـلاث وسـبعين ملـة كلهـا في النـار إلا واحـدة»: فقيـل: يـا رسـول الله مـا الواحدة؟ قال: «**ما أنا عليه اليوم وأصحابي**»[1].

قـال مصنفـه: هـذا آخر ما رقمه بقلمه، ونطقه بفمه، الراجي من ربه العفـو والمغفـرة، وحسـن المصـير إليه، ويمن القدوم عليه: الفقير إلى ألطاف مـولاه الغنـيّ القديـر؛ أبـو أسـامة سـليم بـن عيـد بـن محمـد بـن حسـين الهـلالي نسـباً، السّـلفيّ عقيـدةً ومنهجـاً وسـلوكاً وفروعاً، النّجدي موطناً، الفلسطيني الخليلـي مولـداً، الأردنـي إقامـة وداراً.

فلـك أيّهـا القـارئ غنمـه، وعلـى مصنّفـه غرمُـه، وصلّى الله على رسوله الأمين، وآله الطّيبـين الطّـاهرين، وأصحابـه الغُـرِّ الميامين، صلاةً دائمةً بدوام السماوات والأرضين، مقيمـةً عليهـم أبـداً لا تـروم انتقـالاً عنهـم ولا تحويـلاً.

(١) حسـن بشواهده؛ كما بينته في جزء حديثي: «درء الإرتياب عن حديث ما أنا عليه اليوم والأصحاب»، وهو مطبوع.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

فهرس الآيات

السورة	الآية	رقمها	الصفحة
البقرة	وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا	١٤	٢٣١
	ولهن مثل الذي عليهم بالمعروف	٣٤	١٨١
	قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين	١١١	٢١٠
	قل إن هدى اللّه هو الهدى	١٢٠	٢٥٤
	ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم	١٢٠	٢٣١
	فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون	١٣٢	١٥٠
	ومن الناس من يتخذ من دون اللّه أندادا	١٦٥-١٦٧	١٩٥
	ولـكن البر من آمن باللّه واليوم الآخر والملائكة	١٧٧	٩٠
	أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم	١٨٧	٢٧١
	إن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن	٢٣٧	٢٧١
	ألم تر إلى الملإ من بني إسرائيل	٢٤٦-٢٥٢	٢٤٩-٢٥٠
	اللّه ولي الذين آمنوا.	٢٥٧	١٦٥
آل عمران	هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات	٧	١١٤
	آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا	٤١	٢٨٣
	والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم	١٣٥	٢١١-٢١٢
	ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون	١٣٩، ١٤٠	٩٩

	سنلقي في قلوب الكافرين الرعب	١٥١	٢٢٦
	فإذا عزمت فتوكل على اللّه	١٥٩	٢٤٤
	فبما رحمة من اللّه لنت لهم	١٥٩	٦٥
	هم للكفر أقرب منهم للإيمان	١٦٧	١٥١
	ما كان اللّه ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه	١٧٩	١٢٢
النساء	كيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض	٢١	٢٧١
	إن اللّه لا يظلم مثقال ذرة	٤٠	١٤٩
	فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد	٤١	٢٦١
	ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم	٦٦	٢٥٩
	ومن يطع اللّه والرسول فأولـئك مع الذين أنعم اللّه عليهم	٦٩	٨٩
	من يطع الرسول فقد أطاع اللّه	٨٠	١٩٧
	لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر	٩٥	٥٩
	ولا تهنوا في ابتغاء القوم	١٠٤	٩٧،٩٩
	وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات اللّه يكفر بها ويستهزأ بها	١٤٠	١٠٨
	وسوف يؤت اللّه المؤمنين أجرا عظيما	١٤٦	١٦٥
المائدة	وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة اللّه عليكم	١٩-٢٦	٢٥١
	واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق	٢٧- ٣١	٢٧٦
	يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه	٥٤- ٥٦	٢٣٢-٢٣٣
	هـذا يوم ينفع الصادقين صدقهم	١١٩	٩٠
الأنعام	ومنذرين فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم	٤٨	١٦٦

	أولئك الذين هدى اللّه فبهداهم اقتده	٩٠	٢٥٢
	أظلم ممن افترى على اللّه كذبا	٩٣	٧٣
	ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة	١١٠	٥٠
	وأن هـذا صراطي مستقيما فاتبعوه	١٥٣	١١٤
	إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا	١٥٩	١١٤
	وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم	١٦٨	١٠٨
الأعراف	قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك	١٢، ١٣	٦٦
	سأصرف عن ءاياتي الذين يتكبرون في الأرض	١٤٦	٦٦
	ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب	١٦٧	١٥٥
الأنفال	لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم	٤	١٦٦
	وإذ يعدكم اللّه إحدى الطائفتين أنها لكم	٧، ٨	١٨٤
	وما النصر إلا من عند اللّه	١٠	٢٥٤
	إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم	١٢	١٦٥
	وأن اللّه مع المؤمنين	١٩	١٦٦
	يا أيها الذين آمنوا استجيبوا للّه وللرسول	٢٤	٥٠
	وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة	٦٠	٢٤٨
	فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا	٦٩	٢٦
التوبة	كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة	٨	٢٣١
	و يوم حنين إذ أعجبكم كثرتكم	٢٥	٢٢٦
	يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا	٣٨، ٣٩	٢٦٦
	ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة	٤٦	٢٤٨
	فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم	٥٥	٥٦

	نسوا اللّه فنسيهم	٦٧	١٧٠
	الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين	٧٩	٢٠٣
	استغفر لهم أو لا تستغفر لهم	٨٠	٢٤٥
	سيحلفون باللّه لكم إذا انقلبتم إليهم	٩٥، ٩٦	٢١،١٤١
	ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين	١١٣	٢٤٥
	وما كان اللّه ليضل قوما بعد إذ هداهم	١١٥	٥٠
	لقد تاب اللّه على النبي والمهاجرين والأنصار	١١٧، ١١٨	١٣٤،٢٠
	حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت	١١٨	٢١١
	وعلى الثلاثة الذين خلفوا	١١٨	٢٠٣
	يا أيها الذين آمنوا اتقوا اللّه	١١٩	٢٨٣،٨٩،٨٨
	وما كان لأهل المدينة ومن حولهم	١٢٠	٢٠٣
	لقد جاءكم رسول من أنفسكم	١٢٨	١٣٤
	قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم	٢٤	١٩٣
يونس	وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم	٢	٩٢
هود	فاستقم كما أمرت ومن تاب معك	١١٢	١٤٤
يوسف	قال قال يابني لا تقصص رؤياك على إخوتك	٥	٢٧٧
	وجاءوا أباهم عشاء يبكون	١٦	٨٥
	قالوا يا أيها العزيز إن له أبا شيخا كبيرا	٧٨	٢٤٧
	فلما جاء البشير ألقاه على وجهه	٩٦	١٣١
	وما يؤمن أكثرهم باللّه إلا وهم مشركون	١٠٦	١٥١
إبراهيم	وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم	٤	٩٣
النحل	ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا اللّه واجتنبوا الطاغوت	٣٦- ٣٩	٧٠

	تاللّه لقد أرسلنآ إلى أمم من قبلك فزين لهم الشيطان أعمالهم	٦٣-٦٤	٧١
	لسان الذي يلحدون إليه أعجمي	١٠٣	٩٣
الإسراء	وقل رب أدخلني مدخل صدق	٨٠	٩١
	وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث	١٠٦- ١٠٩	٢٦٠
مريم	قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سويا	١٠	٢٨٣
	فكلي واشربي وقري عينا	٢٦	٢٨٣
	فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبيا	٢٩	٢٨٣
	وجعلنا لهم لسان صدق عليا	٥٠	٩٣
	أولئك الذين أنعم اللّه عليهم من النبيين	٥٨	٢٦٠
الأنبياء	وداوود وسليمان إذ يحكمان في الحرث	٧٨ و٧٩	٩٦
الحج	ومن يهن اللّه فما له من مكرم	١٨	١٦٥
	ومن يهن اللّه فما له من مكرم	١٨	١٦٠
	إن اللّه يدافع عن الذين امنوا	٣٨	١٦٥
النور	الزانية والزاني	٣	٢٧١
	والذين يرمون المحصنات	٤	٢٦٧
	والذين يرمون أزواجهم	٦	٢٦٧
	وعد اللّه الذين امنوا منكم	٥٥	١٢٣
	ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج	٦١	١١٧
	إنما المؤمنون الذين آمنوا باللّه ورسوله	٦٢	١٨٦
الفرقان	ويوم يعض الظالم على يديه	٢٧	٩
الشعراء	واجعل لي لسان صدق في الآخرين	٨٤	٩١
	والشعراء يتبعهم الغاوون	٢٢٤- ٢٢٧	٢٨٠

القصص	ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس	٢٣	٢٤٨
	ومن أضل ممن اتبع هواه	٥٠	١١٥
العنكبوت	أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا	٢	١٢١
	ولقد فتنا الذين من قبلهم	٣	١٢٣
الروم	واختلاف ألسنتكم وألوانكم	٢٢	٩٣
	ظهر الفساد في البـر والبحر بما كسبت أيدي الناس	٤١	١٦١
لقمان	واغضض من صوتك	١٩	٢٦٤
السجدة	وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا	٢٤	
الأحزاب	ليجزي اللّه الصادقين بصدقهم	٢٤	٩٠
	اذكروا اللّه ذكرا كثيرا	٤١	٤٥
فاطر	من كان يريد العزة فللّه العزة جميعا،	١٠	١٦٠
	إنما يخشى اللّه من عباده العلماء	٢٨	٢٧٢
ص	ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل اللّه	٢٦	١١٥
الزمر	أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما	٩	٢٧٢
	والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون	٣٩	٩١
غافر	الذين يحملون العرش ومن حوله	٧-٩	١٦٥،١٦٥
فصلت	فاستقيموا له واستغفروه	٦	١٤٤
	ومن أحسن قولا ممن دعا إلى اللّه	٣٣	٤٥
	قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء	٤٤	١٦٦
الزخرف	ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون	٣٩	٩٨
	ولما جاء عيسى بالبينات	٦٣	٧١
الأحقاف	قل أرأيتم ما تدعون من دون اللّه	٤	٢١٠

محمد	يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا اللّه	٧	٢٤٨
	فإذا عزم الأمر فلو صدقوا اللّه لكان خيرا لهم	٢١	٩٠
الفتح	إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا	٨-٩	١٩٦
النجم	إن هو إلا وحي يوحى	٤	٥
القمر	إن المتقين في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر	٥٤، ٥٥	٩٢
المجادلة	يرفع اللّه الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم	١١	١٦٦
الحشر	والذين تبوءوا الدار والإيمان	٩	٣٤
	ولا تكونوا كالذين نسوا اللّه	١٩	١٧٠
الصف	فلما زاغوا أزاغ اللّه قلوبهم	٥	٥٠
المنافقون	وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول اللّه لووا رؤوسهم	٥-٦	٢٤٥-٢٤٦
	وللّه العزة ولرسوله وللمؤمنين	٨	١٦٦
الطلاق	إن اللّه بالغ أمره	٣	٢٥٩
القيامة	لا تحرك به لسانك لتعجل به	١٦	٩٤
الفجر	يا ليتني قدمت لحياتي	٢٤	١٥٨
الضحى	وأما بنعمة ربك فحدث	١١	٢٧
الماعون	فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون	٤- ٧	١٨٥
الإخلاص	قل هو اللّه أحد	١	٢٣٨
الفلق	قل أعوذ برب الفلق	١	٢٣٨
الناس	قل أعوذ برب الناس	١	٢٣٨

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

فهرس الأحاديث

اتقوا اللّه في النساء؛ فإنهن عندكم عوان ١٨٢
أحب للناس ما تحب لنفسك ١٢٨
إحصوا لي كم يلفظ الإسلام ٢٧٥، ٢٧٦
أخبرني ما يبكيك يا رسول اللّه؟ ٢٦٤
إذا أراد اللّه بعبد خيراً عجل له عقوبته ٢٠٥
إذا أطال أحدكم الغيبة فلا يطرق أهله ليلاً ٢١٦
إذا أنعم اللّه عز وجل على عبده نعمة ٢٧
إذا تواجه المسلمان بسيفهما؛ فالقاتل والمقتول في النار ٦٠
إذا حكم الحاكم، ثم أصاب ١١٦
إذا صلى أحدكم فليبدأ بتحميد اللّه والثناء عليه ٢٤٢
أذنب عبدٌ ذنباً، فقال: اللّهم اغفر لي ذنبي ١٤٦
استعينوا على انجاح الحوائج بالكتمان ٣٧
أشد الناس بلاء الأنبياء ١٢٢ و٢٠٩
أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي ٢٣
اعمل ما شئت فقد غفرت لك ١٥٢
أعوذ برضاك من سخطك ٢١١
أفضل الحج العج والثج ٢٦٦
أما علمت أن الإسلام يهدم ما قبله ١٥٠
أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا اللّه ٧٩

أمرنا رسول اللّه أن نخرجهن في الفطر ١٨٥
أمرني رسـول اللّـه صلـى اللّـه عليـه وسـلم أن أقـرأ بالمعوذتين دبر كل صلاة ٢٣٨
أمسك عليك بعض مالك، فهو خير لك ١٣٥
أما بعد: يا عائشة، إنه قد بلغني عنك كذا وكذا ١٤٢
أما هذا، فقد صدق ١٤١
إن اللّه احتجز التوبة عن صاحب كل بدعة ١١٥
إن اللّه أمر يحيى بن زكريا ١٧٤ - ١٧٥
إن اللّه تجاوز لأمتي عما حدثت ٢٨٢
إن اللّه يحدث من أمره مايشاء ٢٨٢
إن أقواماً بالمدينة خلفنا ما سلكنا شعباً ولا وادياً ٥٨
إن أناساً كانوا يأخذون بالوحي في عهد رسول اللّه ٨٥
إن بني إسرائيل افترقوا على إحدى وسبعين ٢٨٦
إن الحلال بين، والحرام بين، وبينهما أمور مشتبهات ١٨٨
إن رجلاً سأل النبي صلى اللّه عليه وسلم عن المباشرة ١٩١
إن الشمس لم تحبس على بشر إلا ليوشع ليال سار إلى بيت المقدس ٢٥٦
إن الشيخ يملك نفسه ١٩١
إن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنّة ٩٤، ٩٥
إن صلاتنا هذه لا يصلح فيها شيء ٢٨٢
إن قتال المسلم كفر ١٠٢

إن قلوب بني آدم كلها بين اصبعين من أصابع ٢٧٤
إن المؤمن إذا لقي المؤمن فسلم عليه ١٣٢
إنا معشر الأنبياء، إنما نحكم بالظاهر، والله يتولى السرائر ٧٩
إنما أنا بشر، وإنه يأتيني الخصم ٨٣ و٨٤ و٢٠٢
إني أوتيت القرآن ومثله معه ٦
إني لأول الناس تنشق الأرض عن جمجمتي ٢٩
إني لم أؤمر أن أنقب عن قلوب الناس ٨٠، ٨٤
أول ما بدأ به رسول الله من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم ٦١، ٦٢
ألا أعلمكم شيئاً تدركون به من سبقكم ٢٣٦
ألا أعلمكما خيراً مما سألتماني ١٧٨
بعثت بين يدي الساعة بالسيف ٢٤
بينما رجل يتبختر في بردين ٦٦
البيعان بالخيار ما لم يتفرقا ٩٥
تجزئ عنك، ولن تجزئ عن أحد بعدك ١٣٩
تدمع العين، ويحزن القلب ٢٦١
تسمعون ويسمع منكم ٦٤
التائب من الذنب كمن لا ذنب له ١٤٤
التحدث بنعمة الله شكر ٢٨
ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان ١٩٣

ثلاث مهلكات: شح مطاع، وهوى متبع ٦٦
الثلث كثير ١٨٤
جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم ٧٥
جعلت لي الأرض مسجداً ٩٦
جوف الليل الآخر، ودبر الصلوات المكتوبات ٢٣٣ - ٢٣٤
حديث بيعة العقبة ٢٩ - ٣٣
حديث المخلفين ١١ - ٢١
خصلتان أو خلتان لا يحافظ عليها ٢٣٧ - ٢٣٨
خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى ١٢٩
خيركم قرني ثم الذين يلونهم ١٧٢
رب ألم تعدني ألا تعذبهم وأنا فيهم ٢٦٢
رخص للشيخ وهو صائم، ونهى الشاب ١٩١
سبعة يظلهم اللّه في ظله يوم لا ظل إلا ظله ٢٦٠
ستجندون أخياراً ٢٢٥
سدوا وقاربوا ١٤٥
سيأتيكم أقوام يطلبون العلم ٦٤ - ٦٥
الشهر يكون تسعة وعشرين يوماً ١٠٣
الصدق طمأنينة، والكذب ريبة ٩٤
غزا نبي من الأنبياء؛ فقال لقومه ٢٣، ٢٥٥، ٢٥٦
فانظري أي أنت منه ١٧٧
فوالذي لا إله غيره ١٥١

قم يا حمزة، قم يا علي ١٩٠
كان رسول اللّه -صلى اللّه عليه وسلم- إذا أتاه ١٣٠
كان رسول اللّه -صلى اللّه عليه وسلم- إذا خطب احمرت عيناه ٢٦٥
كان رسول اللّه -صلى اللّه عليه وسلم- إذا انصرف من صلاته ٢٣٥
كان رسول اللّه -صلى اللّه عليه وسلم- يلتفت في صلاته يميناً وشمالاً ١٧٣
كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له في الأرض ١٢٥
كانت بنوا اسرائيل تسوسهم الأنبياء ٢٥٥
كل أمتي معافى إلا المجاهرين ١٦٠
كل بدعة ضلالة ١١٦
كنا قعود حول رسول اللّه -صلى اللّه عليه وسلم- ١١٩
كنت أعرف انقضاء صلاة رسول اللّه بالتكبير ٢٣٥
لما نزلت ﴿والذين يرمون المحصنات﴾ ٢٦٧ - ٢٦٩
لو لم تكونوا تذنبون لخفت عليكم ٦٦
اللّهم اغفر لي ذنوبي وخطاياي كلها ٢٤٠
اللّهم إني أعوذ بك من الجبن ٢٣٧
اللّهم إني أعوذ بك من الكفر ٢٤١
ما أبقيت لأهلك ١٤٠
ما من مسلمين يلتقيان، فيتصافحان ١٣٢

مرحباً بوصية رسول اللّه -صلى اللّه عليه وسلم- ٦١
معقبات لا يخيب قائلهن أو فاعلهن ٢٣٦
ملعون من سأل اللّه بوجه ١٩١ - ١٩٢
من أبلى بلاء فذكره فقد شكره ٢٨
من أحسن في الإسلام لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية ١٤٨
من التمس رضا اللّه بسخط الناس ١٩٨
من بات على ظهر بيت ليس عليه حجار ٢١٢
من بات فوق بيت ليس له إجار، فوقع فمات ٢١٢، ٢١٣
من سأل اللّه الشهادة صادقاً من قلبه ٥٩
من سبح اللّه في دبر كل صلاة ٢٣٦، ٢٣٧
من سمع بالدجال؛ فلينأ عنه ١١٢
من شرب الخمر، لم تقبل له صلاة أربعين صباحاً ١٤٦
من كانت الدنيا أكبر همه ٥٥
نصرت بالرعب مسيرة شهر ٢٢٦
نعم، دعاة على أبواب جهنم ٢٣٠
نهى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أن ينام الرجل
على سطح ليس بمحجور ٢١٢
نهاني خليلي عن ثلاث ١٧٦
الندم التوبة ١٤٣
هذه عير قريش فيها أموالهم ٣٣
هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد ١٧٤

الهم والحزن، والعجز والكسل ١٦٧

وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مؤمناً ١٢٨

وما يدريك أن اللّه اطلع على أهل بدر ٣٥

ومن اجترأ على ما يشك فيه من الإثم ١٨٩

ويلك أولست أحق أهل الأرض ٢٨٤

لا أحد أغير من اللّه، من أجل ذلك حرم الفواحش ١٦٢

لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له ٢٣٥

لا، بل عارية مضمونه ١٨٦

لا تباغضوا، ولا تحاسدوا ١٠١

لا تخذف فإن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم نهى عن الخذف ١٠٥

لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك ٢١١

لا هجرة بعد ثلاث ١٠٢

لا هجرة بعد الفتح ٦٠

لا والذي نفسي بيده، حتى أكون أحب إليك ١٩٣ - ١٩٤

لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده ١٩٣

لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ١٢٧

لا يحل للمؤمن أن يهجر أخاه فوق ثلاث ١٠٢

لا يحل لمسلم أن يهجر ١٠١، ١٠٢

لا يكون المسلم أن يهجر مسلماً ١٠٢

لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه ١٢٤

يا غلام، إني أعلمك كلمات ٦٢
يا معاذ والله إني لأحبك ٢٣٨ - ٢٣٩
يجزئ عنك الثلث ١٣٧
يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ٧٥
يقدم عليكم غداً أقوام ١٣٣
يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة على قصعتها ٢٢٣، ٢٢٤

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

فهرس الفوائد

المقدمة ٥
■ نص حديث المخلفين ١١
■ الفائدة الأولى: إباحة الغنيمة لهذه الأمة الإسلامية المرحومة ٢٣
■ الفائدة الثانية: القتال يوم بدر لم يكن فرضاً عينياً ٢٦
■ الفائدة الثالثة: جواز التحدث بنعم اللّه إذا لم يكن على سبيل الفخر والترفع والرياء ٢٧
■ الفائدة الرابعة: بيعة العقبة من أفضل مشاهد الصَّحابَة ٢٩
■ الفائدة الخامسة: فضيلة أهل العقبة وبدر، وأنهم جيل القدوة وقرن الأسوة ٣٤
■ الفائدة السادسة: جواز إخبار الرجل عن تفريطه وتقصيره في طاعة اللّه ورسوله، وعن سبب ذلك، وما آل إليه أمره؛ للموعظة والاعتبار، ولا يُعَدُّ ذلك من المجاهرة بالمعصية ٣٦
■ الفائدة السابعة: تسلية المرء نفسه عما لم يقدر عليه من الخير بما قدر له من نظيره أو خير منه ٣٦
■ الفائدة الثامنة: أن الإمام إذا رأى مصلحة في أن يستر على رعيته بعض ما يهم به ويقصده من العدو ويورّي به عنه استحب له ذلك أو يتعين بحسب المصلحة، ومن ذلك ينبغي لأمير الجيش إذا أراد غزوة أن يوري بغيرها؛ لئلا يسبقه الجواسيس ونحوهم بالتحذير ٣٧

■ الفائدة التاسعة: أن الستر والكتمان إذا تضمن مفسدة لم يجز ٣٧
■ الفائدة العاشرة: الجيش في حياة النبي -صلى اللّه عليه وسلم- لم يكن له ديوان جامع ٤٣
■ الفائدة الحادية عشر: الحزم في مبادرة الطاعة إذا حضرت فرصتها أو حان وقتها ٤٩
■ الفائدة الثانية عشر: الركون إلى الدنيا وإيثارها رأس كل بلية في الدين ٥٣
■ الفائدة الثالثة عشرة: لم يكن يتخلف عن رسول اللّه -صلى اللّه عليه وسلم- إلا أحد ثلاثة: رجل مغموص عليه في النفاق، أو رجل من أهل الأعذار، أو رجل خَلَّفه رسول اللّه -صلى اللّه عليه وسلم- لمصلحته أو استعمله على المدينة ٥٧
■ الفائدة الرابعة عشر: الإمام والمطاع لا ينبغي أن يهمل من تخلف عنه في بعض الأمور، بل يَذكُرُهُ وَيُذَكِّره؛ ليراجع الطاعة ويتوب ٦٠
■ الفائدة الخامسة عشر: العجب من المهلكات ٦٥
■ الفائدة السادسة عشر: جواز الطعن في الرجل بما يغلب على اجتهاد الطاعن حمية أو ذباً عن اللّه ورسوله -صلى اللّه عليه وسلم- ٦٧
■ الفائدة السابعة عشر: الرد على المخالف والطاعن من أصول الدين إذا غلب على ظن الراد أن المخالف وهم أو غلط ٦٩
■ الفائدة الثامنة عشر: السنة للقادم من السفر أن يدخل البلد على وضوء، وأن يبدأ ببيت اللّه قبل بيته؛ فيصلي فيه ركعتين، ثم يجلس للمُسَلِّمين عليه، ثم ينصرف إلى أهله ٧٨

■ الفائدة التاسعة عشر: أحكام الإِسلام تجري على الظاهر والله يتولى السرائر ٧٨

■ الفائدة العشرون: «ترك الإمام والحاكم رد السلام من أحدث حدثاً تأديباً له، وزجراً لغيره، فإنه -صلى الله عليه وسلم- لم ينقل أنه رد على كعب، بل قابل سلامه بتبسم المغضب» ٨٥

■ الفائدة الحادية والعشرون: ملامح الوجه لا تدل على حقيقة الحال ٨٥

■ الفائدة الثانية والعشرون: «معاتبة الإمام والمطاع أصحابه ٨٦

■ الفائدة الثالثة والعشرون: التوفيق حليف الصدق وقرينه ٨٧

■ الفائدة الرابعة والعشرون: جواز التمسك بمفهوم اللقب عند وجود قرينة ٩٦

■ الفائدة الخامسة والعشرون: رد المصائب بروح التأسي ٩٧

■ الفائدة السادسة والعشرون: وجوب هجران أهل البدع والفسوق ومنابذي السنة ٩٩

■ الفائدة السابعة والعشرون: رد السلام على من يستحق الهجر غير واجب ١١٦

■ الفائدة الثامنة والعشرون: دخول الإنسان دار صاحبه دون استئذان ١١٧

■ الفائدة التاسعة والعشرون: مدار الأقوال والأفعال على العلم والقصد ١٢٠

■ الفائدة الثلاثون: الابتلاء يمحص الإيمان والمؤمنين ١٢١

■ الفائدة الحادية والثلاثون: زمن العبادات ينبغي فيه تجنب النساء ١٢٥

■ الفائدة الثانية والثلاثون: ألفاظ الكنايات مدارها على قصد القائل ١٢٦

■ الفائدة الثالثة والثلاثون: تنافس المسلمين في مسرة بعضهم بعضاً، وتسابقهم في الخير ١٢٧
■ الفائدة الرابعة والثلاثون: مشروعية سجود الشكر ١٢٨
■ الفائدة الخامسة والثلاثون: البذل عند البشائر من مكارم الأخلاق وعادة الكرام ١٣١
■ الفائدة السادسة والثلاثون: استحباب المصافحة عند التلاقي ١٣٢
■ الفائدة السابعة والثلاثون: استحباب التهنئة ١٣٣
■ الفائدة الثامنة والثلاثون: شدة شفقة رسول اللّه -صلى اللّه عليه وسلم- على أمته، وكمال رحمته ورأفته بهم، وتمام فرحه لهم ١٣٣
■ الفائدة التاسعة والثلاثون: يوم التوبة أعظم أيام العبد ١٣٤
■ الفائدة الأربعون: استحباب الصدقة عند التوبة بما يقدر عليه من مال ١٣٥
■ الفائدة الحادية والأربعون: الصدق في التوبة ١٤١
■ الفائدة الثانية والأربعون: الاعتراف بالذنب واستغفار اللّه مدعاة لقبول التوبة ١٤٢
■ الفائدة الثالثة والأربعون: الندم على ما فرط في جنب اللّه ١٤٢
■ الفائدة الرابعة والأربعون: التوبة تَجبُّ ما قبلها ١٤٣
■ الفائدة الخامسة والأربعون: من تاب بسبب من الخير ينبغي أن يحافظ عليه ١٤٤
■ الفائدة السادسة والأربعون: عظم ضرر المعاصي والذنوب وخطورتها ١٥٣

■ الفائدة السابعة الأربعون: جواز الحلف من غير استحلاف في غير الدعوى عند القاضي ١٧١
■ الفائدة الثامنة والأربعون: مسارقة النظر في الصلاة لا يبطلها ١٧٣
■ الفائدة التاسعة والأربعون: وجوب خدمة المرأة زوجها ١٧٦
■ الفائدة الخمسون: يستحب لمن رأى من يريد أن يتصدق بكل ماله ويخاف عليه أن لا يصبر أن ينهاه عن ذلك ويشير عليه ببعضه ١٨٣
■ الفائدة الواحدة والخمسون: جواز طلب أموال الكفار من ذوي الحرب بعد إباحة الغنيمة ١٨٤
■ الفائدة الثانية والخمسون: جواز استعارة الثياب للبس ١٨٥
■ الفائدة الثالثة والخمسون: جواز العارية ١٨٥
■ الفائدة الرابعة والخمسون: استحباب اجتماع الناس عند إمامهم وكبيرهم في الأمور الهامة من بشارة ونذارة ومشورة ١٨٦
■ الفائدة الخامسة والخمسون: جواز تخصيص اليمين بالنية ١٨٧
■ الفائدة السادسة والخمسون: استحباب الورع والاحتياط إذا خشي الوقوع في منهي عنه ١٨٨
■ الفائدة السابعة والخمسون: الشاب أجلد من الشيخ ١٨٩
■ الفائدة الثامنة والخمسون: الشيخ أملك لأربه ١٩٠
■ الفائدة التاسعة والخمسون: جواز السؤال باللّه في غير الأمور الدنيوية ١٩١
■ الفائدة الستون: إيثار محبة اللّه ورسوله على ما سواهما ١٩٢
■ الفائدة الواحدة الستون: من عوقب بالهجر يعذر في التخلف عن ١٩٧

صلاة الجماعة
■ الفائدة الثانية والستون: تحقيق رضوان اللّه هو رأس مال العبد وسبيل نجاته؛ فمن أرضى اللّه في سخط الناس كفاه اللّه مؤنة الناس، ومن أرضى الناس في سخط اللّه وكله اللّه إليهم ١٩٨
■ الفائدة الثالثة والستون: القوة في الكلام والبراعة في المخاطبة ليس دليلاً على صدق المتحدث وصحة الحجة ٢٠١-٢٠٢
■ الفائدة الرابعة والستون: جواز إحراق ورقة فيها ذكر اللّه تعالى لمصلحة ٢٠٢
■ الفائدة الخامسة والستون: المبادرة إلى اتلاف ما يخشى منه الفساد والمضرة ٢٠٢
■ الفائدة السادسة الستون: فائدتان في التفسير ٢٠٣
■ الفائدة السابعة والستون: القوي في الدين يؤاخذ بأشد مما يؤاخذ به الضعيف ٢٠٤
■ الفائدة الثامنة والستون: الخطأ والنسيان المحترز عنهما بالعمد غير مؤاخذ به الإنسان، وهما لا ينقضان الالتزام ٢٠٤
■ الفائدة التاسعة والستون: تفضيل الشيء على نفسه باعتبار تعدد الزمان والمكان ٢٠٤
■ الفائدة السبعون: إذا أحب اللّه عبداً عجل عقوبته في الدنيا ٢٠٤
■ الفائدة الواحدة السبعون: التورية في القصد عند الغزو؛ لأن الحرب خدعة ٢٠٦
■ الفائدة الثانية والسبعون: جواز ترك وطء الزوجة مدة ولا يعد ذلك ٢٠٦

إيلاء
■ الفائدة الثالثة والسبعون: المنافقون وأولو الأعذار لا أسوة فيهم ٢٠٧
■ الفائدة الرابعة والسبعون: إخبار اللّه لرسوله -صلى اللّه عليه وسلم- عن بعض الغيب ٢٠٧
■ الفائدة الخامسة والسبعون: جواز مشاورة الرجل أهله وزوجاته ٢٠٧
■ الفائدة السادسة والسبعون: لا يزال البلاء بالمؤمن حتى يخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه ٢٠٨
■ الفائدة السابعة والسبعون: جواز الاستفهام عن الأمر الذي يحتمل أكثر من وجه لمعرفة المراد والقصد ٢٠٩
■ الفائدة الثامنة والسبعون: رد الفضل إلى اللّه ٢٠٩
■ الفائدة التاسعة والسبعون: تشبيه الوجه الذي فيه استنارة وملاحة بالقمر ٢١٠
■ الفائدة الثمانون: للصدق علامات يعرف بها، وأمارات ترشد إليه ٢١٠
■ الفائدة الواحدة الثمانون: ليس للمذنبين ملجأ من اللّه إلا اللّه ٢١١
■ الفائدة الثانية والثمانون: جواز المبيت على سطح البيت ٢١٢
■ الفائدة الثالثة والثمانون: تنكر الأرض وضيقها على الخائف والمهموم ٢١٣
■ الفائدة الرابعة والثمانون: استحباب خروج المسافر يوم الخميس ٢١٥
■ الفائدة الخامسة الثمانون: استحباب القدوم نهاراً، وعدم طرق الأهل ليلاً ٢١٦
■ الفائدة السادسة والثمانون: خطورة التسويف، وأنه يؤدي إلى ضياع ٢١٧

الخير من الإنسان، ولا ينفع الندم بعد فوات الأوان
■ الفائدة السابعة والثمانون: أعداء اللّه يرصدون حركة المجتمع الإسلامي؛ ليجدوا منافذ يتسللون منها لواذاً؛ ليفسدوه، أويئدوه ٢٢١
■ الفائدة الثامنة والثمانون: الإنسان قد يضعف أمام ضغط المجتمع، والتأنيب، واللوم ٢٣٢
■ الفائدة التاسعة والثمانون: استحباب الجلوس عقيب الصلاة لذكر اللّه ٢٣٣
■ الفائدة التسعون: البيعة عقد شرعي لنصرة الإسلام، وهي واجبة لإمام جماعة المسلمين المنفذ لأحكام الدين ٢٤٣
■ الفائدة الحادية التسعون: الإمام إذا عزم على أمر وتوكل على اللّه لا ينبغي أن يتلفت خلفه ٢٤٤
■ الفائدة الثانية والتسعون: استغفار رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ينفع المؤمنين وأما الكافرين والمنافقين فلا ٢٤٥
■ الفائدة الثالثة والتسعون: استحباب التعرض لمواطن الرحمة، واستمطار المغفرة، واستجلاب التوبة ٢٤٦
■ الفائدة الرابعة والتسعون: تلطف المسيء بالتعرض لمن أساء إليه، والتودد إليه بالاعتذار ٢٤٦
■ الفائدة الخامسة التسعون: حفظ الجميل ٢٤٦
■ الفائدة السادسة والتسعون: عدم الاغترار بالعمل فمن فعل ذلك وُكِل إلى نفسه ٢٤٦
■ الفائدة السابعة والتسعون: للشيخ الكبير حق ينبغي مراعاته ٢٤٧

■ الفائدة الثامنة والتسعون: الشيخ الكبير بحاجة للرعاية والخدمة والقيام على شؤونه ٢٤٧
■ الفائدة التاسعة والتسعون: الخروج للجهاد بحاجة إلى إعداد واستعداد ٢٤٨
■ الفائدة المئة: استحباب البكاء من خشية اللّه، وبخاصة إذا فرط العبد في جنب اللّه ٢٥٩
■ الفائدة الحادية والمئة: جواز رفع الصوت لحاجة ٢٦٤
■ الفائدة الثانية والمئة: أن الإمام إذا استنفر الجيش عموماً لزمهم النفير، ولحق اللوم بكل فرد لو تخلف ٢٦٦
■ الفائدة الثالثة والمئة: جواز التجارة مع الكفار ٢٦٦
■ الفائدة الرابعة والمئة: بين الشيخ العجوز والمرأة الصغيرة ٢٦٦
■ الفائدة الخامسة والمئة: استحباب الكنايات في ألفاظ الجماع وأمور النساء ٢٧١
■ الفائدة السادسة والمئة: حال المؤمن بين الخوف والرجاء ٢٧٢
■ الفائدة السابعة والمئة: الخوف من سوء الخاتمة، والحرص على حسنها ٢٧٣
■ الفائدة الثامنة والمئة: الإحصاء أصل في ضبط أحوال العباد والبلاد ٢٧٥
■ الفائدة التاسعة والمئة: الحسد ظاهر بين الأقارب ٢٧٦
■ الفائدة العاشرة والمئة: مراسيل الصحابة حجة ٢٧٧
■ الفائدة الحادية عشر والمئة: الشعر دون إيمان منبع الغواية ٢٨٠
■ الفائدة الثانية عشر والمئة: حديث النفس والإشارة لا يسمى كلاماً ٢٨١
■ الفائدة الثالثة عشر والمئة: صحة المنهج السلفي وحجيته ٢٨٣

من مصنفات المؤلف المطبوعة

١- الآداب الشرعية من هدي خير البرية (تحقيق وتخريج)
٢- ابن تيمية المفترى عليه
٣- الأخلاق النبوية المعطّرة في الآيات القرآنية المطهّرة
٤- الأدلة والشواهد على وجوب الأخذ بخبر الواحد في الأحكام والعقائد
٥- الأذكار (تحقيق وتخريج)
٦- أركان الإيمان
٧- إتحاف السالك بفوائد حديث المخلفين من رواية كعب بن مالك
٨- الإسعاد بذكر فوائد وصية علي للكميل بن زياد
٩- إيقاظ الهمم المنتقى من جامع العلوم والحكم
١٠- الاعتصام (تحقيق)
١١- البدعة وأثرها السيء في الأمّة
١٢- بذل الجهد في ترتيب أحاديث الزهد
١٣- بصائر ذوي الشرف بشرح مرويات منهج السلف
١٤- بهجة الناظرين بشرح رياض الصالحين
١٥- تحذير أهل الإيمان (تحقيق وتخريج)
١٦- التحف في مذاهب السلف (تحقيق بالاشتراك)
١٧- التعظيم والمنّة في الانتصار للسنة
١٨- التعليقات الوفية على حديث إنها صفية
١٩- تفليس إبليس (تحقيق وتخريج)
٢٠- تنقيح الإفادة المنتقى من مفتاح دار السعادة
٢١- التواضع
٢٢- التوبة النصوح
٢٣- الثبات على الإسلام
٢٤- الجامع المفهرس
٢٥- جزء محمد بن عاصم عن شيوخه (تحقيق وتخريج)

٢٦- الجماعات الإسلامية في ضوء الكتاب والسنة بفهم سلف الأمة
٢٧- حادي الروح
٢٨- الحب والبغض في الله
٢٩- حجة إبليس (تحقيق وتخريج)
٣٠- حقائق الإسلام
٣١- حقيقة الإيمان
٣٢- حلاوة الإيمان
٣٣- حلية العالم المعلم وبلغة الطالب المتعلم
٣٤- الحياء
٣٥- الخشوع
٣٦- خطبة الحاجة (تحقيق وتخريج)
٣٧- درء الارتياب عن حديث ما أنا عليه والأصحاب
٣٨- دراسات منهجية في العقيدة السلفية
٣٩- الدعوة والدعاة بين تحقيق التوكل واستعجال النتائج
٤٠- دفاع عن حديث الجارية
٤١- دلائل الصواب في إبطال تقسيم الدين إلى قشر ولباب
٤٢- الرد العلمي (بالاشتراك)
٤٣- الرسالة التبوكية (تحقيق وتخريج)
٤٤- رسالة في القلب (تحقيق وتخريج)
٤٥- الرواة المترجم لهم في الكتب الستة
٤٦- الرياء
٤٧- الزجر بالهجر (تحقيق وتخريج)
٤٨- السبل السوية شرح أهداف الدعوة السلفية
٤٩- سلسلة الأحاديث التي لا أصل لها
٥٠- سماحة الإسلام
٥١- الشهاب الثاقب
٥٢- الصبر الجميل
٥٣- صحيح الوابل الصيب
٥٤- صفة صوم النبي -صلى اللّه عليه وسلم- في رمضان (بالاشتراك)
٥٥- صفحات مطوية من حياة العز بن عبد السلام
٥٦- عدة الصابرين (تحقيق وتخريج)
٥٧- الغربة والغرباء
٥٨- القابضون على الجمر
٥٩- القرآن يتحدى
٦٠- القول المبين في جماعة المسلمين

٦١- القول الموثوق في تصحيح حديث السوق
٦٢- الكوكب الدري المتلالي
٦٣- اللآلئ المنثورة بأوصاف الطائفة المنصورة
٦٤- لماذا اخترت المنهج السلفي
٦٥- مؤلفات سعيد حوى
٦٦- مبطلات الأعمال
٦٧- مجمع البحرين في تخريج أحاديث الوحيين
٦٨- مختصر إيقاظ همم أولي الأبصار
٦٩- مدارج العبودية
٧٠- المرشد المبدي في ترتيب أحاديث مسند الحميدي
٧١- مطلع البدرين
٧٢- مغازي الرسول
٧٣- مقامع الشيطان
٧٤- مكارم الأخلاق
٧٥- مكفرات الذنوب
٧٦- من وصايا السلف
٧٧- مناظرات السلف
٧٨- منهج الأنبياء في تزكية النفوس
٧٩- المنهل الرقراق
٨٠- مهذب اجتماع الجيوش الإسلامية
٨١- موسوعة المناهي
٨٢- نصح الأمة في فهم أحاديث افتراق الأمة
٨٣- نفحات العطر في فوائد تعجيل الفطر
٨٤- هل المسلم ملزم باتباع مذهب من المذاهب الأربعة
٨٥- الوصية الصغرى (تحقيق وتخريج)
٨٦- الياقوت والمرجان في ترتيب أحاديث تاريخ جرجان

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

دعوتنا

١ ـ الرجوع إلى القرآن العظيم، والسنة النبوية الصحيحة وفهمهما على النهج الذي كان عليه السلف الصالح رضوان الله عليهم؛ عملاً بقول ربنا جل شانه: ﴿ومن يشاقق الرسول من بعدما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً﴾، وقوله سبحانه: ﴿فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا﴾.

٢ ـ تصفية ما علق بحياة المسلمين من الشرك على اختلاف مظاهره، وتحذيرهم من البدع المنكرة، والأفكار الدخيلة الباطلة، وتنقية السنة من الروايات الضعيفة والموضوعة؛ التي شوهت صفاء الإسلام، وحالت دون تقدم المسلمين، أداء لأمانة العلم، وكما قال الرسول الكريم ﷺ: «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله: ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين»، وتطبيقاً لأمر الله عز وجل: ﴿وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان﴾.

٣ ـ تربية المسلمين على دينهم الحق، ودعوتهم إلى العمل بأحكامه، والتحلي بفضائله وآدابه، التي تكفل لهم رضوان الله، وتحقق لهم السعادة والمجد، تحقيقاً لوصف القرآن للفئة المستثناة من الخسران: ﴿... وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾، ولأمره سبحانه: ﴿ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون﴾.

٤ ـ إحياء المنهج العلمي الإسلامي الصحيح في ضوء الكتاب والسنة، وعلى نهج سلف الأمة، وإزالة الجمود المذهبي، والتعصب الحزبي، الذي سيطر على عقول كثير من المسلمين، وأبعدهم عن صفاء الأخوة الإسلامية النقية تنفيذاً لأمر الله جل وعلا: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا﴾، وقوله ﷺ: «وكونوا عباد الله إخواناً».

٥ ـ تقديم حلول إسلامية (واقعية) للمشكلات العصرية الراهنة.

٦ ـ السعي نحو استئناف حياة إسلامية راشدة على منهج النبوة، وإنشاء مجتمع رباني، وتطبيق حكم الله في الأرض، انطلاقاً من منهج التصفية والتربية المبني على قوله تعالى: ﴿ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم﴾، واضعين نصب أعيننا قول ربنا سبحانه لنبيه ﷺ: ﴿فإما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فإلينا يرجعون﴾ وتحقيقاً للقاعدة الشرعية: (من تعجل الشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه).

... هذه دعوتنا، ونحن ندعو المسلمين جميعاً إلى مؤازرتنا في حمل هذه الأمانة التي تنهض بهم وتنشر في الخافقين رسالة الإسلام الخالدة بصدق الأخوة، وصفاء المودة، والثقين بنصر الله، وتمكينه لعباده الصالحين، ﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾.

﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾.